مايكل أوترمان
ريتشارد هيل
بول ويلسون

محو العراق

خطّة متكاملة لاقتلاع عراق وزرع آخر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

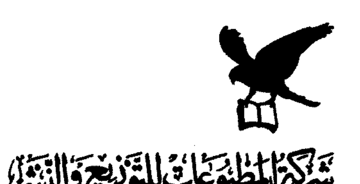
محو العراق

خطّة متكاملة لاقتلاع عراقٍ وزرع آخر

مايكل أوترمان وريتشارد هيل

مع بول ويلسون





شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١١

ISBN: 978-9953-88-620-6

Originally published as: **Erasing Iraq: The Human Cost of Carnage.**

First published by Pluto Press, London. www.PlutoPress.com.

ترجمة: انطوان باسيل

تدقيق لغوي: حبيب يونس

تصميم الغلاف: داني عوّاد

الإخراج الفني: فدوى قطيش

المحتويات

أُبدلت أسماء بعضٍ ممن أجريت معهم المقابلات حفاظًا على سلامتهم.

توطئة

جميل ضاهر

يا للحدود التي يذهب إليها البشر ليمارسوا، في الحدّ الأقصى، طقوس عبادة الذات الجماعية التي تملأهم شعورًا بالصلاح وبالاكتفاء المغتبط بالنفس وسط المظالم والجرائم الأكثر إثارة للصدمة.

ـ توماس ميرتون، الحب والحياة Thomas Merton, Love and Living

أشار اللواء ديفيد بركينز، الأربعاء ٢٥ آذار/مارس ٢٠٠٩، إلى تواتر الهجمات على الأهداف العسكرية الأميركية في العراق، وقال للصحافيين في بغداد: «بلغت الهجمات أدنى نسبة لها منذ آب/أغسطس ٢٠٠٣». وأضاف: «تعرّضنا لألف ومئتين وخمسين هجومًا في الأسبوع في ذروة العنف؛ وتبلغ الهجومات الآن أحيانًا أقل من مئة في الأسبوع الواحد».

احتلت هذه البلاغة عناوين بعض وسائل الإعلام الأميركية السائدة، لكنها لم تشكّل تعزية كبرى لعائلات ٢٨ عراقيًا قُتلوا في اليوم التالي في أنحاء مختلفة من البلاد. وهي لم تجلب كذلك السلوان إلى أُسر ٢٧ عراقيًا ذُبحوا في هجوم ٢٣ آذار/ مارس الانتحاري، أو إلى الناجين من هجوم بالقنبلة على موقف للباصات في بغداد أدى، في اليوم نفسه، إلى مقتل تسعة أشخاص.

عدت أخيرًا من العراق حيث اختبرت الحياة في بغداد التي يقتل فيها العنف الناس يوميًا. ففي كل يوم تقريبًا من أيام الشهر الذي أمضيته هناك، انفجرت سيارة مفخخة في مكان ما في العاصمة. وتعرضت ما تسمى بالمنطقة الخضراء لقذائف الهاون. وشهد كل يوم عمليات اختطاف. أما كهرباء الشبكة الوطنية فتتوافر في الأيام الجيدة أربع ساعات في بلد يكاد يدخل العام الثامن من سقوطه تحت احتلال الجيش الأميركي ولا يزال يتمركز فيه نحو ١٥٠ ألف مقاول خاص و١٢٤ ألف جندي أميركي[١].

اختبرتُ، في عودتي إلى الديار، الانقطاع بين ذلك الواقع الذي يعيشه نحو ٢٥ مليون عراقي والتجربة السريالية للحياة في الولايات المتحدة، حيث يدّعي معظم الإعلام أن العراق لم يُحتل، أو أنه يستخدم معيار الانخفاض في عدد القتلى من العناصر الأميركيين مقياسًا للنجاح. وإذا اعتمدنا كلام اللواء بركينز فـ«إذا نظرت إلى عدد القتلى العسكريين، وهو مؤشر إلى العنف والفتك هناك، تجد أن عددهم بلغ أدنى مستوى له منذ بدء الحرب قبل ستة أعوام». لكن ذلك مقياس لا يفيد كثيرًا إذا نظرنا إلى الصورة الأكبر في داخل العراق: الذبح اليومي المستمر للعراقيين، والغياب شبه التام للبنى التحتية العاملة، وواقع أن واحدًا بين كل ستة عراقيين لا يزال مهجَّرًا من منزله، أو واقع أن ما لا يقل عن ١,٢ مليون عراقي ماتوا نتيجة الغزو الذي تقوده الولايات المتحدة واحتلال بلادهم.

ونتج عن أكثر من ثمانين شهرًا من الاحتلال، وإنفاق أكثر من ثمانمئة مليار دولار على الحرب (بحسب التقديرات المحافظة)، وتهجير داخلي لـ٢،٢ مليون عراقي، و٢,٧ مليون لاجئ، ومقتل ٢٦١٥ أستاذًا وعالمًا وطبيبًا بدم بارد، ومقتل ٣٤١ عاملًا في حقل الإعلام. وأساءت الحكومة العراقية الراهنة استخدام ما يزيد عن ١٣ مليار دولار، ويحتاج الأمر إلى ٤٠٠ مليار دولار لإعمار البنى التحتية العراقية (بل يصل بعض التقديرات إلى التريليون الواحد). وتراوح البطالة ما بين ٢٥ في المئة و٧٠ بحسب الأشهر. وهناك ما معدّله دزينتان من السيارات المفخخة في

(١) حتى تاريخ نشر هذا الكتاب بالإنكليزية عام ٢٠١٠.

الشهر، وعشرة آلاف حالٍ من الكوليرا سنويًا، و٤٣٥٢ جنديًا أميركيًا قتيلًا، وأكثر من ٧٣ ألف جندي تعرضوا لإصابات جسدية أو نفسية.

لا وجود للحياة الطبيعية في بغداد. وفي وقت يصحّ، تقنيًا ودقّة، القول بوجود عنف أقل الآن بالمقارنة مع العام ٢٠٠٦ الذي تعرّض خلاله ما بين ١٠٠ عراقي و٣٠٠ للذبح يوميًا. يصحّ أيضًا أن العراق يشبه اليوم أكثر من ذي قبل الدولة البوليسية. ويستحيل السفر لأكثر من خمس دقائق من دون مصادفة دورية عراقية تابعة للجيش أو للشرطة – تتألف عادة من بيك-آب يعج بالرجال المسلحين وتزعق أبواقه و/أو صفارات إنذاره. وتطوف النساء المستعطيات والأطفال بين السيارات عند كل مفترق طرق. وكثيرًا ما تهدر طائرات الهيليكوبتر العسكرية الأميركية فوق الرؤوس، فيما أصبح رعد الطائرات المقاتلة أو طائرات النقل أمرًا شائعًا. وما من حديث عن تعويض العراقيين الموت والدمار والفوضى التي تسبب بها الاحتلال.

وتقدّم الأحياء، التي ينفصل فيها السنة والشيعية نتيجة لما يُسمّى باستراتيجية «الاندفاع»، رؤية صارخة عن بلقنة العراق. ولا يزال الكثير من هذه الأحياء محاطًا كليًّا بجدران من الإسمنت المقاوم لعصف الانفجارات بارتفاع عشرة أقدام، فتستحيل معه الحياة العادية. ويلقي الخوف من تجدّد العنف بثقله الشديد على العراقيين، إذ يبدو ما يُسمّى بالهدوء الراهن مهتزًّا وربّما على وشك الزوال. ولا يمكن أحدًا هناك توقّع المستقبل، في وقت يبدو الأمل في تحسّن دائم في أي وجه من أوجه الحياة ساذجًا، وحتى خطرًا أيضًا.

ويصف «العراق المفتّت» Iraq in Fragments – عنوان فيلم جايمس لونغلي الذي رشح عام ٢٠٠٧ إلى نيل جائزة الأوسكار – عراق اليوم في دقة. فقد أدت عشرة أعوام من السياسة الأميركية إلى تدمير البلاد. ونجد في مجرّد العودة إلى العام ١٩٨٠ الحكومة الأميركية تساند كلًّا من العراق وإيران في حرب الأعوام الثمانية الرهيبة التي دارت بينهما. ونجد بعد حرب جورج هـ. و. بوش عام ١٩٩١ على العراق التي أعقبتها اثنتا عشرة سنة ونصف السنة من العقوبات الإبادية قُتل خلالها نصف مليون طفل عراقي أشرف هو على فرضها ومن بعده بيل كلينتون وجورج دبليو

بوش، أن ما تبقّى من العراق اليوم، في عهد الرئيس باراك أوباما، كناية عن خراب يتصاعد منه الدخان ولا يبدو أن هناك نهاية حقيقية للاحتلال. وقد قال الجنرال جورج كايسي للصحافيين في أيار/مايو ٢٠٠٩: «سيتوجب علينا الاحتفاظ، عقدًا من الزمن، بعشر وحدات من الجيش ومارينز تنتشر في العراق وفي أفغانستان». وهي مدة زمنية تتجاوز بكثير الموعد الأساس للانسحاب الأميركي المحدد في ٣١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١١.

ويبدو كل الكلام على الانسحاب من العراق مجرد خطابات جوفاء بالفعل، بالنسبة إلى معظم العراقيين الذين يمكنهم أن يشاهدوا بأم العين القواعد الأميركية العملاقة «الثابتة» التي تنتشر الآن في مختلف أنحاء بلادهم، أو «السفارة» الأميركية الجديدة التي يبلغ حجمها حجم مدينة الفاتيكان. وتمتد الهوة بين خطاب الانسحاب والواقع على الأرض على امتداد المسافة بين العراق والولايات المتحدة، فيما تصفع الحقيقة العراقيين على وجوههم، كل يوم يستمر الاحتلال.

أمكنني دومًا، خلال الأوقات الأكثر ظلمة التي أثقل فيها عبء عملي في العراق على روحي، أن أجد التعزية في واقع أن توثيقي ما فعلته الإدارة الأميركية بالشعب العراقي على مدى عقود يرتدي أهمية حاسمة. يجب أن يحصل الشعب العراقي على صوت. ويجب تسجيل وقائع الروزنامة الأميركية في العراق والثمن الضخم الذي دفعه الشعب العراقي. يجب تسجيل وقائع الحياة في العراق للتاريخ على رغم إنكارها المستمر في الغرب.

وهكذا شعرت راحةً كبيرة لما عرفت بأمر كتاب «محو العراق: الأثمان الإنسانية للمذبحة»، بل أكثر منها عندما طُلب مني أن أكتب هذه التوطئة.

و«محو العراق» كتاب نادر عن العراق يتمتع بما يكفي من الجرأة لأن يصف، وبعبارات لا لبس فيها، الخطة الأميركية في العراق على أنها إبادة جماعية، بل إنه يستخدم تعبيرًا يُرجّح أن الناس، في معظمهم، لم يتعوَّدوه وهو «إبادة المجتمع» الذي سبق للمؤلف كيث داوت أن استخدمه في كتابه «إدراك الشر: دروس من

البوسنة» Understanding Evil: Lessons from Bosnia. وإبادة المجتمع تعني القضاء على أسلوب حياة بأكمله، وتستتبع، على ما يشرح داوت «خطّة مُنسّقة من أعمال مختلفة تهدف إلى تدمير الركائز الأساسية للمجتمع». ويمكن أيضًا استخدام هذا المفهوم في حال العراق، على ما أوضح واضعا هذا الكتاب:

يشكّل التدمير المقصود للعراق وشعبه الذي قامت به الولايات المتحدة وحليفاتها خلال حرب الخليج وحقبة العقوبات الدولية وحرب الخليج الثانية – وبخاصة في ضوء عمليات النهب في نيسان/أبريل ٢٠٠٣ التي تغاضت عنها الولايات المتحدة والدعم الذي لقيه الأصوليون العنفيون – محاولة إبادة للمجتمع.

وعلينا جميعًا أن نشكر لـ«محو العراق» الواضح الكلام والذي اعتُني جدًّا بوضعه، أنه يستفيض في توثيق الحرب الأميركية المستمرة منذ عقود على البلاد. ولا ينسى الكتاب العامل الإنساني وهو يسجّل الاقتباسات والإحصاءات وجبالًا من الوقائع بما في ذلك التواطؤ الصحافي الصارخ في الجرائم التي ارتكبتها الحكومة والجيش الأميركيان في حق العراقيين.

نسمع أصوات اللاجئين العراقيين المنتشرين حول العالم، من أستراليا إلى سوريا، إلى جانب كلام أصحاب المدونات الإلكترونية العراقيين الذي قاموا بما رفضت وسائل الإعلام السائد في الغرب فعله: أنسنة الشعب العراقي، والإفساح في المجال أمامه للتحدّث وقول الحقيقة عما تم فعله ببلدهم وثقافتهم ومجتمعهم وحياتهم.

ولو أمكنني أن أوصي بكتاب واحد فقط يوفّر نظرة عامة شاملة لكل من الوضع الراهن في العراق والعقود التي استغرقتها السياسة المدعومة من الولايات المتحدة لإنتاج السيناريو الكابوس هذا، لأوصيت بكتاب «محو العراق».

كان الراحل هارولد بينتر الكاتب المسرحي المعاصر الأكثر نفوذًا في انكلترا وقد فاز علم ٢٠٠٥ بجائزة نوبل للآداب. وقدّم بيتر المعتل في خطاب قبوله الجائزة نقدًا لاذعًا لإنكار إعلام المؤسسات والحكومات الغربية معاناة شعب العراق. وقال بينتر

إن العراقيين، من منظور من هم في السلطة، «مغيّبون عن اللحظة. ولا وجود لموتهم. إنهم مجرّد فراغ، ولا يسجلون بصفة كونهم موتى».

يعرب مؤلفا «محو العراق» في حاشيتهما عن الأمل في أن يسهم عملهما، بعبارات بينتر، في «استرجاع ما نكاد نفقده الآن وهو كرامة الإنسان». وقد فعل «محو العراق» هذا تمامًا، بل وأكثر.

شكر

يود المؤلفان أن يشكرا لتمارا فنجان جهدها الكبير في الترجمة وفي التعاطف مع العدد الذي لا يحصى من العراقيين ممن التقيناهم في سوريا والأردن؛ ولأنتوني لوفنستين إرشاداته الحيوية وارتباطاته الواسعة التي ما كان الكتاب ليبصر النور لولاها؛ ولتوني مورفي من اتحاد موظفي حرفة السباكة في أستراليا حماسته ودعمه المالي الكريم؛ ولكريم، مضيفنا المتواضع في السويد، طبيعته الدافئة والمعطاء؛ ولباحثي مركز دراسات السلام والنزاعات في جامعة سيدني وموظفيه، توفيرهم بيئة حاضنة للعمل. ولروبين لينكولن وجو جونز مساعدتهما الكبرى في الأبحاث، وللطلاب الذين لم يتخرجوا بعد في العلوم الاجتماعية في «ساذرن كروس يونيفرسيتي» في حرم «تويد/غولد كوست» الجامعي، ملاحظاتهم الثاقبة. ولجيسيكا وجن تشجيعهما المستمر. ونود أخيرًا أن نشكر سامر وأحمد وفاضلة وباسل وأحلام ورافد وجميع العراقيين الآخرين الذين صرفوا من وقتهم وطاقاتهم لمشاركتنا قصصهم. قلوبنا باقية معكم على طول الطريق التي أمامكم.

رسالة موجزة خاصة من توني مورفي الرئيس الفديرالي لاتحاد موظفي حرفة السباكة في أستراليا:

لطالما حافظ اتحاد موظفي حرفة السباكة في أستراليا على موقف قوي في ما

يتعلق بالعدالة وبحقوق الإنسان، سواء من خلال التنديد بالفظاعات التي ارتكبها الغرب ضد سكان البلاد الأستراليين الأصليين أو ضد المدنيين العراقيين.

اتضح جيِّدًا، بعد الفرصة في لقاء أحد المشاركين في التأليف، بول ويلسون، في فوكت في تايلندا، أن في الامكان إقامة شراكة قوية للمساعدة في إعطاء المدنيين العراقيين صوتًا، وقد عانوا الكثير على أيدي الدول الغربية التي تتبارى في السيطرة على نفط العراق.

شاء القدر لهذا الكتاب أن يوضع. وكل من أسهموا فيه ساعدوا في تحقيق هذا.

توني مورفي

الرئيس الفديرالي

اتحاد موظفي حرفة السباكة، أستراليا

٢٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٩

مقدّمة
قلوب من حجر

بدأت فكرة هذا الكتاب بسؤال بسيط واحد: ما رأي العراقيين؟ فقد فشل الإعلام الغربي السائد فشلًا ذريعًا، مع وجود استثناءات – وبخاصة على الإنترنت – في نقل وجهات النظر العراقية في المرحلة التي سبقت اجتياح العام ٢٠٠٣. ما كان رأي العراقيين في صدام حسين؟ هل يريدون أن تغيّر الولايات المتحدة النظام؟ كيف يتصورون بلدهم في حقبة ما بعد صدّام؟ وانتشرت في مساحة هذه الأسئلة التي لم تلق جوابًا المطامع الأمبريالية المغلفة بالدعاية. ووقفت وراء الثرثرة عن أسلحة الدمار الشامل، والضرب والترويع، والمواعيد النهائية للاستسلام، مطامح الولايات المتحدة في غزو الدولة العراقية واحتلالها وإعادة تكوينها. وضاعت أصوات ٢٥ مليون عراقي قُصد في الظاهر «تحريرهم». وألهمنا التقصير في معرفة ما يفكّر به هؤلاء الناس على وضع هذا الكتاب. وأمكننا، من خلال المقابلات مع لاجئين عراقيين منتشرين في مختلف القارات، والمدونات الإلكترونية التي كتبها عراقيون وسط الانفجارات المدمّرة والفوضى، أن نجمع معًا رواية عامة للخسارة. وسارع معظم العراقيين إلى الإشارة إلى حقيقة حاسمة: لم تبدأ حرب الولايات المتحدة على العراق عام ٢٠٠٣ وإنما عام ١٩٩٠. وتشرح هذه الحقيقة – وربما أكثر من أي حقيقة أخرى – عدد العراقيين الذي سخروا من النيات الأميركية عام ٢٠٠٣. وتحوّل العراقيون المتهكِّمون بالفعل، وسط البطالة الزاحفة وانهيار القانون والنظام، إلى التمرّد لتخليص بلادهم

من الغزاة الأجانب. ولم نبدأ إلا بعد التحدث مع العراقيين والتعامل مع الروايات العراقية، في إدراك بلوى الشعب العراقي وفي التعاطف معها. ونأمل، من خلال هذا الكتاب، في أن نشاطركم أفكارهم ومشاعرهم وتجاربهم - وآليات قمعهم.

«لا أملك شيئًا، ولكن لو ملّكوني العالم، ولو عاد العراق بلدًا من جديد، لما رجعت إليه قط»، قال سعدي وهو يمسك، في قوة، بمحرمة ممزقة بين أصابعه الجافة والملتوية[1]. وليس سعدي إلا واحدًا من ملايين العراقيين الذين هجّرتهم الحرب والعدوان اللذان ترعاهما الولايات المتحدة في بلاده. ولا يزال أكثر من ٤,٨ ملايين مهجّرًا فيما مات أكثر من مليون منذ الاجتياح عام ٢٠٠٣. وعلى المرء، لفهم مأساة العراق، النظر إلى تجارب أمثال سعدي. قصته مأسوية لكنها ليست فريدة.

يعيش سعدي، المشلول جزئيًا في نصفه الأيمن بسبب الالتهاب في المفاصل، مع زوجته وولديه في شقة في مبنى سكني متضعضع من الباطون إلى جانب طريق ترابي في جرمانا، المركز المكتظ باللاجئين العراقيين في العاصمة السورية دمشق. وفيما نحن نتحدث معه بعد ظهر يوم قارس من أيام شباط/فبراير، قدّمت إلينا زوجته، في عصبية، الشاي الأسود واللوز المالح، الضيافة التي لا يخلو منها مكان في الشرق الأوسط. وعُلق على الجدار خلف سعدي رسم مخرّق لرمز الديانة المندائية: صليب خشبي ملفوف بقماشة بيضاء. والصليب يسمى «درفش» ويقال إن جهاته تمثّل الحياة والمحبة والطهارة والمعرفة، فيما ترمز خطوط ارتفاعات القماش إلى تعرجات تدفق المياه.

امتلك سعدي في بغداد مشغلًا للجواهر ينتج القلادات الذهبية والخواتم.

---

(١) مقابلة مع سعدي (أجراها مايكل أوترمان وتمارا فنجان) في دمشق، سورية، في ١ شباط/فبراير ٢٠٠٨. الرجاء الملاحظة أن أجزاء من هذه المقابلة والخلفية عن الديانة المندائية ظهرت أولًا في Tamara Fenjan and Mike Otterman, "If You are Not a Muslim in Iraq, You are Trash," New Matilda, May 13, 2008 http://tinyurl.com/cp66cz

والمشغل هو أول الأمور التي خسرها عام ٢٠٠٣. قال: «دمّرته سيارة محمّلة بالمتفجرات. فقدتُ كل شيء، مشغلي وكل الذهب والبضائع التي في داخله». ثم وجدت الحرب طريقها إلى منزل سعدي. فأوائل العام ٢٠٠٥، اقتحم خمسة رجال مقنعين غرفة جلوسه. واستذكر سعدي أنهم «لم يسعوا وراء مالي – بل سعوا وراء إيماني». وقال لهم إن «لكل إنسان الحق في الحفاظ على دينه. ويجب احترام كل الأديان واحترام كل إنسان أيًّا يكن دينه».

والمندائية آخر ما تبقى من الديانات الغنوصية (المعرفية) وهي تسبق المسيحية. ويكرّم أتباعها يوحنا المعمدان بصفة كونه معلمهم الأكبر. والمياه محورية في الديانة، إذ يُعتقد أنها تطهّر الفكر والجسد. ويُحتفل بالزيجات والمآتم وغيرها من الشعائر الدينية عند ضفاف النهر في مياه تصل إلى الخاصرة. بل إن أكثر المندائيين تديّنًا يُعَمّدون طعامهم قبل تناوله. وقد عاش المندائيون ما يزيد على ألفي سنة في المستنقعات في المنطقة التي يلتقي فيها دجلة والفرات. نجوا من غزوات المغول ومن المذابح الدموية على أيدي السلاطين والملوك ومن حكم صدام حسين الوحشي. ففي زمن صدام أقفلت في وجه المندائيين أبواب التعليم العالي والوظائف الحكومية وتعرضوا للترهيب في المدرسة أو للسخرية وهم يمارسون شعائرهم عند النهر. إلا أن الوضع تحوّل قاتلًا بعد الغزو فيما عمّت الفوضى الطائفية العراق. وشرحت الواشنطن بوست أن «المسؤولين الأميركيين، في سعيهم إلى الاستقرار في العراق، منحوا سلطات واسعة لزعماء القبائل والزعماء الدينيين، سنة وشيعة، ممن يرفضون العلمانية التي طبقها صدام حسين على نطاق واسع في السابق». وفرض هؤلاء الزعماء، بدورهم، تفسيرًا متشدّدًا للإسلام شجّع على العنف ضد الأقليات العراقية. وأفتى الزعيم الشيعي الراحل آية الله الحكيم، عام ٢٠٠٣، بأن المندائيين «أنجاس» ووافق على قتلهم أو على هدايتهم قسرًا. كررت فتوى أخرى، عام ٢٠٠٥، قيل إن مكتب الإعلام في مؤسسة الصدر أصدرها واتهمت المندائيين بـ«الجهر بالفسق»

وبـ«الدجل». ومذذاك قُتل المئات واختطفوا أو أُجبروا على الهداية. وفيما بلغ عدد جماعتهم في العراق أربعين ألفًا تراجع الآن إلى خمسة آلاف فقط(١).

غادر الرجال المقنعون، في ذلك اليوم، لكنهم عادوا بعد ذلك بأسبوعين، وهذه المرة يحملون السلاح. واستذكر سعدي، وعيناه البنيتان الصغيرتان تترقرقان دمعًا: «امتلأ الرجال حقدًا وعدوانية، وكانت قلوبهم من حجر». ثم شرع في التحدّث في سرعة. وقال إن الرجال جمعوا زوجته وابنته وابنيه الصغيرين في غرفة الجلوس وطلبوا منهم أن يهتدوا. ورفض من جديد. وقال: «عندذاك أخذوا ابني من بين يدي زوجتي». وعبد في الرابعة فقط. «أخذنا نصرخ ونبكي»، قال سعدي وهو يراقب الرجال يهرعون من المنزل ومعهم الصبي. وتلقى سعدي اتصالًا هاتفيًا بعد ذلك بثلاثة أيام. قال صوت الرجل: «ستجد الجثة وراء مدرسة بلاط الشهداء عند الطريق السريع». ثم انقطع الخط. وهرع سعدي إلى المكان إلى جانب الطريق المزدحم. توقفّت مترجمتنا، وهي نفسها عراقية ـ سويدية، لتسمح لسعدي بالهدوء وبأخذ رشفة من شايه. وتناول سعدي محرمته من جديد ومسح عينيه. وقال وهو يئن بنبرة مرتفعة «عثرنا على جثة ابني، وقد ضُرب وأُطلقت النار على رأسه».

تأثر العراقيون من كل الأديان والإثنيات والمراتب الاجتماعية ـ الاقتصادية تأثرًا قاسيًا بالحرب التي ترعاها الولايات المتحدة وبالعقوبات والاحتلال، غير أن أصواتهم لم تُسمع جيِّدًا. ولاحق توني تايلر في «الانكار: خيانة التاريخ» Denial: History Betrayed كيف يسوق المؤرخون المارقون والسياسيون الذين يقيمون الحسابات والزعماء الوطنيون والإثنيون لمختارات من السرد التاريخي خدمة

(١) Sudarsan Raghavan, "Iraqi Women, Fighting for a Voice," Washington Post, December 7, 2008 <http://tinyurl.com/qa8srd>; Elizabeth Kendal, "Iraq: The Persecution of Mandaeans," ASSIST News Service, January 31, 2004 <http://tinyurl.com/dc55yb>; "Background Information on the Situation of Non-Muslim Religious Minorities in Iraq," UNHCR, October 2005, p. 5 <http://tinyurl.com/p56rv2>; Angus Crawford, "Mandaeans – A Threatened Religion," BBC, October 19, 2008 <http://tinyurl.com/q8srbs>.

لأجنداتهم، بينما ينكرون روايات أخرى من الماضي[1]. فمقاومة الادعاء بالإبادة الأرمنية، وإنكار المحرقة التي قام بها النازي، ومحاولة تغطية المذبحة التي ارتكبها اليابانيون في نانكينغ، ورفض الاعتراف بالتطهير العرقي في فلسطين، تُصوّر المدى الذي يذهب إليه المُنكِرون لإسكات روايات الضحايا. ونضيف إلى لائحة الفظائع هذه التي أُنكرت، قضاء حكومة الولايات المتحدة الأميركية المتعمّد على المجتمع العراقي.

ويشكّل «العراق الجديد» – العبارة التي كثيرًا ما استخدمتها قوى الاحتلال في مرحلة مع بعد الاجتياح – أقلّه من وجهة نظر معظم العراقيين، كناية وحشية وتلميحًا قاسيًا إلى الموت والدمار. وشكّل «العراق الجديد» بالنسبة إلى الزعامة السياسية الأميركية – وبخاصة في عهد إدارة جورج و. بوش – تعبيرًا عن التفاؤل المرتكز على الاعتقاد الخاطئ أن العراق سيصبح ديمقراطية على الطريقة الأميركية ويوفر إمدادات النفط المأمونة للولايات المتحدة ويوفر فرص أعمال جديدة للشركات المتعددة الجنسية. ولم يكن هدف الولايات المتحدة، بحسب المؤلفة والصحافية الكندية ناعومي كلاين، إطاحة ديكتاتور وحشي وحسب – سبق أن كان حليفًا وثيقًا ومستهلِكًا للمعدات العسكرية الأميركية والاستخبارات والأسلحة الكيميائية والبيولوجية – بل أيضًا بخلق بلد جديد بكلّيته جاهز لرأسمالية السوق الحرّة. وكتبت كلاين:

لن يعاد بناء بلد يضم ٢٥ مليون نسمة كما كان قبل الحرب؛ بل سيُمحى ويختفي. وستظهر مكانه صالة عرض للاقتصاد القائم على عدم التدخل، يوتوبيا لم يسبق للعالم أن شهد مثلها قبلًا. وستُعتمد كل سياسة من شأنها أن تطلق يد الشركات المتعددة الجنسية لتتابع سعيها من أجل الربح: دولة منكمشة، قوة عاملة مرنة، حدود مفتوحة، حد أدنى من الضرائب، لا تعرفات، ولا قيود على الملكية. وعلى شعب العراق أن يتحمّل، طبعًا، معاناة قصيرة الأمد: على الدولة أن تتخلى عن الموجودات التي امتلكتها من قبل، لتوفير فرص جديدة للنمو والاستثمار. ويجب فقدان بعض الوظائف، ومن سوء الحظ أن الأعمال المحلّية والمزارع العائلية لن تتمكن من

(١) Tony Taylor, Denial: History Betrayed, Melbourne University Publishing: Melbourne, 2008.

منافسة تدفق البضائع الأجنبية عبر الحدود. غير أن هذه تشكّل لواضعي هذا المخطط ثمنًا صغيرًا يُدفع في مقابل الازدهار الاقتصادي الذي سيتفجّر بالتأكيد مع توافر الظروف المناسبة، وهو ازدهار قوي جدًّا فيمكن البلاد أن تعيد، عمليًّا، بناء نفسها بنفسها[1].

بدأ استيلاء الولايات المتحدة على الاقتصاد العراقي قبل وقت طويل على اجتياح العام ٢٠٠٣. وتعود جذوره إلى واقع أن إنتاج النفط الأميركي بلغ ذروته في سبعينات القرن الماضي، الأمر الذي دفع إلى الاعتماد المتزايد على الإمدادات من دول الشرق الأوسط. وجاء أول القيود على إمدادات النفط إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٣ عندما فرضت الأوبيك (منظمة الدول المصدرة للنفط) حظرًا على الشحنات، تبعه عام ١٩٧٨ الحظر النفطي الإيراني الذي أدى إلى زيادة التضخم وارتفاع معدلات الفائدة. ودفعت هذه العوامل - إضافة إلى الغزو السوفياتي لأفغانستان واحتلالها - بالولايات المتحدة إلى تبني سياسة استخدام القوة العسكرية لضمان الوصول إلى نفط الشرق الأوسط. وقال جيمي كارتر، في خطابه إلى الأمة في ٢٣ كانون الثاني/يناير ١٩٨٠، أن «للمنطقة التي تهددها الآن القوات السوفياتية الموجودة في أفغانستان أهمية استراتيجية كبرى: فهي تحتوي أكثر من ثلثي النفط العالمي القابل للتصدير». فالوصول غير المنقطع إلى نفط الخليج الفارسي يشكّل أهمية قصوى. وشدد كارتر على أن «الجهد السوفياتي للسيطرة على أفغانستان أوصل الجيش السوفياتي إلى مسافة ٣٠٠ ميل من المحيط الهندي وإلى مقربة من مضيق هرمز، الممر المائي الإجباري لمعظم النفط العالمي». وأضاف: «وليكن موقفنا واضحًا وضوحًا مطلقًا»، شارحًا الخطوط العريضة لما سيُسمّى لاحقًا «مبدأ كارتر»:

> سيُنظر إلى أي محاولة من أي قوة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج الفارسي على أنها هجوم على مصالح الولايات المتحدة الأميركية

---

(١) Naomi Klein, "Baghdad Year Zero," Harper's, September 2004 <http://tinyurl.com/2lvotf>.

الحيوية، وسيَرُدُّ مثل هذا الهجوم بكل الوسائل الضرورية بما فيها القوة العسكرية[١].

وسّع كارتر من العمليات البحرية الأميركية في الخليج، وحصل على قواعد جديدة في المنطقة، وشن «حرب الأشباح» الأميركية على السوفيات في أفغانستان. واتّبع الرؤساء المتعاقبون أيضًا مبدأ كارتر. ووضع الرئيسان رونالد ريغان وجورج هـ. و. بوش موضع التنفيذ سياسات تجارية وغيرها من الإجراءات لضمان استمرار وصول الولايات المتحدة إلى إمدادات الشرق الأوسط من النفط. وارتبط هذا بأحادية أميركية متزايدة الحدّة صيغت لتقديم المصالح الأميركية في الشرق الأوسط وحمايتها. وعام ١٩٩٢ – وقبل بضعة أشهر على حرب الخليج الأول (التي اقتلعت القوات العراقية من الكويت الغنية بالنفط) – أصدر كبار مسؤولي إدارة بوش توجيه «إرشاد التخطيط الدفاعي»، وهو الوثيقة السياسية التي تعلن أن الولايات المتحدة «ستبقى القوة الخارجية المسيطرة في المنطقة وتحمي وصول الولايات المتحدة والغرب إلى نفطها». وأسهم الكثيرون من واضعي هذا التوجيه من المحافظين الجدد – ديك تشيني، «سكوتر» ليبي، إريك إدلمان وكولين باول – في صياغة مسودة «الزعامة الأميركية الشاملة» التي يحتويها «إعلان المبادئ» الذي نشره عام ١٩٩٧ «مشروع القرن الأميركي الجديد»، وهو مركز أبحاث محافظ نافذ. وأبرز البيان الذي يستند إلى زيادات مقترحة في الانفاق العسكري وعلاقات أكثر وثوقًا مع الحلفاء في مواجهة الانظمة «المعادية»، «الدور الأميركي الفريد في الحفاظ على نظام عالمي مؤاتٍ لأمننا وازدهارنا ومبادئنا وتوسيعه»[٢].

فالشرق الأوسط، بالنسبة إلى بول وولفوفيتز وديك تشيني ودونالد رامسفلد

(١) Kevin Zeese, "The Corporate-U.S. Takeover of the Iraq Economy," American Chronicle, May 9, 2006 <http://tinyurl.com/oz75yy>; Jimmy Carter, "State of the Union Address," Jimmy Carter Library, January 23, 1980 <http://tinyurl.com/2l9rx>; Michael Klare, "Repudiate the Carter Doctrine," Foreign Policy in Focus, January 22, 2009 <http://tinyurl.com/r52zqa>.

(٢) Zeese, "The Corporate-U.S. Takeover of the Iraq Economy"; Elliott Abrams et al., "Statement of Principles," Project for the New American Century, June 3, 1997 <http://tinyurl.com/6c3l>.

وسواهم، هو مكمن التهديد البارز للمصالح الأميركية، وبخاصة تقلّب النظام العراقي في ظل صدام حسين وما ينتج عنه من تهديد لإمدادات النفط. وفشلت حرب الخليج عام ١٩٩١ في إخراج صدام من السلطة وهو، كما سيبتيّن، ما أعطى الذريعة المثالية لجورج و. بوش وإدارته للمطالبة بتغيير النظام في العراق. وقد صمم بوش الابن، منذ تاريخ تسلّمه السلطة، على إطاحة صدام حسين. وبحسب ما قاله وزير الخزانة بول أونيل لبرنامج «٦٠ دقيقة» 60 Minutes أوائل العام ٢٠٠٤: «تكوّن منذ البداية اقتناع بأن صدام حسين شخص سيّئ ويجب أن يرحل»، وأن الاجتياح شكّل الموضوع الأول على لائحة الأعمال التي ينوي الرئيس القيام بها. ووُضعت الخطط العملية لغزو العراق بعد ساعات على هجمات ٩/١١. وبحسب ملاحظات كتبها مساعدون لدونالد رامسفلد، طلب وزير الدفاع في الساعة ٢:٤٠ بعد الظهر «أفضل المعلومات في سرعة، والحكم هل هي على ما يكفي من الجودة لضرب ص. ح. – اختصار لاسم صدام حسين – في الوقت نفسه وليس فقط أ. ب. ل.» – الأحرف الأولى من اسم أسامة بن لادن. وأدلى كبار مسؤولي إدارة بوش، في السنتين اللتين أعقبتا ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، بما لا يقل عن ٩٣٥ بيانًا عامًّا كاذبًا عن التهديد الذي يشكله العراق. واجتاحت الولايات المتحدة العراق في آذار/مارس ٢٠٠٣، وأعلن الرئيس بوش – وهو يرتدي في شكل أخرق بِزّة طيّار مُفصّلة على قياس جسمه – في الأول من أيار/مايو ٢٠٠٣، عن متن السفينة الحربية أبراهام لينكولن، «انتهاء الأعمال العدائية»[1].

اتضحت نيات الولايات المتحدة في العراق منذ بداية الاحتلال. فتم تأمين الحماية لوزارتي الداخلية والنفط فحسب، بينما تُركت المتاحف والمكتبات بل وحتى مخازن الذخيرة من دون حماية. وسمح البنتاغون، استنادًا إلى ياروسلاف

(١) Rebecca Leung, “Bush Sought ‘Way’ to Invade Iraq?” 60 Minutes, CBS News, January 11, 2004 <http://tinyurl.com/3ggqb>; Charles Lewis and Mark Reading-Smith, “False Pretenses,” The War Card, The Center for Public Integrity, January 23, 2008 <http://tinyurl. com/5u5wur>; Joel Roberts, “Plans For Iraq Attack Began On 9/11,” CBS News, September 4, 2004 <http://tinyurl. .com/4s9cv>.

تروفيموف من الوول ستريت جورنال، بعمليات النهب لتقويض الدولة العراقية. واستذكر تروفيموف لاحقًا أن «الكثيرين من القادة العسكريين قالوا لي يومذاك إن النهب أمر جيد. فالنهب يحرّر؛ والنهب يقوّض النظام القديم». ووسط عمليات نهب ممتلكات العراق الثقافية وموارده العامة وبضائعه العسكرية، شرع الحاكم المعيّن حديثًا للعراق، بول بريمر، في تفكيك الدولة العراقية، في انتهاك لقوانين الاحتلال الواردة في اتفاقات جنيف. تسلّح بريمر بسلطات تنفيذية كاسحة فَحَلَّ الجيش العراقي – وأنتج فيضانًا من الرجال الغاضبين الذين تلقوا تدريبًا عسكريًّا، وانضمّوا سريعًا إلى التمرّد – وأصدر أوامر صُممت لإنشاء «نيرفانا» السوق الحرة المتناسبة مع المصالح الأميركية. وسمح القرار الرقم ٣٩، على سبيل المثال، بتخصيص المؤسسات العراقية المئتين التابعة للدولة، وبحق التملّك الأجنبي الكامل للأعمال العراقية مع تحويلات مطلقة معفاة من الضرائب على كل الأرباح وغيرها من الأموال، وتراخيص ملكية مدتها أربعون سنة. وعلى ما ذكرته أنتونيا جوهاز، كبيرة المحللين في «فورين بوليسي إن فوكوس» Foreign Policy in focus ومؤلفة «أجندة بوش: اجتياح العالم، الاقتصاد تلو الآخر،» The Bush Agenda: Invading the World, One Economy at a Time فإن قراراته الأخرى منعت العراقيين من الحصول على الأفضلية في إعادة الإعمار، فيما سمحت للشركات الأجنبية – هاليبورتون وبكتل، على سبيل المثال – بشراء الأعمال العراقية، والقيام بكل الأشغال وإرسال مالهم كله إلى الديار. ومن غير المفروض عليها استخدام عراقيين لإعادة استثمار الأموال في الاقتصاد العراقي. وفي إمكانها في أي وقت سحب استثماراتها مهما بلغت قيمتها[1].

ولضمان تطبيق هذه التوجيهات، طالب قرارا بريمر الرقمان ٥٧ و٧٧ «بوجود مدققي حسابات ومفتشين عامين تعيّنهم الولايات المتحدة، مدة ولايتهم خمس سنوات ويمتلكون سلطة كاسحة على العقود والبرامج والموظفين والأنظمة». وسعى

---

(١) Charles H. Ferguson, No End in Sight: Iraq's Descent into Chaos, Public Affairs: New York, 2008, p. 110; جوهاز كذلك استشهد بها في كتاب زيس Zeese, "The Corporate-U.S. Takeover of the Iraq Economy."

بريمر لضمان ضبط السوق الحرة الجديدة، كما يجب، فأصدر القرار الرقم ١٧ الذي يمنح «المقاولين الأجانب، بما في ذلك المؤسسات الأمنية الخاصة، حصانة كاملة من القوانين العراقية». وبحسب جوهاز فإنهم «ولو قتلوا، مثلًا، شخصًا، أو تسببوا بكارثة بيئية لن تتمكن الجهة التي لحقتها الإصابة من اللجوء إلى النظام القضائي العراقي. بل يجب بالأحرى رفع الاتهامات إلى المحاكم الأميركية». واستُشهد تكرارًا بالقرار الرقم ١٧ عقب حال الهياج التي تسببت بها بلاكووتر في ١٦ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧ في ساحة نيصور، حيث أدى هجوم إلى مقتل ١٧ مدنيًا عراقيًا أعزل. وسمحت قرارات أخرى «للبنوك الأجنبية بشراء ما يصل إلى ٥٠ في المئة من البنوك العراقية»، وبخفض ذي شأن في معدّل الضرائب على الشركات، وخفض ضريبة الدخل، وإلغاء «كل التعرفات والرسوم الجمركية ورسوم الترخيص والأعباء الإضافية المماثلة على البضائع التي تدخل العراق أو تخرج منه». وأدى هذا، بحسب جوهاز، «إلى إغراق درامي فوري للسوق بالبضائع الاستهلاكية الأجنبية الرخيصة التي اجتاحت المنتجين والبائعين المحليين غير الجاهزين لمواجهة تحدي منافسيهم العالميين الجبابرة». وعلينا أن نتذكّر أن كل هذه القرارات صدرت من جانب واحد عن مسؤول موقّت يمتلك سلطات تنفيذية ومن دون أي اعتبار جدّي لحاجات الشعب العراقي ورغباته. وتخلص جوهاز إلى القول:

> أدت نتائج هذه القرارات إلى خلق مناخ اقتصادي مؤات للشركات الأميركية أكثر من قوانين الولايات المتحدة. واستُبعدت، نتيجة لذلك، الشركات العراقية والعمال العراقيون عن إعادة إعمار العراق. وفشلت إعادة البناء في توفير الكهرباء اللازمة والغذاء ومعالجة مياه الصرف الصحي، بل وحتى البنزين – سوى أن الشركات الأميركية استفادت في شكل رائع من إعادة البناء الفاشلة هذه[1].

شرعت إدارة بوش، في عملية «محو» العراق، في مشروع رجعي تضمّن تفكيك

(١) جوهاز كما تم الاستشهاد بها في كتاب زيس Zeese, "The Corporate-U.S. Takeover of the Iraq Economy."

البنى التحتية الاجتماعية والاقتصادية العراقية، فضلًا عن أنه يفتح الباب أمام وصول الشركات الأميركية إلى المصادر الطبيعية العراقية وإعادة تجميع البلاد على صورتها. وفشلت خطة إعادة الهيكلة الاقتصادية الراديكالية بسبب انتفاء التفكير في الشرعية وفي إعادة البناء الاجتماعي. وسرعان ما تفكّك العراق أجزاء كثيرة لا تجمع بينها سوى معارضة الاحتلال الذي تقوده الولايات المتحدة. ونادرًا في التاريخ ما نتج عن محاولات التوسع الاستعماري الفاشلة هذا المقدار من المعاناة. فبإطلاق الولايات المتحدة وحليفاتها ما بلغ حدّ حرب الموارد البشعة، دفعت جانبًا أي اعتبار حقيقي للآلام والمعاناة التي ستنزل بالشعب العراقي العادي. والدليل الوارد في هذا الكتاب يبرز الثمن الذي اضطر الشعب العراقي المصدوم بالفعل إلى دفعه إلى قضايا أقل نبلًا بالتأكيد مما دُفعنا إلى اعتقاده. وشارف النزاع، وسط مقتل الملايين ودمار البنى التحتية الاقتصادية والاجتماعية للعراق، حد إبادة المجتمع، أي تدمير طريقة حياة بأكلمها. غير أن خيوط الهوية العراقية النابضة بالحياة بقيت على رغم الهجمات المنسقة على الشعب العراقي ومؤسساته. وهذا الكتاب مملوء بروايات الألم والمقاومة والأمل. فالعراق وشعبه يثابران على رغم تعرضهما للضرب.

وفي ما يلي مجموعة من الأصوات العراقية بما فيه أصوات شهود على حرب الخليج الأولى وحقبة العقوبات الدولية وناجين من اجتياح العام ٢٠٠٣ ولاجئين عراقيين في الشرق الأوسط والسويد وأستراليا، إضافة إلى مجموعة أعمال كاتبي المدونات الإلكترونية العراقيين الذين اهتموا بتسجيل ملاحظاتهم اليومية. ونحن، إلى ذلك، لا نلقي الضوء وحسب على طبيعة العواقب المستمرة للمذبحة التي وقعت في العراق منذ العام ١٩٩٠ على الأقل ومداها، بل أيضًا على الطرق التي حجبت فيها النخب العسكرية والسياسية وإعلام الشركات، في الواقع، مثل هذه الأمور عن التمحيص العام. وتسيطر «سجلات الدمار غير المتناظر» – في استعارة لتعبير إدوار سعيد – على الخطاب في شأن العراق. وهكذا أمكن الزعامة الأميركية إبراز تضحية ما يزيد على ٤٣٠٠ جندي والحديث عن «انتصار» من دون الإشارة إلى ما يختبره الشعب العراقي من موت ودمار. ظهر هذا الواقع على نحو فادح في المناظرات

الرئاسية عام ٢٠٠٨ بين جون ماكين وباراك أوباما. في أولى هذه المناظرات التي أجريت في ٢٦ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٨ في أوكسفورد، ماساتشوستس، طرح جيم ليهرر على المرشحين السؤال التالي: «كيف تنظرون إلى أمثولات العراق؟» ارتُكبت أخطاء، وفشلت الاستراتيجيات. ولكن ماذا بالنسبة إلى العراقيين الذي فقدوا الحياة؟ ولا كلمة. وهذه ممارسة مألوفة في مزاولة السلطة الأمبريالية والاستعمارية إذ تودِع الأممُ – الحريصة على ضمان الموارد من خلال السيطرة العسكرية والاقتصادية – شعوبًا بأسرها في غياهب التاريخ.

نعرض في الفصل الأول لتاريخ العلاقات الأميركية ـ العراقية منذ دعم الـ«سي. آي.إي.» المبكر لصدام حسين، إلى الاجتياح والاحتلال عام ٢٠٠٣. ويفصّل العراقيون الذي أجريت معهم المقابلات في سوريا والأردن والسويد وأستراليا المذبحة والحرمان اللذين اختبروهما مباشرة خلال حرب الخليج الأولى والعقوبات الدولية وهجوم العام ٢٠٠٣، فيما وفّر كاتبو اليوميات والمدونات الإلكترونية العراقيون، يومًا بيوم وساعة بساعة ولحظة بلحظة، الصورة المؤلمة للدمار. ويصف الفصل الثاني، من موقع اللاجئين، حقائق الشتات الذي بدأ عقاب حرب العام ١٩٩١ وتصاعد ليبلغ ابعادًا ملحمية في ما بعد حقبة العام ٢٠٠٣. وتشكّل روايات العراقيين المنتشرين حول المناطق في داخل العراق وفي أماكن نائية حول العالم شهادات عن الوقائع الرهيبة للتهجير. ونتفحّص في الفصل الثالث الدور الذي أداه البنتاغون ووسائل الإعلام السائدة – وكثيرًا ما يعملون يدًا بيد – في إسكات الأصوات العراقية. وهو فصل يصوّر الطبيعة الجيدة والسيئة والبشعة وأحيانا المشبوهة تمامًا للريبورتاج الإخباري الذي، وفي التحليل الأخير، يخبر عن الترابط بين الإعلام والسياسيين وعالم الشركات أكثر مما يخبر عن الأحداث في العراق. ويوغل الفصل الرابع في الجدل المحيط بالمسألة الشائكة عن تعداد الجثث والتي أصبحت، مرة أخرى، غارقة في ثقافات الإنكار وسياسة القوة والبراغماتية المجرّدة. فمسألة هل يجب قطعًا إحصاء عدد الجثث وطريقة القيام بذلك وما ينتج عنه من جدال عام وعمليات التأكيد والإنكار، هي كلها جزء من الطبيعة السياسية العميقة لمثل هذه المشاريع

التجريبية وبخاصة في حال العراق ما بعد العام ٢٠٠٣. ويذهب الفصل الخامس في النهاية أبعد من التعدادات ليبرز الطبيعة الشاملة والمستمرة للموت والدمار اللذين كان لهما وقعهما على كل جوانب الحياة في العراق. وسبق للوقائع المحيطة بإبادة المجتمع العراقي – الهجوم الشامل على حياة العراقيين وثقافتهم وهويتهم الوطنية – أن أُخبرت مجزّأة في مكان آخر، لكنها تجتمع هنا للمرة الأولى بالتفصيل الواضح وضوح الصورة.

ونحن، في المجمل، نقدّم رواية شاملة عن الضرر الذي أنزلته الولايات المتحدة وحليفاتها بالعراق، والمدى الذي ذهب إليه الكثيرون في سبيل إخفاء الحقيقة. ونحن نسعى إلى الابلاغ من وجهة النظر القائلة أن في إمكان مثل هذه المعرفة الحؤول دون المزيد من سفك الدماء في المستقبل. غير أن الأوان فات بالنسبة إلى الكثيرين. «أضحى العراق مسرحًا للفوضى والقتل والخطف»، قال سعدي في شقته السورية المتهالكة بعدما أخبرنا عن مقتل ابنه. «بات الآن في وسع الأصوليين القيام بما يريدون. لقد ضاع العراق».

مقدّمة الطبعة العربيّة

كان صوتًا لا يُنسى. «عندما ألقت به الطائرة وشرع يقع، أصدر صوتًا أشبه بخوار البقرة. صوت بقرة قوي، وقوي جدًّا. تتساءل: ما هذا؟ إنه أشبه بـ: موووووو! أشبه ببقرة في السماء».

روى سامر، العراقي ابن السابعة والعشرين الذي وصل إلى أستراليا عام ٢٠٠٦، قصته من غرفة الجلوس في منزله في ليفربول، وهي ضاحية الطبقة العاملة غرب سيدني في أستراليا. انشغلت والدته في تحضير الفلافل والرزِّ المفلفل والفراريج المحمّرة في المطبخ المجاور الصغير، فيما سامر يتحدث إلينا بانكليزية واضحة ولكن متعثّرة. وقال في إشارة إلى الصوت الغريب «إنه نوع من أنواع القنابل. تبلغ الأرض وتفتح، وفيها آلاف القنابل كل واحدة منها في حجم بيضة. وإذا سار إليها أحد، تنفجر من جديد».

كان سامر يصف القنابل العنقودية الأميركية التي ألقيت على حي السيدية، مكان إقامته السابق في بغداد. وقد تراجعت التغطية الإخبارية للعراق في السنوات التي أعقبت الاجتياح، وبدت الحرب أشبه بكابوس بعيد: مأسوي، لكنه ضبابي ومن الماضي. أما بالنسبة إلى عراقيين مثل سامر – وهو واحد من نحو ٤,٥ ملايين من المهجرين، راهنًا، بفعل اجتياح العام ٢٠٠٣ ـ فلا يمكن الفصل بين الماضي والحاضر.

العراقيون مبعثرون: وقد هرب منذ العام ٢٠٠٣ ما يقارب واحد من كل خمسة

عراقيين. وشُرد نحو ٢,٨ مليون في داخل العراق نفسه، فيما يعيش أكثر من نصف مليون في سوريا، ونحو نصف مليون في الأردن، وعشرات الآلاف في لبنان ومصر وما هو أبعد. وبلغ تدفّق العراقيين الذروة عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ في عزّ الحرب الأهلية، غير أن العودة بأعداد كبيرة لم تحدث على رغم التراجع النسبي للعنف. والمشكلة هي أن العراق لا يزال غير آمن والكثيرين ممن هربوا لا يملكون منزلًا يعودون إليه.

بدّل التطهير الطائفي من المشهد العراقي. أصبحت أحياء شيعية الآن، وكانت في السابق سنيّة، والعكس صحيح. ودُمّرت بيوت أو تم الاستيلاء عليها، وفُقدت ممتلكات. ولا تزال الخدمات الأساسية مثل الكهرباء والمياه النظيفة نادرة. ويتّصل ٢٠ في المئة فقط من السكان بشبكات الصرف الصحي، ويحصل ٣٠ في المئة على الخدمات الصحية و٤٥ في المئة على مياه الشفة و٥٠ في المئة على أكثر من ١٢ ساعة من التيار الكهربائي في اليوم.

سحبت الولايات المتحدة «رسميًا»، في آب/أغسطس ٢٠١٠، قواتها المقاتلة من العراق. وما حدث في الواقع هو إعادة تصنيف للاحتلال. وأعيدت تسمية الجنود المقاتلين الخمسين ألفًا الباقين قوات «تقديم المشورة والمساعدة»، يساعدهم ألوف من المتعاقدين الأمنيين المسلحين الخاصين. ولم يُترجم استمرار وجودهم مزيدًا من الأمن للشعب العراقي. فالاغتيالات والتفجيرات تعيث كل يوم خرابًا في العراق. وأدى العنف عام ٢٠١٠ إلى مقتل أكثر من ثلاثة آلاف مدني، فيما استمرت الفئات السياسية العراقية تواجه المأزق وهي غير قادرة على الحكم وتوفير الأمن اللازم. عاش العراقيون تحت الاستبداد في ظل صدام. أما اليوم فتعم الفوضى.

ينظر هذا الكتاب – الذي يتوافر الآن للمرة الأولى باللغة العربية – في التكاليف الإنسانية للعدوان الأميركي على العراق. والمؤلفان أميركي وأسترالي – نحن من بلدين مسؤولين عن جزء كبير من الدمار. وقد وضعنا هذا الكتاب، كما سبق أن شرحنا في المقدمة، للإجابة عن سؤال بسيط: ما رأي العراقيين؟ فالصحف والتلفزيون في

بلدانا لا تخبرنا بالكثير عن اهتمامات الشعب العراقي وأفكاره ومشاعره. وعملنا في هذا الكتاب على سد فجوة الفهم هذه.

اتخذ هذا المشروع، ونحن نضع الكتاب، أهمية تزداد في اضطراد. وكلما عرفنا المزيد عن الدمار الذي لا معنى له الذي أُنزل بالعراق – سمَّيناه «إبادة المجتمع»، أو تدمير طريقة حياة بكاملها – شعرنا التزامًا حيال العراقيين باطلاع المزيد والمزيد من الناس على ما يقولونه. وتسمح لنا الترجمة العربية للكتاب التي تولّتها «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر» ببلوغ جمهور كبير جديد: المتحدثون باللغة العربية الذي يعيشون في مختلف أنحاء الشرق الأوسط.

وقصة سامر واحدة من روايات قليلة في هذا الكتاب تنتهي نهاية سعيدة. نجا سامر من مخاطر حقبة عراق ما بعد صدّام. قال لنا:

أصبح الأمر، بعد الحرب، أكثر سوءًا، إذ لم يعد في الامكان معرفة طريقة التعامل مع الناس. لا تعرف من سيصبح صديقك أو عدوًّا لك. وعليك، إذا أردت الخروج، أن تضع روحك على كفّك. فالخطر جاثم دومًا وفي كل مكان. ما من مكان آمن. ليس آمنًا في الداخل، وجلوسك في الخارج ليس آمنًا أيضًا. وإذا غفوت – أو استيقظت – فليس آمنًا أيضًا.

عاث السارقون خرابًا بالحي الذي يقيم فيه سامر بعد سقوط نظام صدام. «وُجد قرب منزلي مركز للجيش العراقي. هرب الجميع، فجاء فقراء الناس – ولاسيما منهم الشيعة – إلى المكان وأخذوا كل شيء بما في ذلك الأبواب». وتلقى الجنود الأميركيون أوامر مباشرة بحماية وزارتي النفط والداخلية (تحتوي الأخيرة ثروة من المعلومات الاستخبارية عن العراق) بينما تركت قوات الائتلاف المنشآت الأخرى، بما في ذلك المواقع العسكرية والثقافية، من دون حماية. وقال سامر: «أخذوا كل شيء. أمكنك رؤية الرصاص والأسلحة – شاهدت فتًى صغيرًا يحمل رشاشًا أطول منه. سرقه من مكان ما. لم يمكنه حمله – فهو أطول منه بهذا المقدار»، قال سامر ذلك وهو يمد يديه شبرين، «ولا يستطيع حمله».

بلغت الفوضى أوائل العام ٢٠٠٤ عتبة باب سامر. عكف في ذلك الوقت في المنزل على تصميم خاتم ذهبي لمحل المجوهرات الذي يملكه والده – وهي تجارة المندائيين النموذجية. فسامر وعائلته من أتباع هذه الديانة القديمة المسالمة التي عاشت في العراق على امتداد آلاف السنين. ويعاني المندائيون، مثل الكثير من الأقليات الإثنية والدينية في العراق، ضعف تمثيل الحكومة العراقية لهم ويخشون الموت على أيدي الأصوليين الدينيين.

تعود سامر، قبل اجتياح العام ٢٠٠٣، أن يتنقل بين المتجر ومنزله حاملًا كيلوغرامات عدة من الذهب. وأخذ، مع ازدياد خطورة الشوارع، يعمل من منزله. وقال: «كنت جالسًا أعمل على الذهب، والنافذة خلفي. ومن حسن حظي أنها كانت مفتوحة.» دوى انفجار هائل، «فدفعني، الهواء الآتي من النافذة»، مشيرا إلى قوة العصف. «شعرت أن هناك من دفع بي أرضًا». سقط سامر ثم تعثّر بقدميه في دوار أعمى. واستذكر: «نظرت ولم أبصر شيئًا، وحده الغبار عمّ المكان. شعرت كأن المنزل قد هوى». وسمع بعد ذلك بقليل صوت الزجاج يسقط من نافذة الطبقة العلوية على الأرض. وقال: «هرعت لرؤية أمي الموجودة فوق. تحطم الزجاج الموجود وراءها – على بعد متر واحد». لم تتأذَّ والدة سامر «غير أن الزجاج غطى السلم الذي وراءها. حظها كان كبيرًا في ذلك الوقت».

توقف سامر، لحظة، عن رواية قصته ورفع نظره صوب والدته في المطبخ وقد بدأت «علما» بتحضير المائدة للعشاء. واستدار، من ثم، صوبنا. رفع، في ارتباك، ياقة بزّته الرياضية السوداء، وغارت عيناه الداكنتان ثم تألقتا. وقال مستذكرًا عاقبة القنبلة في شارعه: «خرجنا وحملنا الناس على الشراشف. إنهارت واجهة المبنى. ملأ الغبار المكان وأمكنك، بخروجك، رؤية القطع التي لا تزال رطبة على الأرض. أشبه باللحم. يا للأمر رهيب. لا تعرف ماذا تشعر». لم يُصب سامر بجروح جسدية، لكنه أثخن بالجراح النفسية:

شعرتُ، صراحةً، بالنعاس بعد هذه القنبلة القريبة جدًّا من منزلي. أصبنا بصدمة.

تحس هذه الصدمة في جسمك ولا يعود في وسعك الوقوف. وشعرت على مدى أيام بحاجتي إلى النوم. أفيق وحسب، وأحس بالتعب، وأريد النوم من جديد».

بعد الهجوم جاءت الكوابيس. تخيّل نفسه في قعر رصافة ما، أشبه بجدار سدّ عظيم. «أقف تحت السدّ وأنتظر من ينجدني، من يرمي لي بحبل». ولا يجد أبدًا في أحلامه من يقوم بهذا. أدرك سامر، بعد التفجير، أنه لا يسعه البقاء.

بعد ذلك بأشهر، غادر بغداد إلى الأردن ترافقه شقيقته. لكنه سُرعان ما أُبعد وأعيد إلى العراق لعمله هناك بطريقة غير مشروعة. فعبر عندذاك الحدود، وحده، إلى سوريا حيث أقام مع صديقين لأهله في مركز مترامي الأطراف للاجئين يُسمى المخيم الفلسطيني. تميّزت ظروف المعيشة في المخيم بالبشاعة:

> لم امتلك فراشًا أو أي شيء. نمت بثيابي. أخذت الجدران تتفتت بفعل الرطوبة. وعاش فيها كل أنواع الحشرات. تخرج ليلًا – وإذا تغطيت تلسعك عبر الغطاء. أقمنا ثلاثتنا هناك. وأخذت أقول لهما: «حتى لو عشت في قبر سأنجو. لكن هنا لا يمكنني النجاة».

بعد شهرين في المخيم الفلسطيني، وجد سامر عملًا وانتقل إلى جرامانا، وهي ضاحية من ضواحي دمشق استقر فيها الكثيرون من أبناء الطبقة الوسطى العراقيين. وقال وهو يبتسم: «أقمت في جرامانا تسعة أشهر، وهو مكان أكثر لطافة. الفتيات جميلات جدًّا، خصوصا في الصيف». غير أن الاحتفاظ بالعمل ليس بالأمر السهل:

> جرّبت ما بين ٢٠ وظيفة و٣٠، ولم تعجبني. تعلن الصحف عن الوظائف لكنها كلّها خداع. لم يدفع لي أحدهم شيئًا البتة. أخذ مني ما استحقه من مال في مقابل أسبوعين أو ثلاثة من العمل. قال إن عملي ليس جيّدًا في معمل الثياب وأنه لن يدفع لي شيئًا. وعثرت في النهاية على عمل في متجر للبزات – أصنّف وأرتّب.

كافح سامر في سوريا، بينما وكلّ أهله – الذين هربوا إلى الأردن بعد أشهر على مغادرة سامر العراق للمرة الأولى – محامي هجرة مقيمًا في سيدني. حصل المحامي

– المتخصص في مساعدة المندائيين على الهرب من العراق الذي مزقته الحرب – على تأشيرات دخول لعائلته في الأردن. ثم حصل، في غضون أشهر، على تأشيرة دخول إنسانية لسامر.

وقال سامر: «دخلت سوريا في ١٢ أيار/مايو ٢٠٠٥ وغادرتها في ١٢ أيار/مايو ٢٠٠٦. أي بعد سنة بالتمام». ولم يتمكن منذ وصوله إلى ليفربول واجتماع شمل عائلته من العثور على عمل مرض. تعلّقت وظيفته الأولى بتعبئة أحواض بلاستيكية كبرى بمادة الكلور. وقال: «أخذت بشرتي تحرقني كل مرّة أتعرّق». وأنهى سامر أخيرًا دراسته صيانة السيارات في إحدى الجامعات المحلية وهو يحلم، في يوم من الأيام، بفتح مرأب التصليح الخاص به. وقال: «هذا حلم».

تناهى نقاشنا إلى أم سامر في المطبخ فأطفأت النار ثم جلست معنا بمظهرها الحزين. وقالت: «كبرت جدًّا على البحث عن عمل. أشعر أنني متقدمة جدًّا في السن. ويشق علي الأمر». أما والد سامر الذي بقي يشاهد التلفاز طوال بعد الظهر في غرفة الجلوس، فرفع بصره عن الشاشة واستدار صوبنا. «لا أريد العودة أبدًا. ولا حتى إلى المنزل. وما إن أحصل على الجنسية حتى أصبح أستراليا لا عراقيًّا. أبدًا». تنهد سامر وأضاف:

> سأعود في يوم من الأيام إلى العراق للزيارة، ولكن ليس للبقاء هناك. ونقول، عندما أتحادث مع أصدقائي، أننا ربما نعود يومًا ما. ثم يقولون «ما الذي سنجنيه من هناك؟» لن نحصل على شيء. لم نحصل هناك على حياة جيدة، ولا يمكننا توقع الحصول على أي شيء حسن من هناك. هذا رأيي ورأي جميع من أتحدث إليهم. فأنا لم أحب الحياة التي عشتها هناك.

كثيرًا ما يفكّر سامر بالكابوس الذي راوده في بغداد حيث فصل جدار عظيم بينه وبين السلام والأمن. وقال إنه لم يعد يعيش «تحت السدّ. فأنا اليوم أعيش الفرح. الحياة مريحة هنا».

نجا سامر، ولكن ضاع الكثير من العراق. ولا يزال ملايين العراقيين يعيشون في مخيمات بائسة في داخل العراق تحت الجسور وفي المباني المهجورة وفي مساكن متداعية على هامش المدن الكبرى. ويقبع الملايين الآخرون في بلدان مجاورة في حال من الفقر المدقع، وهم يعيشون على مدخرات العمر الآخذة في التناقص ومن الدعم الضئيل الذي توفره الأمم المتحدة والمنظمات التي لا تتوخى الربح وتعاني ضائقة مالية. ويروي كتاب «محو العراق: الأثمان الإنسانية للمذبحة» حكاياتهم ويبحث في الوقع القاتل لعقود من العدوان الأميركي. هرب سامر من العنف والموت والعوز. لكن رواياتهم، هو والكثيرون من العراقيين، هي كل ما تبقى لهم.

مايكل أوترمان، ٢ تشرين الأول/أكتوبر، الدوحة، قطر.



١
عراقيون تحت الحصار

سار كريم، مضيفنا ومترجمنا في السويد، الخامس من تموز/يوليو ٢٠٠٨، في عصبية، صوب واحد من أكشاك الفاكهة والخضر في رينكيبي، وهي ضاحية من ضواحي الطبقة العاملة في ستوكهولم تشتهر بكتلتها الكثيفة من المهاجرين العراقيين والصوماليين. يعرف كريم واحدًا من الشبان الذين يعملون في الأكشاك – أمير، ابن الثلاثين، النكد المظهر الذي يسحب الصناديق من مؤخر إحدى الشاحنات. جال مدير الكشك في الخلفية، ونحن نقترب، في شكل ينذر بالشر. تحدّث أمير بنبرات خفيّة هامسة. وأعاد ضبط توازن السيجارة غير المستقر على شفته السفلى، وضحك لدى الإيحاء أن يوم المطر الرذاذ هذا والبارد من شهر تموز/يوليو هو من أيام الصيف النموذجية في السويد. «نعم، نعم، إنه بارد جدًّا». وارتدى، كما لو انه أراد التشديد على هذه النقطة، قبعة صوف سميكة وقفازين جديرين بمتزلّج أولمبي. وشرع أمير، في بطء، بواسطة ترجمات كريم، يحدّثنا بالعربية عن تجاربه في العراق والسويد.

دُمّر كل شيء

هرب أمير، عام ٢٠٠٥، مع شقيقته من الموصل إلى الأردن ووصلا إلى رينكيبي

في السنة التي تلت. وهو واحد من ثمانين ألف لاجئ عراقي وطالبي لجوء دخلوا السويد منذ العام ٢٠٠٣[١]. ترك أمير وراءه أهله وأربع شقيقات في العراق في ظروف خطرة جدًّا. وهزّ كتفيه عندما سئل عن حياته الجديدة في السويد، وقال «لم يتوافر لي الخيار، كان الوضع قاسيًا جدًّا وخطيرًا جدًّا في الموصل»[٢]. وبدا من عينيه المتورمتين أنه يشتاق إلى بلاده، إلى أصدقائه، وعائلته الكبرى، والطعام العراقي، والأماكن المألوفة. ولم يعبّر وجهه عن الكثير من الفرح وهو يتحدّث عن الحياة في رينكيبي. وتمتم لكريم بنبرة رزينة أن «لا بأس» بوظيفته لكنها «شاقة». ومرّة أخرى مرّ به رئيسه وتمتم في أذنه إنذارا بالكاد يُسمع.

قال أمير إن اجتياح الائتلاف الذي تقوده أميركا للعراق ولّد عنده آمالًا كبيرة. وظنّ أن البلاد ستتخلص أخيرًا من الوحش صدام حسين. لكنه تذكّر الخوف الذي اختبره وعائلته فيما القنابل تحطّم أبنية كثيرة في حيّه:

> شعر الجميع الخوف والذعر الشديدين لما أخذت القنابل في السقوط. قُتل الكثيرون من الناس، ودمّرت منازل كثيرة... أصابوا أهدافا لكن الكثير من القنابل أدى إلى تدمير الأحياء. قُتل الكثيرون، الكثيرون من الناس. وأمكنت رؤية الجثث في الشوارع.

وقُطعت مع بداية القصف الامدادات بالماء وبالكهرباء، فتحوّل الشعور الأول بالغبطة ارتباكاً ومن ثم خيبة أمل، وفي النهاية غضبًا. واستذكر أمير:

> اعتقدت، مع وصول الجنود الأميركيين، أن الأمر سيصبح أفضل من ذي قبل. لكنهم شرعوا في إساءة معاملتنا. لم يعد هناك طعام أو ماء، ولم نمتلك أي مال... أُصبنا جميعنا بالجوع والعطش. استمرّوا يوقفون الناس، ويطرحون علينا دومًا أسئلة مثل: «إلى أين أنت ذاهب؟ ماذا

---

(١) Khaled Yacoub Oweis, "Sweden Urges Europe to Take More Iraqi Refugees," Reuters, March 5, 2009 <http://tinyurl.com/oa32cd>; "Statistics on Displaced Iraqis around the World," UNHCR, September 2007 <http://tinyurl.com/yeozk8t>.

(٢) مقابلة أجراها ريتشارد هيل وكريم في ٥ تموز/يوليو ٢٠٠٨ مع أمير في رينكيبي في السويد.

تفعل؟» رحّب بهم والدي في البداية. سعدنا لذهاب صدام حسين لأن في ذلك خيرًا لنا. لكننا رأينا أمورًا. سرق الجنود الأميركيون أشياء كثيرة من المنازل وغيرها من الأماكن. شاهدت ذلك بأم العين. رأيت شاحنات تنقل الرمال من الموصل. ولا أزال لا أعرف لماذا. شاحنات كبرى أخذت الكثير من الرمل. أردنا أن نتفرّج، لكننا مُنعنا من النظر إلى ما يفعلونه. وأخذوا عندما يتحدثون إلينا يقولون «تبًّا لكم» أو «تراجعوا»، وهم يصوبون أسلحتهم إلينا. ولما قصدهم الناس طلبًا للطعام طُلب منهم أن يصمتوا... جعلتنا هذه الأمور نشعر غضبًا شديدًا. وبدأنا ننقلب على الأميركيين لأنهم لم يقدموا إلينا شيئا. كانوا لا بأس بهم مع الأولاد ولكن ليس معنا. قدّموا إلى الأولاد السكاكر.

عاود رئيس أمير الظهور عند هذا الحد من الرواية، وأمره بالعودة إلى العمل. أنزل أمير قبعته الصوف على أذنيه وانطلق. وغاب في اليوم التالي عن الكشك.

يعيش آلاف العراقيين في حي رونّا في سودرتاليي، المدينة الصناعية التي تقع على بعد نحو ٣٥ كلم جنوب غربي ستوكهولم. ويتضمن أيضًا تجمّعُ المحال التجارية والشقق السكنية، الذي يشكّل قطب الرحى التجاري لرونّا، مركزين اجتماعيين متكهّفين، أحدهما على ما يبدو للناس الوافدين من سوريا والآخر لمزيج مجموعات الناس الآتين من الشرق الأوسط. قلّب صاحب المؤسسة السورية عينيه وهو يشير إلى النادي الآخر، مكتفيًا بالقول «مشاكل، مشاكل». وضم النادي الأخير حوالى عشرين رجلًا تجمعوا حول الطاولات يلعبون الورق، تقطع تركيزَهم الجماعي العميق، من وقت إلى آخر، قهقهاتُ الفرح لدى ظهور رابح. توجّهنا إلى الداخل.

جلس إلى إحدى الطاولات رجال من لبنان وتركيا وسوريا والعراق. جلس العراقي، وهو في بداية الستين من عمره، في هدوء، ببزّته الأنيقة يراقب ما يحدث. وسأله مترجمنا: «من أين أنت؟». قابل السؤال بالدهشة، وقال: « من بغداد»[1].

(١) مقابلة أجراها ريتشارد هيل وكريم مع عراقي في المركز الاجتماعي في ٦ تموز/يوليو ٢٠٠٨ في رونّا، السويد.

«متى جئت إلى السويد؟». بدّل الرجل من جلسته. «أتيت من العراق عام ٢٠٠٣. عشت معظم حياتي هناك لكنني مقيم الآن في السويد». لم يُبدِ الرجل أي علامة تظهر ما يعتمل في نفسه، وهو يروي كيف أُجبر على الفرار من العراق في وجه الغزو الأميركي:

> تميّز الأمر بالسوء الشديد. قصفوا كل شيء. ودُمّر كل شيء. شاهدنا الكثيرين من القتلى، والكثير من الأبنية التي دمّرها القصف. لم نعرف ما الذي يتوجّب علينا فعله، فغادرنا وحسب. خسرنا كل شيء، كل مدخراتنا، منزلنا، وممتلكاتي. تركنا وراءنا عائلة وأصدقاء.

بدا الجالسون الآخرون حول الطاولة غافلين، كأنهم سمعوا ذلك كله من قبل. وقال: «في عهد صدّام وُجد نظام على الأقل، وليس كما هي الحال الآن، إذ تعم الفوضى وقد دُمر كل شيء وما من شيء يعمل. أسمعُ هذا من أناس في العراق. أتصل بهم هاتفيًّا ويخبرونني بكل هذه الأمور. الأمر سيئ جدًّا بالنسبة إليهم». ولما سئل هل يعود في يوم من الأيام، أجاب: «كبرت جدًّا على هذا. خسرت كل شيء. لا يوجد ما أعود إليه. لدي بعض من عائلتي هناك – لكنه لا يكفي. فهنا في السويد يوجد سلام وليس كما في العراق. لا يمكننا العودة». انسحب فجأة بعيدًا من الطاولة، ونهض، وغادر النادي على مهل؛ لم يقل له أحد شيئًا، ولا حتى الوداع. استمرت لعبة الورق.

أجرى مكتب المفوضية العليا للاجئين في الأمم المتحدة أواخر العام ٢٠٠٧ مسحًا لتحديد مستوى الصدمة التي اختبرها، منذ العام ٢٠٠٣، اللاجئون العراقيون المقيمون في الخارج – وبلغ عددهم في ذلك الوقت ما يقارب ٢,٤ مليون. وعانى كل شخص، بين العراقيين الـ٧٥٤ – مئة في المئة ـ الذين أجريت معهم المقابلات من حادث صادم في العراق. وجاء في المسح:

> أفاد ٧٧ في المئة من اللاجئين العراقيين الذي أجريت معهم المقابلات عن تأثرهم بالغارات الجوية والقصف أو الهجمات بالصواريخ. وتحدث

> ٨٠ في المئة أنهم شهدوا عمليات إطلاق نار. وقال ٦٨ في المئة إنهم خضعوا للتحقيق أو للمضايقة على يد الميليشيات أو غيرها من المجموعات، بما في ذلك تلقيهم تهديدات بالموت، فيما تعرض ١٦ في المئة للتعذيب. وشهد ٧٢ في المئة عملية تفجير سيارة، في حين يعرف ٧٥ في المئة أحد الأشخاص الذين قُتلوا[١].

وأخبر كل عراقي تحدثنا معه عن أحداث مماثلة: قصف منازل، خسارة ممتلكات، احتطاف أطفال، حياة دُمّرت. «لو سمع الأميركيون طلقة واحدة، ولو على بعد عشرة كيلومترات، لشرعوا، وحسب، في إطلاق النار على كل شيء». قال ليث وهو يشعل سيجارته من اللفائف الحمر للمدفأة الكهربائية التي تدفئ بيته الضيّق المؤلف من غرفتين شرق عمّان، الأردن[٢]. جلس إبناه الصغيران – وكانا يومذاك في السابعة والتاسعة – على حصائر منسّلة على أرضية الباطون الباردة. نحن في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨ وقد ارتدى الصبيان القفازات وقبعتين لدرء برد الشتاء. وراحت زوجة ليث الحامل تسير في المكان، في عصبية، تراقب فيما زوجها يتحدّث.

قال، وهو يزفر وينظر إلى ولديه: «غادرنا في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤». وتابع: «امتلكت متجرًا في أحد شوارع بعقوبة. شرعت مجموعات أصولية في مقاتلة الأميركيين، وتمكّنْتُ بطريقة ما من الهرب، وفتح الأميركيون النار. واحترق المتجر». واستحال الحصول على تعويض:

> افتُرض بي الحصول على المال من الحكومة العراقية. لكن الحكومة قالت «هذا خطأ الأميركيين لذا عليك الذهاب إليهم وسيعوّضونك». وكيف لي أن أبلغ الأميركيين؟ كيف يمكنني أن أتحدّث مع أي أميركي

(١) Amelia Templeton, "UNHCR Releases Trauma Study," Human Rights First, January 23, 2008 http://tinyurl.com/q7qnth>.

(٢) مقابلة مع ليث أجراها مايكل أوترمان وتمارا فنجان في ٣ شباط/فبراير ٢٠٠٨ في عمّان في الأردن. الرجاء الملاحظة أن أجزاء من هذه المقابلة ظهرت للمرة الأولى في مقالة فنجان وأوترمان، «إذا لم تكن مسلمًا في العراق فأنت حثالة».

أو دخول أي مبنى أميركي؟ فلو رأتني الميليشيات الإسلامية لظنت أنني متعاطف مع الأميركيين واعتقدت أنني أعمل معهم. وسأواجه عندذاك مشكلة أكبر. وهكذا ضاع كل شيء.

أقام ليث وعائلته شهرًا مع أهله في بغداد، ثم جاء إلى الأردن. وقال: «يتجه العراق من سيّئ إلى أسوأ. ولا أريد العودة إليه أبدًا. فالبلاد عرضة للتقسيم». وأضاف، وهو يسترق النظر إلى ولديه اللذين تحلّقا الآن حول المدفأة الصغيرة: «لطالما عشنا في حال من الحرب. لم تبدأ الحرب عام ٢٠٠٣. فقد تعودت أميركا، قبل ذلك، القصف بين الحين والآخر - في الـ٩٨ والـ٩١. أكثر من عشرين عامًا من الحرب».

مصالح منافية لمصالحنا

شن العراق، الثانية فجر الثاني من آب/أغسطس ١٩٩٠، هجومًا بوحدات القوات الخاصة وبأربع فرق من الحرس الجمهوري على الكويت - البلد الصغير المجاور الذي يمتلك خامس أكبر احتياطي مثبت من النفط في العالم. جاء ردّ الفعل الأميركي خاطفًا. وقال الرئيس جورج هـ. و. بوش في ١٥ آب/اغسطس ١٩٩٠، إن «وظائفنا، وأسلوب حياتنا، وحريّتنا ستعاني كلها إذا سيطر صدّام حسين على أكبر احتياطيات العالم من النفط»[1]. وبعد ذلك بخمسة أيام، أصدر بوش إلى رؤساء أركانه المذكرة الأمنية الوطنية الرقم ٤٥: «سياسة الولايات المتحدة ردًّا على الغزو العراقي للكويت». وهي بمثابة توجيه لمبادئ عقيدة كارتر، وجاء في مطلعها:

> إن المصالح الأميركية في الخليج الفارسي حيوية للأمن القومي. وتتضمن هذه المصالح الوصول إلى النفط وأمن الدول الرئيسة الصديقة في المنطقة واستقرارها. وستدافع الولايات المتحدة عن مصالحها الحيوية باستخدام

(١) Kevin Phillips, "American Petrocracy," The American Conservative, July 17, 2006 <http://tinyurl.com/prksy

القوة العسكرية الأميركية إذا لزم الأمر وكان ذلك مناسبًا في وجه أي قوة تتنافى مصالحها مع مصالحنا[1].

شكّل الاستعداد لاستخدام القوة الأميركية في وجه العراق خروجًا واضحًا على السياسة الأميركية السابقة. فليس صدام حسين إلا صنيعة الولايات المتحدة – رجل إقليمي قوي مكلّف كبح النفوذ السوفياتي والإيراني في الشرق الأوسط.

تمتد روابط صدام مع السي.آي.إي. إلى أولى أيام الحرب الباردة. وكان عام ١٩٥٩ واحدًا من فريق من ستة أشخاص جنّدتهم السي.آي.إي. وكلفتهم اغتيال رئيس الوزراء اللواء عبد الكريم قاسم. وسبق لقاسم، في وقت سابق من السنة، أن انسحب من حلف بغداد المعادي للسوفيات، وهو ائتلاف يضم أيضًا تركيا وبريطانيا وإيران وباكستان. كذلك شرع قاسم، الذي أطاح في تموز/يوليو ١٩٥٨ النظام الملكي العراقي، في شراء الأسلحة من الاتحاد السوفياتي ورقّى الشيوعيين في حزبه. ولما فشلت محاولة الاغتيال ساعدت السي.آي.إي. صدام في الهرب من العراق ووضعته في شقة في بيروت، ثم في القاهرة. وبقيت السي.آي.إي. على اتصال بصدام مع استيلاء حزب البعث على السلطة عام ١٩٦٣. وبعد الانقلاب، عاد صدام إلى العراق وزودته السي.آي.إي. لوائح بمن يُشتبه في أنهم من الشيوعيين. وبحسب مراسل وكالة «يو.بي.آي.» ريتشارد سايل تعرض الرجال «من ثم للسجن، والاستجواب، والإعدام بالرصاص على عجل»[2]. وأصبح صدام، بدوره، رئيسًا للجهاز الخاص الذي يثير الرعب في النفوس، وهو جهاز الاستخبارات السرّية لحزب البعث، ليصبح بعد ذلك قائدًا للقوات المسلحة العراقية، وفي النهاية رئيسًا في تموز/يوليو ١٩٧٩. وأصبحت العلاقات العراقية ـ الأميركية في ظل صدام أكثر وثوقًا. وسعت الولايات المتحدة في حرب ١٩٨٠-١٩٨٨ بين إيران والعراق إلى إيصال

(١) "NSD 45: US Policy in Response to the Iraqi Invasion of Kuwait," United States Security Council, August 20, 1990 <http://tinyurl.com/okd5v3>.

(٢) Richard Sale, "Exclusive: Saddam Key in Early CIA Plot," UPI, April 10, 2003 <http://tinyurl.com/cnc4r>.

الأمور إلى طريق مسدود لمنع أي من الدولتين من السيطرة على المنطقة. وأطلعت السي.آي.إي. مسؤولي الاستخبارات العراقية، في شكل منتظم، على صور التقطتها الأقمار الصناعية للمواقع الإيرانية. وبحسب ملفات لوزارة التجارة الأميركية، حصلت عليها النيوزويك، زودت إدارة ريغان العراقيين طائرات هيليكوبتر وتكنولوجيا المراقبة بالفيديو، وسمحت ببيعهم مبيدات زراعية «شديدة السموم» و«البكتيريا/الفطريات/الحيوانات المجهرية» – وهي من العناصر التمهيدية للأسلحة البيولوجية[1].

اجتمع المبعوث الخاص للرئيس رونالد ريغان يومذاك دونالد رامسفلد مع صدّام حسين في ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٣. ونقل رامسفلد، بحسب برقية لوزارة الخارجية «تحيات الرئيس ريغان وعبّر عن سروره لوجوده في بغداد». وذكرت رواية صحافية أن الزيارة نُظِّمت «لتحسين العلاقات بين البلدين». وبعد ذلك بأشهر استخدم العراق الأسلحة الكيميائية في هجوم على أهداف إيرانية – هو الأول من أصل أكثر من مئة هجوم بالغاز ما بين ١٩٨٤ و١٩٨٨. وذكر مسؤولون أجرت النيوزويك مقابلات معهم أن الهيليكوبترات الأميركية استخدمت في رش الغاز السام على الأكراد. ولما ظهرت صور تلفزيونية لهجوم كيميائي عراقي على حلبجة التي تحتلها إيران في الشمال الكردي العراقي، أُجبر البيت الأبيض على إصدار بيان عام نادر. دانت الولايات المتحدة استخدام العراق أسلحة الدمار الشامل، لكنها كيّفت الإدانة بإعلان وجود «مؤشرات» – لم تثبت قط – لاستخدام إيران أيضًا الأسلحة الكيميائية[2].

ولم يؤدِّ نشر الأسلحة الكيمائية يومذاك إلى وقف الدعم الأميركي لصدام. وسافرت في نيسان/أبريل ١٩٩٠، بعثة من الشيوخ الأميركيين إلى العراق، ومعهم

(١) Christopher Dickey and Evan Thomas, "How the US Helped Create Saddam Hussein," Newsweek, September 23, 2002 <http://tinyurl. com/pj242c>; Michael Dobbs, "US Had Key Role in Iraq Buildup," Washington Post, December 30, 2002 <http://tinyurl.com/3xvltn>.

(٢) Thomas, "How the US Helped Create Saddam Hussein"; "The Clouds of Death" (editorial), March 27, 1988, St.ouis Post-Dispatch, p. 2B; David B. Ottaway, "US Decries Iraqi Use Of Chemical Weapons; 'Grave Violation' of International Law Cited," Washington Post, March 24, 1988, page A37.

تعليمات من جورج هـ. و. بوش بمزيد من تحسين العلاقات بين البلدين. وطارت المجموعة – التي ضمت زعيم الجمهوريين حينذاك روبرت دول ومساعد زعيم الأقلية السيناتور ألن سيمسون ـ إلى بغداد ومن هناك، بطائرة تابعة للقوات الجوية العراقية، إلى الموصل لإجراء المحادثات. و«حرص الشيوخ»، بحسب مسؤولين أميركيين، «على تسويق مصالح الزراعة والأعمال الأميركية». وأبلغ دول الصحافيين أن الاجتماع مع حسين كان «ممتازًا»[١].

بعد ذلك بثلاثة أشهر، في ٢٥ تموز/يوليو، استدعى حسين سفيرة الولايات المتحدة في العراق إبريل غلاسبي إلى قصره. وبحسب محضر عراقي، شكّك فيه لاحقًا مسؤولون أميركيون، لاحظت غلاسبي تعبئة القوات العراقية على الحدود الكويتية، وأبلغت حسين أن «ليس لدينا رأي في النزاعات العربية ـ العربية على غرار خلافك على الحدود مع الكويت». وأضافت غلاسبي: «كنت في السفارة الأميركية في الكويت أواخر الستينات. وقضت تعليماتنا في تلك المرحلة بعدم التعبير عن أي رأي عن تلك المسألة وبأن لا علاقة لأميركا بها». واجتاح صدّام الكويت بعد ذلك بأسبوعين. ودفع تغيير الموازين الإقليمية بالولايات المتحدة إلى التدخل العسكري ضد حليفها الطويل الأمد. وصار الاتحاد السوفياتي بحلول العام ١٩٩٠ على قاب قوسين من التفكّك. ووفقًا لفيليس بينيس من المعهد التقدمي للدراسات السياسية Progressive Institute for Political Studies «أرادت الولايات المتحدة أن توضح أنها، ومهما حدث للاتحاد السوفياتي، ستبقى القوة الأعظم، القوة المسيطرة في الشرق الأوسط وفي العالم. ووفّر اجتياح الكويت المبرر للقيام بذلك»[٢]. وضمنت

(١) Dickey and Thomas, "How the US Helped Create Saddam Hussein"; Subhy Haddad, "Iraqi Leader Says Nothing to Hide on Mass Weapons," Reuters, April 12, 1990.

(٢) Special to the New York Times, "Confrontation in the Gulf; Excerpts From Iraqi Document on Meeting With U.S. Envoy," New York Times, September 23, 1990 <http://tinyurl.com/p3y8sv>; Phyllis Bennis and Denis J. Halliday (interviewed by David Barsamian), "Iraq: The Impact of Sanctions and US Policy," in Anthony Arnove, ed., Iraq Under Siege: The Deadly Impact of Sanctions and War, South End Press: Cambridge, Massachusetts, 2000, p. 40.

الولايات المتحدة موافقة الأمم المتحدة على هجومها عام ١٩٩١ على عكس التمهيد لاجتياح العام ٢٠٠٣. ودفعت الولايات المتحدة في اتجاه تمرير قرار مجلس الأمن الرقم ٦٦٠ الذي يطالب «العراق بالانسحاب فورًا ومن دون شروط» من الكويت. ورعت الولايات المتحدة في ٦ آب/أغسطس تمرير القرار الرقم ٦٦١ الذي حظر بيع كل السلع من العراق، ما عدا «المؤن المخصصة حصرًا للاستخدام الطبي والمواد الغذائية في الحالات الإنسانية»، إلى حين الانسحاب العراقي. ونجحت الولايات المتحدة في النهاية، في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر، في الضغط من أجل القرار الدولي الرقم ٦٧٨ الذي أمهل العراق حتى ١٥ كانون الثاني/يناير ١٩٩١ للانسحاب وسمح «باستخدام كل الوسائل اللازمة لدعم القرار الرقم ٦٦٠ وتنفيذه»[١].

ومع اقتراب المهلة النهائية، توسّط موفد الاتحاد السوفياتي إلى الشرق الأوسط، يفغيني بريماكوف، مع المسؤولين العراقيين في بغداد على اتفاق اللحظة الأخيرة للانسحاب. وأعلن بريماكوف أن «صدّام أقر بالمسألة الرئيسة التي تقضي بأن على العراق الانسحاب من الكويت». وبحسب الإندبندنت فإن البيت الأبيض «دفن» الخطة «في شكل جاف»[٢]. ويكشف التوجيه الرقم ٥٤ الذي أصدره مجلس الأمن القومي بتاريخ ١٥ كانون الثاني/يناير ١٩٩١، عن سبب نبذ صفقة السلام. وجاء في بدايته:

> إن الوصول إلى نفط الخليج الفارسي وأمن الدول الصديقة الرئيسة في المنطقة حيويان للأمن القومي للولايات المتحدة... وتبقى الولايات المتحدة ملتزمة الدفاع عن مصالحها الحيوية في المنطقة، باستخدام القوة العسكرية إذا لزم الأمر، في وجه أي قوة أو مصالح منافية لمصالحها. ومن الواضح أن العراق، من خلال غزوه غير المبرّر للكويت في ٢ آب/

(١) Bennis and Halliday (interviewed by Barsamian), "Iraq: The Impact of Sanctions and US Policy," pp. 40–41.

(٢) Leonard Doyle and Tony Barber, "Soviet Peace Plan Dies a Quiet Death," Independent On Sunday, February 24.

أغسطس ١٩٩٠ وما أعقبه من احتلال وحشي، يشكل قوة ذات مصالح منافية لمصالحنا[١].

وفي ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٩١، شرع ائتلاف مؤلف من ٣٤ دولة بقيادة الولايات المتحدة في القصف الجوي على العراق وفي الهجوم على القوات العراقية في داخل الكويت. وتألفت قوّة الاجتياح أساسًا من جنود من الولايات المتحدة (٧٠٠,٠٠٠)، والسعودية (١٠٠,٠٠٠)، والمملكة المتحدة (٤٥,٤٠٠)، ومصر (٣٣,٦٠٠)، وفرنسا (١٤,٦٠٠). وأدت بلدان مثل الأرجنتين والدنمرك والمجر دورًا مساندًا مقدّمة خدمات تتعلق بالنقل واللوجستيات. واتضح أن الهجوم الذي سُمّي «عاصفة الصحراء»، استهدف نظام حسين ولكن لم تنتج عنه سوى معاناة إنسانية هائلة للمواطنين العراقيين – الأغنياء منهم والفقراء ومن في منزلة بين المنزلتين. أُسقط في الحرب التي استمرت ٤٢ يومًا ٨٨,٥٠٠ طن من الذخائر – ما يزيد على ٢١٠,٠٠٠ قنبلة فردية – على الكويت والعراق. وذكر الصحافي جيوف سيمونز، مؤلف «بلوى العراق: العقوبات والقانون والعدالة الطبيعية» :The Scourging of Iraq Sanctions, Law and Natural Justice، أن هذه الحمولة تعادل سبع قنابل ذرّية من حجم قنبلة هيروشيما. وكتب: «تعرّض العراق، طَوال الحرب، إلى ما يعادل قنبلة ذرية في الأسبوع، وهو مقدار من التدمير ليس له ما يوازيه في تاريخ الحروب. أضف إلى ذلك أن الصواريخ والقنابل امتدت لتشمل كل أنحاء العراق، فيما تركّزت القدرة التدميرية المروعة للقنبلة الذرية في موقع واحد»[٢].

(١) NSD 54: Responding to Iraqi Aggression in the Gulf," United States Security Council, January" 15, 1991 http://tinyurl.com/p8q37r>.

(٢) Military Statistics—Gulf War Coalition Forces (most recent) by country," Nation Master <http://" tinyurl.com/qxpcje>; Donald I. Blackwelder, "The Long Road to Desert Storm and Beyond: The Development of Precision Guided Bombs" (thesis), School of Advanced Airpower Studies, Maxwell Air Force Base Alabama, May 1992, p. 38 <http://tinyurl.com/qebwsh>; Geoff Simons, "The Scourging of Iraq Part 1," from Geoff Simons, The Scourging of Iraq: Sanctions, Law and Natural <Justice, Macmillan Press: London, 1996 <http://tinyurl.com/rap5k9>.

أفواه مفتوحة تبتلع القنابل

وجدت الرسّامة والخزّافة العراقية نهى الراضي، في قصف العام ١٩٩١ ملجأ لها في منزل أهلها الريفي شمال بغداد. ونهى ابنة ديبلوماسي عراقي ثري عاشت وهي طفلة في الهند وتعلمت الإنكليزية في دلهي وسيملا. عملت وعرضت أعمالها في بيروت، لكنها هربت إلى العراق بعد نشوب الحرب الأهلية. وتشكّل يومياتها – التي نشرتها أولًا الصحيفة الأدبية «غرانتا» Granta، ومن ثم بانتام هاوس – سردًا فريدًا للغزو باللغة الإنكليزية[1]. فرواية نهى الشخصية جدًّا لدمار بغداد أذنت مسبقًا بروايات شهود عيان حرب الخليج الثانية التي كتبها عام ٢٠٠٣ أصحاب المدونات الإلكترونية العراقيون.

كتبت نهى الراضي في يومياتها في ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٩١، وهو اليوم الأول للهجوم الذي تقوده الولايات المتحدة:

> استيقظت الثالثة فجرًا على أصوات انفجار القنابل، وكلبي سلفادور دالي يعدو كالمسعور حول المنزل وهو ينبح في شراسة. خرجت إلى الشرفة، وقد سبقني إليها سلفادور، وأنا أحدّق بالسماء المضاءة بأغرب عرض من نوعه للألعاب النارية. أما الضجيج فيعجز عنه الوصف.
>
> غامرت إلى الخارج مع سلفادور لإطفاء ضوء المرأب – وقد أصاب التوتّر كلينا. وما كان عليّ إزعاج نفسي لأن الكهرباء انقطعت على الفور تقريبًا. كذلك انقطع الهاتف. وفكّرت في أننا قُضي علينا: لا يمكن دولة حديثة أن تحارب من دون كهرباء واتصالات. وأشكر لله مخزوننا من عيدان الكبريت الباكستاني.

---

(١) Nuha al-Radi, "Baghdad Diary," Granta: A Paperback Magazine of New Writing, no. 42, pp. 209–237; Nuha al-Radi, Baghdad Diaries: A Woman's Chronicle of War and Exile, Vintage: New York, Amazon Kindle Edition, 2007.

> ومع سقوط أول قنبلة تحطمت نوافذ أمي ونيدل، تلك المواجهة للنهر، وقتل الزجاج المتطاير واحدًا من جِراء بينغو المسكينة في الحديقة، أولى ضحايانا في الحرب[1].

دعا توجيه الأمن القومي الرقم ٥٤ إلى علميات عسكرية تهدف إلى «تدمير قدرات القيادة والسيطرة والاتصالات في العراق». وتابع: يجب، في وقت يتم تحقيق هذه الغايات، بذل «كل جهد معقول لخفض الأضرار الجانبية للهجمات العسكرية واتخاذ الاحتياطات الخاصة للتقليل من الإصابات المدنية ومن الأضرار في البنى التحتية الاقتصادية غير العسكرية والمؤسسات التي لها علاقة بالطاقة والمواقع الدينية». إلا أن سلاح الجو الأميركي، وبما يتنافى مع هذا التوجيه، أسقط نحو ١٢٠٠ طن من المتفجرات على ٢٨ هدفًا نفطيًّا في العراق – مما أوقف العمل في كل مصافي النفط. كذلك دّمرت معامل الطاقة العراقية الرئيسة الـ١١ والمحطات الفرعية الـ١١٩ الأمر الذي قضى على ٩٠ في المئة من إنتاج الكهرباء على مستوى البلاد[2]. ولاحقًا، شرح ضابط تخطيط في سلاح الجو الأميركي للواشنطن بوست المنطق من وراء استهداف البنى التحتية:

> يقول الناس: «أنتم لم تدركوا أن الأمر سيؤثّر في المياه أو الصرف الصحي». هل ما حاولنا، في الواقع، أن نفعله بالعقوبات [الاقتصادية التي أقرتها الأمم المتحدة] – هو مساعدة الشعب العراقي؟ كلا. ما فعلناه من خلال الهجمات على البنى التحتية هو تسريع مفعول العقوبات[3].

(١) هذه المقتطفات وما يليها من رواية نهى الراضي لاجتياح ١٩٩١ مأخوذة من «يوميات بغداد» للراضي في «غرانتا». وتم تكثيف هذه المقتطفات – كما في مقتطفات كتاب اليوميات والمدونات الإلكترونية التي تم الاستشهاد بها في مختلف صفحات الكتاب – مع الاحتفاظ بالقواعد والإملاء لنقل أفضل، لفورية عمل المؤلفين.

(٢) John Sweeney Responds on Mass Death in Iraq," Media Lens, June 2,8 2002 <http://tinyurl.com/" quem7t>.

(٣) Barton Gellman, "Allied Air War Struck Broadly in Iraq; Officials Acknowledge Strategy Went .Beyond Purely Military Targets," Washington Post, June 23, 1991 <http://tinyurl.com/22owsg>.

ونجحت الخطة بكل المقاييس. وتفكّكت حياة نهى الطبيعية عقب خسارة الكهرباء. وكتبت في ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٩١:

> جهّز منذر بك مولّدًا لمنزله مستخدمًا البترول الثمين. وقف عشرة منا وقد فغرت أفواهنا تعجّبًا حيال هذه الآلة والضجيج الذي تصدره. لم تمضِ سوى أربعة أيام على بدء الحرب وها إن أي نوع من أنواع الآلات يبدو غريبًا بالكامل.

وبحلول السادس والعشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٩١، دبّت خيبة الأمل الكبيرة:

> انتبهوا تمامًا إلى ما أقوله، فاليوم هو اليوم العاشر على الحرب ونحن لا نزال هنا. أين حسمكم السريع والنظيف الذي وعدتم بأن يتم خلال ما بين ثلاثة أيام وعشرة؟ تذكّروا أننا خربنا. لا أعتقد أنني أستطيع أن أطأ الغرب بقدمي من جديد. ربما أذهب إلى الهند: لديهم مستوى رفيع من التسامح ولن يتجنبوا العراقيين.

قتلت موجات العصف أعدادًا كبيرة من العصافير التي سبق أن ملأت حديقة نهى فكتبت: «مات المئات منها، إذا لم يكن الآلاف، في البستان. وباتت الناجية المستوحدة تطير بطريقة مذهولة». ازداد الدمار فيما الحرب الجوية تطول. وكشفت نهى بعد ٢٢ يومًا:

> باتت الأيام رتيبة الآن. شاهدت اليوم جسر الجمهورية؛ لا يعقل الحزن لمرأى جسر مقصوف – عمل إجرامي لأنه يدّمر رابطًا. أثّر المنظر في كل من رآه؛ وأبكى الكثيرين من الناس.

أضافت بعد ذلك بأربعة أيام: «أصيب جسر الشهداء والجسر المعلّق. أشعر مرارة شديدة حيال الغرب».

وفي ١٣ شباط/فبراير ١٩٩١، أسقطت طائرتان قاذفتان من طراز الشبح أف

-١١٧ قنبلتين «ذكيتين» موجهتين بالليزر على ملجأ مدني في حي العامرية في بغداد. حفرت القنبلة الأولى، وهي تزن ٢٠٠٠ رطل، ثقبًا في الملجأ الإسمنتي، فيما انفجرت الثانية في داخله. واحترق أكثر من ٢٠٠ امرأة عراقية وطفل من جراء الانفجارين. وادعى سلاح الجو الأميركي لاحقًا أن الحصن استخدم «كمركز عسكري للقيادة والسيطرة»، على الرغم من علامات الموقع تدل إلى العكس[١]. وردّت نهى في ١٤ شباط/فبراير:

> إنها نقطة تحوّل في الحرب. لقد أصابوا ملجأ، ذلك الذي في العامرية. اعتقدوا أنه سيكون مكتظًا بجماعة من عظيمي الشأن، لا بالنساء والأولاد. امّحت عائلات بكاملها من الوجود. ويصرّ الأميركيون على أن هؤلاء النساء والأولاد وُضعوا هناك قصدًا. وأسأل: أيعقل هذا؟ يمكن المرء أن يتخيل الحديث في مقر القيادة كالتالي: «أعتقد، في الواقع، أن الأميركيين سيضربون العامرية تاليًا، فلنملأه بالنساء والأولاد».

ازدادت نهى مرارة بعد قصف العامرية. واشتكت في ما دونته بتاريخ ٢٥ و٢٦ شباط/فبراير:

> تمتلئ النهارات والليالي ضجيجًا، ويستحيل النوم. بقينا أربعين ليلة ونهارًا، وهذا رقم توراتي، وأفواهنا مفتوحة نبتلع القنابل. ليست لدينا أي علاقة بالاستيلاء على الكويت، ومع ذلك ندفع الثمن. نعيش في فيلم هندي، أو أننا أشبه بفيلم بيتر سيللرز «الحفلة» The Party، نرفض أن نموت فننهض مرة أخرى فأخرى لنفخة أخيرة في البوق. أما الأفلام الهندية فهي في الحقيقة لا تنتهي.

وأخيرًا توقّف القصف في ٢٧ شباط/فبراير ١٩٩١. ولاحظت بمرارة في النفس:

(١) The Lack of Warning Prior to Attack: The Ameriyya Air Raid Shelter," in "Needless Deaths in the Gulf War: Civilian Casualties During the Air Campaign and Violations of the Laws of War," Human Rights Watch, New York, 1991 <http://tinyurl.com/ps66dz>.

الهزيمة شعور رهيب. ففي هذا الصباح توقفت الحرب في يومها الثاني والأربعين. واظبوا على قصفنا الليل بطوله تحسبًا لبقاء لهثة أو لهثتين في صدورنا. إنها أسوأ ليلة قصف في الحرب كلها. لم يغمض لأحد جفن. أعتقد أنهم ألقوا بكل ما تبقى لهم من ذخيرة.

قُدّرت الخسائر العراقية بـ٢٣٢ مليار دولار – رقم يوازي ستة أضعاف الناتج المحلي الإجمالي السنوي في العراق[١]. وحصدت الحرب ما بين ٢٥٠٠ مدني عراقي و٣٥٠٠ دفعة واحدة، سقط غالبيتهم بقصف طائش بالقنابل إذ أخطأ ما يصل إلى ٧٠ في المئة من القنابل أهدافه المقصودة. ولاحظ الخبير في سياسة الدفاع الأميركية مايكل كلير أن مطلقي القنابل من الحلفاء حققوا، باستخدامهم القنابل التقليدية والذخائر الإنشطارية والنابالم وبخاصة قنابل الوقود الحرارية، «مستويات من التدمير أشبه بالذرية من دون إثارة النفور الشعبي»[٢]. وتولى نائب الأمين العام للأمم المتحدة مارتي أهتيساري الفائز بجائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٨، إجراء أول التقويمات للخسائر في داخل البلاد. وكتب بعد مسح الأضرار:

لم يحضّرنا أي شيء مما رأيناه أو قرأناه تحضيرًا تامًّا لهذا الشكل من الدمار الذي حلّ الآن بالبلاد. أوقع النزاع الأخير نتائج شبه رؤيوية بالبنية التحتية الاقتصادية لما كان، حتى كانون الثاني/يناير ١٩٩١، نوعًا من المجتمع الفائق التمدّن والمكننة. وها إن معظم الوسائل الداعمة للحياة الحديثة قد دُمّر أو صُيّر متخلخلًا. أُنزل العراق،

(١) Abbas S. Mehdi, "The Iraqi Economy under Saddam Hussein: Development or Decline" (book review), Middle East Policy, Summer 2003 <http://tinyurl.com/p32bk3>.

(٢) Iraqi civilian fatalities in the 1991 Gulf War," in Carl Conetta, The Wages of War: Iraqi Combat-" ant and Noncombatant Fatalities in the 2003 Conflict, Project on Defense Alternatives, October 20, 2003 <http://tinyurl.com/pbsa7f>; "Our Common Responsibility: The Impact of a New War on Iraqi Children," International Study Team, January 30, 2003, summary available at <http://tinyurl.com/ygduk6s>; Klare quoted in Simons, "The Scourging of Iraq Part 1," from Simons, The Scourging of Iraq.

لبعض الوقت في المستقبل، إلى مرتبة العصر ما قبل الصناعي، ولكن مع كل معوّقات ما بعد الاعتماد الصناعي على الاستخدام الكثيف للطاقة والتكنولوجيا[1].

وجد أهتيساري أن ٨٣ جسرًا دُمّرت وأصيب تسعة آلاف منزل بأضرار يستحيل تصليحها، وبينها ٢٥٠٠ في بغداد و١٩٠٠ في البصرة. وقال إن هذا أدى إلى إنتاج فئة جديدة من السكان المشردين يصل عددهم إلى ٧٢ ألف شخص. وباتت كل مصادر الفيول الحيوية ومعالجة مياه الصرف الصحي ومعامل ضخ المياه ومعامل الطاقة والاتصالات «أساسًا بحكم الميتة» نتيجة القصف الأميركي[2].

ولاحظ الدكتور ليون أيزنبرغ، في مقالة في «نيو إنغلند جورنال أوف ميديسين»، أن تدمير معامل الطاقة في العراق «أدى إلى وقف نظام تكرير المياه وتوزيعها كاملًا مما أدى إلى تفشي وباء الكوليرا وحمى التيفوئيد والتهابات المعدة والأمعاء، وبخاصة بين الأولاد». ووجد مسح أجراه صندوق الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف)، في وقت لاحق، زيادة في وفيات الأولاد ممن هم أقل من خمسة أعوام بلغت نحو ٤٧ ألفًا من كانون الثاني/يناير وحتى آب/أغسطس ١٩٩١. ارتفع عدد الوفيات بسبب المرض المتفشي الذي حفزته نوعية المياه الرديئة بالترادف مع تعطّل نظام العناية الصحية. واستنتج المؤلف والناشط ميلان راي لاحقًا أن «التدمير المقصود لوسائل احتواء الأمراض المنتقلة عن طريق المياه يعادل استخدام السلاح البيولوجي. ويبدو من العدل عندذاك القول إن ٤٧ ألف طفل قُتلوا في العراق في الأشهر الثمانية الأولى من ١٩٩١ نتيجة الحرب البيولوجية التي حضّت عليها بريطانيا والولايات المتحدة»[3].

(١) Martti Ahtisaari, “Report to the Secretary-General on humanitarian needs in Kuwait and Iraq in the immediate post-crisis environment Otterman 01 text 216 01/02/2010 08:51 by a mission to the area led by Mr Martii Ahtisaari, Under-Secretary- General for Administration and Management,” March 20, 1991, p. 5 <http://tinyurl.com/yendn1j>.

(٢) المصدر السابق ص. ١١-١٢.

(٣) Leon Eisenberg, “The Sleep of Reason Produces Monsters: Human Costs of Economic Sanctions” (editorial), New England Journal of Medicine, Vol. 336, No. 17, April 24, 1997, pp. 1248 -1250 <http://tinyurl.com/qjf7fe>; Milan Rai, War Plan Iraq: Ten Reasons Against War in Iraq, WW Norton & Company: New York, 2002, p. 138.

ثمن العقوبات

أبقى قرار مجلس الأمن الرقم ٦٨٧ الصادر في ٣ نيسان/أبريل ١٩٩١ على العقوبات الصارمة على رغم واقع أن القوات العراقية انسحبت بالكامل من الكويت في آذار/مارس من تلك السنة. وسيبقى الحظر ساري المفعول «إلى حين تدمير» أسلحة الدمار الشامل العراقية و«إزالتها أو إبطال مفعولها تحت إشراف دولي». وعلى رغم أن أسلحة الدمار الشامل شكّلت الهدف المعلن لهذه العقوبات، لم يكن الحليفان الأميركي والبريطاني ليقبلا أقل من تغيير النظام في العراق. وقال السفير البريطاني السير ديفيد هاناي في مجلس الأمن: «ستثبت في الواقع استحالة عودة العراق للانضمام إلى مجموعة الدول المتحضّرة وصدام حسين لا يزال في السلطة». وفي أيار/مايو ١٩٩١، قال روبرت م. غايتس، وقد تولى يومذاك منصب نائب مستشار الأمن القومي لجورج هـ. و. بوش:

> إن المجتمع الدولي لن يقبل أبدًا زعامة صدّام حسين، وسيدفع العراقيون بالتالي ثمن بقائه في السلطة. وسيتم الإبقاء على كل العقوبات الممكنة إلى أن يرحل. ولن يتم النظر في تخفيف العقوبات إلا عند وجود حكومة جديدة[١].

واصل البيت الأبيض في عهد كلينتون هذه السياسة. ولاحظ كلينتون عام ١٩٩٧ أن «العقوبات ستستمر حتى نهاية الأزمنة أو ما بقي [صدام]». عام ١٩٩٨، وبعد أسابيع فقط على تمرير قانون تحرير العراق، وهو القانون الذي خصص أموالًا لمجموعات المعارضة العراقية وأعلن أن إطاحة صدام حسين تشكّل سياسة أميركية رسمية، أمر كلينتون بأربعة أيام من الغارات الجوية الأميركية في مختلف أنحاء العراق ليزيد «في الحط من القدرات» العراقية[٢].

(١) «World Report" Human Rights Watch, 1992, pp. 707–8.

(٢) Steven Lee Myers, "Clinton is Sending 2nd Carrier to Gulf," New York Times, November 15, 1997 <http://tinyurl.com/yz6fjnz>; Madeleine Albright (interviewed by Jim Lehrer), "Newshour with Jim Lehrer," PBS, December 17, 1998 <http://tinyurl.com/o7jnsr>.

وتُجسّد تجارب نهى الراضي الخسائر الإنسانية للعقوبات. وهي استأنفت يومياتها أواخر العام ١٩٩٤ بعد توقف دام ثلاث سنوات أخذ التضخم في غضونها في التفشي. وسجّلت في الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٤:

الكثير من الحديث عن الطعام والأسعار. تكلّف البيضة الواحدة ٦٠ دينارًا، فحتى خلال الحرب لم يتجاوز سعر دزينة البيض الدينارات الأربعة! ستكلفني بطارية سيارتي الجديدة ١٦ ألف دينار. تتقدّم السيارات، في بطء، في شوارع بغداد، وإطاراتها ناعمة نعومة عجز الطفل – لم يتبقَّ فيها أي نتوء. ويعيش الناس على السرقة والغش. سرقت إطارات سيارة ليلى وحاتم الأربعة كلها. وقد رُفعت سيارتهما على ألواح من الأجر وركنت أمام بوابة مدخلهما – وأخذ اللصوص أيضًا ثيابهما المغسولة المنشورة في الحديقة[1].

كذلك ازداد قلق نهى على صحتها وصحة غيرها من العراقيين. وتحدّثت خصوصًا عن تأثيرات أسلحة اليورانيوم المنضب الأميركية المثيرة للجدل. واليورانيوم المنضب هو منتج من النفايات المشعة للصناعة النووية، ومشتق من تخصيب اليورانيوم الذي يستخدم وقودًا للمفاعلات النووية. وقد خزن، سنوات، في مواقع مختلفة في الولايات المتحدة إلى أن استُغلّت صلابته الفريدة في الاستخدام العسكري. ويمكن ذخيرة اليورانيوم المنضب اختراق معظم الدروع نظرًا إلى أنه أكثر كثافة بـ١/٧ مرّة من الرصاص. غير أن اليورانيوم المنضب مثير للجدل ليس بسبب قوته بل بسبب ما يخلّفه وراءه. فأكثر من ٧٠ في المئة من كتلته تحترق لدى الصدمة عندما يصيب اليورانيوم المنضب هدفه. ويمكن الهواء نقل الرواسب الناعمة فيتنشقها عندذاك الإنسان والحيوان، بل وحتى النبات. ويبث الغبار المشع – وله نصف حياة تبلغ ٤/٥ مليارات سنة – إشعاعات ألفا وبيتا وغاما، ويُعتقد أنه يتسبب بجملة من المشكلات الصحية الخطيرة التي تهدد الحياة. ويقول الدكتور دوغ روكي، الطبيب السابق في الجيش والمنتقد أسلحة اليورانيوم المنضب، إن المخاطر الصحية الناجمة عن

(١) هذه المقتطفات وما يليها من رواية نهى الراضي للعقوبات مأخوذة من يومياتها البغدادية: Baghdad Diaries: A woman's Chronicle of War and Exile.

التعرض لهذا اليورانيوم تتضمن أمراضًا إرتكاسية في المجاري الهوائية، وتشوهات عصبية، وحصى في الكلي، وآلامًا مزمنة في الكلي، والطفح الجلدي، وفقدان النظر، وسرطان الغدد اللمفاوية، وسرطان الجلد والأعضاء، واختلالات عصبية ـ نفسية، واختلالًا في الوظائف الجنسية، وعيوبًا خلقية[1].

استخدمت الولايات المتحدة أسلحة اليورانيوم المنضب للمرة الأولى في حرب الخليج في ١٩٩١ – ألقي ما يُقدّر بمئتين وستة وثمانين طنًّا من ذخائر اليورانيوم المنضب. ويدّعي الآن ثلاثون في المئة من الجنود الأميركيين السبعين ألفًا الذين نُشروا في حرب الخليج معاناتهم تأثيرات صحية مرتبطة بالتعرض لهذا اليورانيوم. وذُكر أن الإصابات العراقية أكبر من ذلك بكثير. وبحسب لجنة الأمم المتحدة لحقوق الطفل، وجد باحثون عراقيون على مستوى البلاد عام ١٩٩٩ أن «لذلك اليورانيوم، الذي يؤثر في خلايا الدم، وقعًا خطيرًا على الصحة: إزداد كثيرًا عدد الإصابات بسرطان الدم، كذلك ازدادت حالات تشوه الأجنّة»[2]. وناقشت نهى، أواسط تشرين الثاني/نوفمبر، التأثيرات الواسعة الانتشار لليورانيوم المنضب التي راقبتها بنفسها:

> يبدو أن الجميع يموتون بالسرطان. ويسمع المرء كل يوم عن آخر يعرفه أو عن صديق لصديق يموت. وهذا المرء لا يعرف كم من الآخرين يموتون في المستشفيات. أكثر من ٣٠ في المئة من العراقيين مصابون بالسرطان، ويوجد الكثيرون من الأطفال المصابين بسرطان الدم.

حتى أن الصراصير تأثرت على ما يبدو باليورانيوم المنضب. وقالت في ١٩ أيار/مايو ١٩٩٥ متأمّلة: «قتلت صرصارًا أحدب اليوم. وإذا كانت الصراصير أخذت

(١) The Military Uses of DU," BBC, January 9, 2001 <http://tinyurl.com/ofeme7>; Larry Johnson," "Iraqi Cancers, Birth Defects Blamed on US Depleted Uranium," Seattle Post-Intelligencer, November 12, 2002 <http://tinyurl.com/yhctbqz>.

(٢) Deborah Hastings, "Is an Armament Sickening US Soldiers?" Associated Press, August 12, 2006 <http://tinyurl.com/yqb6dn>; "Summary record of the 482nd meeting: Iraq" (CRC/C/SR.482), .UN Committee on the Rights of the Child, April 13, 1999 <http://tinyurl.com/r6nje7>.

تصبح مشوّهة، فما الذي يمكن أن يحصل لنا؟ أصبح ظهره مقوّسًا وبدا أشبه بقنطرة تمشي».

ضاعفت تأثيرات العقوبات الدولية على النظام الصحي العراقي، ازدياد المرض. وسبق للعراق أن امتلك واحدًا من أقوى أنظمة العناية الصحية المجانية العامة في الشرق الأوسط. ويقول الدكتور و. كريزل من منظمة الصحة العالمية: لم يمكن فعلًا قبل الاجتياح

> رؤية حالات إصابات بسوء التغذية، إذ أمكن للأسر الوصول في سهولة، وبأسعار مقبولة، إلى حمية غذائية يومية متوازنة. وكانت خدمات العناية الصحية مضمونة من خلال شبكة واسعة من المنشآت الصحية الحسنة التجهيز والإمداد وتمتلك مجموعات جيدة من العاملين. كذلك سهل، ومن دون جهد، وصول المرضى إلى مستويات أرفع من العناية المدعومة بشبكة واسعة من المستشفيات/المؤسسات الثانوية. وحصلت سيارات الاسعاف وخدمات الطوارئ على تطوير جيّد واستفادت من شبكة مَصونة جيّدًا من الطرق ووسائل الاتصال(١).

وبات قطاع الصحة، بحلول العام ١٩٩٥، في حال من الفوضى التامة. وسجّلت نهى في ١٧ شباط/فبراير ١٩٩٥:

> يعاود أطباء النساء استخدام القفازات المخصصة للاستخدام مرة واحدة، ويكتفون بغمسها في الديتول، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الحقن المخصصة للاستخدام مرة واحدة. والبنج المُستخدم جاء كهديّة من بلدان متنوعة، وهو من ماركات مختلفة، وما من أحد يعرف قوته أو الجرعات التي يجب إعطاؤها للمرضى – استغرقت إحدى النساء ١٥ ساعة للإفاقة من حقنة البنج بعدما أجريت لها جراحة قيصرية ـ أما خيوط الجراحة فمواد قديمة

(١) W. Kreisel, "Health Situation in Iraq," WHO Office of the European Union, February 26, 2001 .http://tinyurl.com/4p7gue>.

> العهد مصنوعة في باكستان يستغرق تحللها بين خمسة أشهر وثمانية، وتتسبب بالالتهابات والتعقيدات. ويُقال لكل من تجاوز الخمسين إن لا أدوية؛ يريد الاطباء الاحتفاظ بالقليل الذي لديهم للمرضى الأصغر سنًّا.

وصفت نهى، في ٣ حزيران/يونيو ١٩٩٥، كيف أن الجراحين لم يعودوا يستخدمون القفازات. «لا يوجد أي منها في البلاد، ويجب دفن الموتى على الفور لافتقار المستشفيات إلى البرادات العاملة». فقطع الغيار قليلة لأن الولايات المتحدة أحكمت بمساعدة من البحرية الأسترالية الحصار الشديد على البلاد فيما فرضت المملكة المتحدة منطقتي حظر الطيران، شمال العراق وجنوبه[١].

جاءت حصيلة العقوبات هائلة، وبخاصة على الأولاد. وكشفت دراسة أجرتها اليونيسيف بالاشتراك مع وزارة الصحة العراقية، عام ١٩٩٩، أن ٢١ في المئة من الأولاد العراقيين ممن هم دون الخامسة ناقصو الوزن، و٢٠ في المئة واهنون بسبب سوء التغذية المزمن، وتسعة في المئة هزيلون. ووجد مسح أجراه عام ٢٠٠٠ برنامج الغذاء العالمي أن ما لا يقل عن ٨٠٠ ألف طفل عراقي ممن هم دون الخامسة «مصابون بسوء التغذية المزمن»[٢]. واستمرت هذه النسب العالية على رغم برنامج الأمم المتحدة للنفط في مقابل الغذاء. وسمح هذا البرنامج، الذي شُرع العمل فيه عام ١٩٩٦، للعراق ببيع النفط في مقابل البضائع الإنسانية. ولكن، وبحسب دنيس ج. هاليداي، منسّق الشؤون الإنسانية التابعة للأمم المتحدة في العراق من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٨:

> من أصل المليارات العشرين من الدولارات التي تأمنت من خلال برنامج «النفط في مقابل الغذاء» أنفق نحو ثلثها، أو سبعة مليارات دولار، «كنفقات» للأمم المتحدة وتعويضات للكويت ومطالب متنوعة تتعلق بالتعويض. وترك ذلك مبلغ ١٣ مليار دولار متوافرة للحكومة العراقية.

---

(١) Royal Australian Navy in the Persian Gulf," Digger History <http://tinyurl.com/pvnet6>.

(٢) IV. Nutrition and Health," in "Assessment of the Food and Nutrition Situation in Iraq," FAO/WFP/WHO, 2000 <http://tinyurl.com/qebhry>.

> وإذا قسمت هذا الرقم على سكان العراق، وهم ٢٢ مليونًا، يعطى ١٩٠ دولارًا للشخص الواحد في السنة على مدى ثلاث سنوات – وهذا غير مناسب في شكل يدعو إلى الرثاء[١].

استقال هاليداي من دوره في الأمم المتحدة معلنًا أن العقوبات تساوي «الإبادة». كذلك استقال خلفه هانس فان سبونك احتجاجًا. ورأى فان سبونك أن الامدادات الإنسانية من خلال برنامج النفط في مقابل الغذاء لا تكفي لتلبية الحاجات الأساسية للعراقيين. وأخذ الناس يجوعون على رغم واقع أن الحكومة العراقية تعمل، كل شهر وفي نجاح، على توزيع ٩٠ في المئة من كل الغذاء والدواء وغيرها من المؤن الإنسانية[٢].

قدّرت اليونيسيف، ما بين ١٩٩١ و١٩٩٨، أن ما يصل إلى ٥٠٠ ألف عراقي ممن هم دون الخامسة ماتوا نتيجة التأثير المشترك للحرب والعقوبات ونظام العناية الصحية العراقي المفلس، فيما حدد علماء الأوبئة العراقيون حصيلة القتلى بـ١,٢ مليون إنسان[٣]. ولاحظ إدوار سعيد عام ٢٠٠٠:

> على مدى عقد كامل من الزمن، دمّرت حملة غير إنسانية من العقوبات – وهي الأكثر اكتمالًا في التاريخ المسجّل – العراق كدولة حديثة، وأهلكت شعبه، وخربت نظمه الزراعية والتربوية والصحية إضافة إلى بنيته التحتية كاملة. وهذا كله من فعل الولايات المتحدة والمملكة المتحدة اللتين أساءتا استخدام قرارات الأمم المتحدة ضد المدنيين الأبرياء[٤].

---

(١) كما نُقل عن هاليداي في "The Observer's Nick Cohen Responds on Iraq," Media Lens, March 15, 2002 <http://tinyurl.com/o76yh9>.

(٢) Hans von Sponeck (letter to editor), Guardian, January 3, 2001 <http://tinyurl.com/pkyltw>.

(٣) Thomas W. Smith, "The New Law of War: Legitimizing Hi-Tech and Infrastructural Violence," in International Studies Quarterly, Vol. 46, No. 3, September 2002, pp. 355–74; Matt Welch, "The Politics of Dead Children: Have Sanctions Against Iraq Murdered Millions?," Reason, March 2002 <http://tinyurl.com/cuwny4>.

(٤) سعيد كما ذُكر في Brinda Mehta, "Dissidence, Creativity, and Embargo Art in Nuha Al-Radi's Baghdad Diaries," Meridians, Vol. 6, No. 2, 2006, pp. 220–35 <http://tinyurl.com/ohfuzo>.

ولما أنحت ليسلي ستال، من برنامج «٦٠ دقيقة»، باللائمة على وزيرة الخارجية يومذاك مادلين أولبرايت، على سفك الدماء، تهرّبت الأخيرة، بلسان فالت، من أي مسؤولية. سألتها ستال: «تناهى إلى مسامعنا أن نصف مليون طفل ماتوا. أعني أن هذا عدد أكبر من أعداد الأطفال الذي قضوا في هيروشيما. فهل يستحق الأمر هذا الثمن؟» فردّت أولبرايت، «أعتقد أن هذا خيار صعب. ولكن بالنسبة إلى الثمن، أعتقد أن الأمر يستحق هذه الثمن»[١].

خوف وهرب

وأخيرًا رفع مجلس الأمن الدولي العقوبات في ٢٢ أيار/مايو ٢٠٠٣. وقال جورج دبليو بوش، قبل التصويت: «على الأمم المتحدة، الآن، وقد حُرّر العراق، أن ترفع العقوبات عن هذه الدولة». ووعد بوش، بعد رفع العقوبات وذهاب صدام حسين، بأن «حياة الشعب العراقي ستصبح أفضل مما عرفه على مدى أجيال كثيرة»[٢]. وأثبت الواقع أنه مختلف تمام الاختلاف.

أحمد نصف سني ونصف شيعي – «سوشي» بتعبيره الخاص. التقانا في شباط/ فبراير ٢٠٠٨ في فندقنا المكتظ في عمّان المترامية الأطراف ليخبرنا قصته. تحدّث أحمد من دون تردّد عن حياته في العراق، وكان يومذاك في الحادية والعشرين من عمره. وتكشّفت فصول قصته على كوب شاي أسود محلّى فيما شمس الشتاء تغيب على الأفق العمّاني ذي التلال المكللة بالثلج. قال: «وُلدت في الحرب – حرب الخليج الأولى. ونجونا في ١٩٩١ و١٩٩٨. وهكذا شكّلت الحرب بالنسبة إليّ أمرًا

(١) Ruhal Mahajan, "We Think the Price is Worth It," FAIR: Extra!, November/December 2001 .<http://tinyurl.com/dneux>.

(٢) Joel Brinkley, "Bush Urges End to Iraq Sanctions," New York Times, April 17, 2003 <http:// .tinyurl.com/prnxab>.

ويمرّ»[1]. «واعتقدنا (في ٢٠٠٣) أننا سنغيّر صدام، وهذا أمر عظيم. هذا هو الأمر ولا شيء غيره. اعتقدنا وحسب أن صاروخًا واحدًا سيصيب منزله ويموت. وتبين أن المسألة مختلفة تمامًا».

شنت الولايات المتحدة، في الساعات الأولى من ٢٠ آذار/مارس ٢٠٠٣، «عملية الحرية للعراق» من دون دعم من مجلس الأمن الدولي. وهو عمل انتُقد، في شدّة، بصفة كونه غير شرعي بموجب القانون الدولي[2]. ولاحظ رئيس الاحتياطي الفديرالي السابق، ألان غرينسبان، وهو واحد من قلّة من العارفين ببواطن الأمور في إدارة بوش ممن تحدّثوا لاحقًا، صراحةً، عن أهداف الحرب الحقيقية: «أنا حزين لأن من غير المناسب سياسيًّا الاعتراف بما يعرفه الجميع: وهو أن لحرب العراق علاقة كبرى بالنفط». واستعرض وزير الخزانة السابق بول أونيل في وقت لاحق تركيز الإدارة على رغبتها في نفط العراق. ففي ٣٠ كانون الثاني/يناير، وخلال الاجتماع الأول لمجلس الأمن القومي في عهد جورج و. بوش، يستذكر أونيل أن وزير الدفاع دونالد رامسفلد تحدّث طويلًا عن إطاحة نظام حسين وتولّي السيطرة على ثروة البلاد الكبرى من النفط – الاحتياط العالمي الثاني الأكبر بعد السعودية. وقال رامسفلد: «تخيّلوا كيف ستبدو عليه المنطقة من دون صدام ومع نظام يصطفّ مع مصالح الولايات المتحدة. من شأن هذا أن يغيّر كل شيء في المنطقة وفي ما هو أبعد منها. وهو ما سيبرهن ما هي عليه سياسة الولايات المتحدة». وفهرسَتْ وثائق أعدتها ذلك اليوم وكالة استخبارات الدفاع حقول النفط العراقية، ووضعت أيضًا قائمة بالشركات الأميركية التي تعتقد الوكالة أنها ستهتم باستغلال النفط العراقي[3].

(١) مقابلة مع أحمد أجراها مايكل أوترمان وتمارا فنجان في عمّان، الأردن، في الأول من شباط/فبراير ٢٠٠٨.

(٢) Jim Lobe, “Law Groups Say U.S. Invasion Illegal,” OneWorld.net, March 21, 2003 <http://tinyurl.com/65xcvc>.

(٣) Graham Paterson, “Greenspan: Oil the Prime Motive for Iraq War,” The Sunday Times, September 16, 2007 <http://tinyurl.com/3dnkw3>; O’Neill quoted in Dilip Hiro, “How the Bush Administration’s Iraqi Oil Grab Went Awry,” TomDispatch, September 25, 2007 <http://tinyurl.com/ol63km>.

وفيما دارت هذه النقاشات وراء أبواب مغلقة، تعلّقت الحجة المعلنة للحرب بتدمير أسلحة الدمار الشامل المزعومة وبإطاحة نظام الإبادة. وفي المرحلة التي سبقت الحرب وفي أعقابها الأولى أصدر جورج دبليو بوش وديك تشيني ودونالد رامسفلد ونائب وزير الدفاع بول وولفوفيتز ومستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس ووزير الخارجية كولن باول والسكريتيران الصحافيان أري فليشر وسكوت ماكليلان نحو ٩٣٥ بيانًا ثبت كذبها في ما لا يقل عن ٥٣٢ مناسبة في شأن التهديد الذي يشكله صدام حسين[١]. وشكلت مساعدة الشعب العراقي واحدة من الذرائع المعلنة، غير أن هذا الشعب سيصبح الضحية الأساسية للهجوم الذي قادته الولايات المتحدة.

لجأ أحمد وعائلته إلى دمشق خلال حملة القصف الأولى. وشرح: «والدي مصاب بالسكري ولم يسعنا بالتالي تركه في بغداد بسبب الصدمة. وهكذا غادرنا مع بداية الحرب. فاليوم الأول للحرب هو اليوم الأول على مغادرة بغداد». عاد أحمد وأفراد عائلته أواخر العام ٢٠٠٣ اعتقادًا منهم بمرور الأسوأ. ولكن في ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣، تاريخ اعتقال صدام حسين، أدرك أحمد أن تصدّعات عميقة تكونت في العراق على أسس طائفية:

> كنت، يوم أمسكوا صدام حسين، في منزل صديق لي آخذ دروسًا خصوصية. لما اعتقلوه شرع كل من يملك سلاحًا في إطلاق النار في الهواء. كانوا يعترضون. فمن في الأدهمية هم من أنصار صدام. شرعوا يسيرون في الشارع ويطلقون النار– أناس لا أعرفهم جاءوا إلى حيّي، أتوا

(١) Charles Lewis and Mark Reading-Smith, “False Pretenses,” The Center for Public Integrity, January 23, 2008 <http://tinyurl.com/56hnby>.
لمزيد من القراءة عن أكاذيب إدارة بوش في المدة التي سبقت الحرب، أنظر Norman Solomon, War Made Easy: How Presidents and Pundits Keep Spinning Us to Death, Wiley: New York, 2005; Michael Isikoff and David Corn, Hubris: The Inside Story of Spin, Scandal, and the Selling of the Iraq War, Three Rivers Press: New York, 2006; and Greg Mitchell, So Wrong for So Long: How the Press, the Pundits—and the President—Failed on Iraq,Union Square Press: New York, 2008..

من أماكن مجاورة. أناس غرباء يطلقون النار– أشبه بانتهاك للخصوصية.
فهل أريد فعلًا أن أعيش هنا؟

بحلول ٢٠٠٤ تغيّرت بلدته كليًّا. «سقطت الأدهمية كلها تحت سيطرة القاعدة. فلو أنك تملك متجرًا للبقالة، ووضعت معًا الطماطم والخيار فهذا حرام. لأن الخيار بالعربية مذكّر والطماطم مؤنث. والسَلَطَة إذًا محرّمة». كذلك حُرم الثلج. «فإذا كنت تملك معملًا لصنع الثلج فستُقتل. لأن الثلج لم يكن موجودًا في عصر النبي». وضحك أحمد، في عصبية، وقد اتضح أنه ارتبك من جراء ما أبلغه إلينا. وقال «أنا مسلم، ولكن ليس على هذا الشكل. غير أن الجميع يعتقدون أن المسلمين هم على ذلك الشكل وليسوا مثلي. ليست لدينا أي علاقة في كون المرء متطرفًا».

كاد أحمد، الذي يقيم الآن في الأردن ويلتحق بإحدى جامعاتها، أن يُخطف من أمام منزله في الأدهمية. وقال: «أنهيت دراستي الثانوية [في أيار/مايو ٢٠٠٤]، ثم توجهت إلى الأردن لتمضية عطلة الصيف. وفي الليلة التي عدت فيها إلى بغداد حاولوا اختطافي بعد أربع ساعات على وصولي». وتابع:

خرجت من منزلي لرؤية أصدقائي – حدث هذا في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤. وفي الشارع حيث أقيم، جاءت سيارة ليلًا – من دون أضواء طبعًا – وفي داخلها ثلاثة. كنت وصديقي واقفين، ووالده طبيب أيضًا. فسأل أحدهم: «هل تعرفون أين يقيم أبو أحمد؟»

استغرب أحمد السؤال. «ولحظة سأل عن منزل أبو أحمد، فتحوا الأبواب. كنت على أهبة الاستعداد بالفعل، فهربت إلى منزل جاري وأنا أقف بقربه». وتردّد أحمد لدى بلوغه البوابة. «المشكلة هي أن الكلاب أكثر ما يثير خوفي. ولديهم كلب هناك. وبدا الأمر لوهلة كأنه (ما هو الأسوأ؟) فقرعت الباب وفتحوا لي». كذلك نجا صديق أحمد بأعجوبة:

ركض الرجال خلف صديقي لأنه بقي واقفًا ثانيتين أكثر مني. دخلت فورًا إلى المنزل. بدا كأنه على بعد مترين منّي. هرب صديقي إلى

منزل آخر وبات محور الاهتمام. وما إن بلغ المنزل ودخله حتى ابتعد الرجال بسيارتهم. ثم خرج جميع أهل الشارع ببنادقهم الـ«آ.كا-٤٧» (الكلاشنيكوف) وواكبوني إلى منزلي.

نجا أحمد لكن بدنه اهتزّ. وقال: «شكّلت تلك نقطة تحوّل». وهرب بعد ذلك بأيام إلى الأردن. كان الخوف محسوسًا على الطريق إلى مطار بغداد. وقال مستذكرًا: «لم أتفوه بكلمة في سيارة الأجرة. جلّ ما أردته هو بلوغ المطار». وشكّلت طريق المطار هدفًا مباحًا للمتمردين – وسلاحهم المفضل هو العبوات الناسفة المزروعة على جوانب الطريق. لم يتوجه لا هو ولا السائق بكلمة أحدهما إلى الآخر، فيما السيارة تشق طريقها متلوّية بين عشرات حواجز التفتيش وما تبقى من سيارات وشاحنات متفحّمة. وفجأة سُمع دويّ انفجار قوي. واستذكر أحمد «أن تشققًا أصاب عادم السيارة، وبدا أشبه بالمدفع. كان صوتًا عظيمًا، ثم نظرنا أحدنا إلى الآخر، وشرعنا في الضحك».

شهود على الإنترنت

يستخدم العراقيون الشبان البارعون في استعمال التكنولوجيا مواقع الشبكات مثل «فيس بوك» و«ماي سبايس» للبقاء على اتصال مع الأصدقاء والأهل الذين تركوهم في العراق. وهم يقرأون أيضًا المدونات الإلكترونية العراقية Blogs. وتوفر هذه المدونات، التي نادرًا ما تسلط عليها وسائل الإعلام الغربية الضوء، منصة للعراقيين للحديث ومشاركة الحقائق الشخصية عن حياتهم وعن الأحداث المعقدة التي تكتب تاريخ بلادهم.

وكتب سلام باكس Salam Pax بعد فسحة فارغة في المدونات استمرت ستة أسابيع في ذروة اجتياح العام ٢٠٠٣: «دعوني، أوّلًا، أقول لكم أمرًا واحدًا»:

الحرب أمر سيئ جدًّا. لا تدعوا أحدًا يقنعكم بشن واحدة باسم حريتكم.

وعندما تبدأ القنابل، في شكل من الأشكال، بالسقوط عليكم أو تسمعون أصوات الرشاشات عند نهاية شارعكم، لن تفكّروا من ثم «بتحريركم الوشيك»[١].

سلام باكس Salam Pax – اسم مستعار يعني السلام بالعربية واللاتينية – هو أول كاتب مدونات إلكترونية عراقي، وأكثرهم شهرة. وتَمَكّن باكس من اللغة الإنكليزية وإدراكه الحسي الغربي (فهو علماني ومثلي الجنس معًا)، إضافة إلى عدم استعداده، عند إبداء رأيه، لتفادي انتقاد كل من صدام حسين والإدارة الأميركية، أكسبته ملايين القراء حول العالم. وكتب بيتر ماس في «سلايت» Slate عنه أنه «آن فرانك الحرب... وإلفيس الخاص بها» وقد عمل باكس مترجمًا لماس عام ٢٠٠٣[٢].

توسّع عالم المدونات الإلكترونية العراقية في شكل كبير من موقع واحد عام ٢٠٠٢، هو موقع سلام باكس ومقرّه في بغداد، إلى أكثر من ٢٠٠ مدونة فريدة من نوعها بالإنكليزية والعربية أو بكلتيهما. وتُناقش على الإنترنت في شكل دائم قضايا مهمة للعراقيين – تتمثل فيها وجهات النظر المعبّرة عن الطيف السياسي. وأثارت، على سبيل المثال، المفاوضات التي دارت أواخر العام ٢٠٠٨ على اتفاق وضع القوات الأميركي ـ العراقي، الذي يجيز استمرار وجود القوات الأميركية، نقاشًا حيًّا على الإنترنت. وحاجج محمد فاضل، وهو عراقي من المحافظين الجدد، في مدونة «العراق النموذج» بأن الاتفاق

سيؤشّر إلى بداية حقبة يصبح العراقي فيها رسميًّا شريكًا للولايات المتحدة، لأنه سيجمع العراق والولايات المتحدة في علاقة جديدة تخدم المصالح القومية لكلا البلدين. وسيشكّل فوق ذلك كله دفعة كبرى للجهد في الحرب على الإرهاب إذ إنه سيضمن أن العراق لن يسقط فريسة للمتطرفين، وأن يصبح سدًّا في وجه تطلعات المتطرفين وليس مركبًا

(١) Salam Pax, “A Post from Baghdad Station,” Where is Raed?, May 7, 2003 <http://tinyurl.com/pt8wek>.

(٢) Peter Maass, “Salam Pax is Real,” Slate, June 2, 2003 <http://tinyurl.com/p7cr5k>.

يتولى إيصالهم. وستضع هذه المعاهدة، في رأيي، الأسس لشرق أوسط جديد جاهز للتحول وللانضمام إلى العالم الحر[1].

واتخذ كاتب مدوّنة حاد في مناوئته الاحتلال، يُعرف بحمورابي، وجهة نظر مختلفة:

ليس الميثاق الأميركي إلا إذلالًا للعراقيين. وهو يتعارض مع مصالح الشعب العراقي وسيادته ويجب على أي شخص ألّا يضع نفسه في موضع التوقيع عليه. ومثل هذا الميثاق مع الأميركيين الذين دمّروا العراق منذ العام ١٩٩١ وقتلوا، في حربين و١٢ عامًا من العقوبات البربرية أعقبها الاحتلال، الملايين من أبنائه، ما هو في الواقع إلا عدوانًا ليس على العراق وحسب بل أيضًا على الإسلام وباقي المسلمين[2].

تعكس مقالات المدونين العراقيين – الانفعالية، المُداوِرة، الكئيبة، المضحكة، والمأساوية – الأصوات التي لا تُعد ولا تحصى في العراق. وتشتمل مدوناتهم، إذا أُخذت معًا، فسيفساء بلد أصبح أولًا على شفير الحرب، ثم تعرّض للهجوم، وأصبح في النهاية دمارًا.

وكتب المُوثّقان ستيف كونورز ومولي بينغهام، من خلال تفاعلهما مع الروايات العراقية على الإنترنت، أن الغربيين يستطيعون أن «يلقوا نظرة خاطفة على مصدر المرارة التي يتجرّعها العراقيون»[3]. وتشكّل كتابات سلام باكس نقطة انطلاق عظيمة.

(١) Mohammed Fadil, "Obama's Meddling Undermines Future US-Iraq Relationship," Iraq the Model, October 15, 2008 <http://tinyurl.com/qb8676>.

(٢) Hammorabi, "The Iraqis Protesting Against the US Indefinite Occupation of Iraq," Hammorabi, October 18, 2008 <http://tinyurl.com/pd2lnc>.

(٣) كونورز وبينغهام كما استُشهد بهما في Fiaza al-Araji, Raed Jarrar, and Khalid Jarrar, The Iraq War Blog: An Iraqi Family's Inside View of the First Year of the Occupation, Second Chance Publishing: Nashville, Tennessee, 2008, p. iv.

أطلق سلام مدوّنته الأولى في الأشهر التي سبقت الحرب. ففي تموز/يوليو ٢٠٠٢، أنشأ باكس، وكان يومذاك مهندسًا في التاسعة والعشرين، مدوّنة تشكّل وسيلة للبقاء على اتصال مع صديقه العزيز رائد جرّار الذي تابع في ذلك الوقت دراسته في الأردن. وعلى ما شرحه باكس لاحقًا للغارديان:

> أصدقكم القول إن اطلاع العالم على ما يحدث لم يحتل في الحقيقة مكانة مرموقة في أسبابي الرئيسة الخمسة للشروع في مدونة إلكترونية. بل تعلّق الأمر أكثر ما يكون بتبادل الأخبار مع رائد... فهو كاتب رسائل إلكترونية سيّئ؛ فأنت لا تتوقع وحسب أي رد منه. سيجيب في المرة التالية التي تراه فيها. وهكذا عوضًا عن كتابة الرسائل الإلكترونية ومن ثم الاضطرار إلى التنقيب عنها لاحقًا، سيصبح كل شيء موجودًا هناك في المدوّنة. وهكذا بدأت مدونة «أين رائد؟». وكان عنوانها الإلكتروني هو where_is_raed.blogspot.com مجرّد مدونة سخيفة خاصة بي وبرائد. ولم أشعر قط قلقًا في اكتشاف من يراقبون شبكة الإنترنت تلك، فالأمر لم يعدُ كونه مسائل سخيفة[1].

ما بدأ تواصلًا «سخيفًا» بين صديقين في شأن الأفلام والجنس، ازدهر ليشكّل يوميات على الإنترنت ترتبط بخطر الحرب الجاثم. وعكست مدونة بتاريخ ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢ شعور باكس المتزايد بالخطر. بدأ مدونته باقتباس من أحد مقالات النيويورك تايمز عن المخططات الأميركية لعراق ما بعد صدام. وكتب ديفيد إي. سانغر وإريك شميت أن «البيت الأبيض يطّور مخططًا مفصلًا لإحلال حكومة عسكرية تقودها الولايات المتحدة في العراق في حال إطاحة صدام حسين»[2]. وردّ باكس:

(١) Salam Pax, "'I became the profane pervert Arab blogger,'" Guardian, September 9, 2003 <http://tinyurl.com/oyhql7>.

(٢) David E. Sanger and Eric Schmitt, "US Has a Plan to Occupy Iraq, Officials Report," New York Times, October 11, 2002 <http://tinyurl.com/ov6l86>.

عذرًا، ولكن لا تتوقعوا مني أن أشتري علمًا أميركيًّا صغيرًا ألوّح به مرحبًا بالمستعمرين الجدد. فهذه استعادة سيئة حتى لأكثر الأفلام سوءًا. وكيف يختلف الأمر عن العراق وبريطانيا، عام ١٩٢٠. يأتي العالم المتحضّر ليعطينا، نحن العرب البدويين البرابرة، أمثولة في العيش الأفضل ويخلّصنا من كل شر (الأفضل له أن يتخلّص منّا جميعًا نحن العرب بما أننا أشرار).

نعم، هيّا والقوا في المجاري وحسب بكل جهود الناس الذين كانوا صادقين في قتالهم من أجل عراق مستقل. قاتل الناس وتظاهروا وماتوا ليتمكن أبناء جيلي من رؤية كل أحلامهم وقد انقلبت رأسًا على عقب مرتين: تعرفون في المرة الأولى على يد من [صدام]، وفي المرة الثانية عن طريق تحويلنا مستعمرة من جديد. يا إلهي، كم أشعر الأسف على كل من امتلك يومًا مثالًا أعلى وحارب من أجله. أشعر الأسى على كل ثائر عراقي وضع كتابًا أو قصيدة وأُعدم لهذا السبب. لو علموا وحسب أن هذا سيحدث، وأن كل شيء سينتهي إلى أن نصبح مستعمرة أخرى لما تكبدوا المشقة. وكان من الأفضل لو صرفوا الوقت على الجنس والمخدرات والراقصات الشرقيات. سيأتي السيّد سام ويخبركم كيف تديرون بلادكم كما يجب وكيف تنفقون أموالكم على أسلحة من عنده. فلا تذهب، يا حبيبي، وتشترِ تكنولوجيا صينية لا فائدة منها[1].

لم تمر تأملات باكس مرور الكرام، فبحلول أواخر العام ٢٠٠٢ كانت مدونات أخرى وضعت روابط مع صفحة باكس. وأدت إشارة بارزة إلى موقعه من غلين رينولدز في مدونته «إينستابونديت» Instapundit إلى فورة في عدد الزيارات للموقع. واستذكر باكس:

شاهدت عدّاد موقعي يقفز من الزيارات العشرين المعتادة في اليوم إلى ثلاثة آلاف، وكلها تأتي من «إينستابونديت» – وندعو ذلك انهيارًا فوريًّا (تيمنًا بالانهيار

(١) Salam Pax, Where is Raed?, 12 October 2002 <http://tinyurl.com/cmozob>.

الثلجي). وإذا كنت أتذكر جيِّدًا فقد تعلّق الأمر بمدونة كتبتها في ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر سميت فيها الخطة الأميركية لغزو العراق مجرّد مؤامرة استعمارية. فقد أطلقت العنان وحسب للجعجعة في الكلام، وكتبت على مدى نصف ساعة وفوجئت بأن العالم أخذ علمًا بذلك(١).

تلقى باكس حيّزًا واسعًا من ردود الفعل. صفّق بعض القراء لوجهات نظره التي لا تتزعزع، فيما ثار حنق آخرين. وكتب آل بارجر، كاتب المدونة من كنتاكي، رسالة مفتوحة إلى باكس في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢ تجسّد خصائص الكثير من الانتقاد الذي أثير في حقه في ذلك الوقت:

> أقدّر أنك لا تتطلّع قدمًا إلى عمل عسكري في بلدك. غير أن ذلك ضروري ويا للأسف. فأنت تعرف أفضل مني نوع القاتل الجماعي ابن الحرام الذي يحكم بلدك.
>
> مشكلتك هي صدّام لا الولايات المتحدة... فأنت وأبناء بلدك كنتم إما غير راغبين وإما غير قادرين على التخلص منه، وهو كان ولا يزال يشكل تهديدًا لباقي العالم. وعلينا بالتالي أن نعالجه بالضربة القاضية(٢).

رفض الكثيرون من القراء التصديق أن باكس عراقي، فيما اعتقد آخرون أنه يعمل للسي.آي.إي. أو حتى لمخابرات صدام - الشرطة السرّية التي تثير الرعب. وعلّق أحد المستخدمين، في فجاجة، على موقع باكس: «ليس عليك الآن إلا أن تقفل فمك اللعين وتتعلم أن تقدّرنا بعض الشيء!!!» وردّ باكس في برودة:

> حسنًا، فلنأخذ جميعنا خمس دقائق من الصمت للقيام ببعض التقويم.
>
> أنا أقدر إسقاط أطنان من القنابل على بلدي.
>
> وأقدر اليورانيوم المنضب المستخدم في هذه القنابل.

(١) Pax, "'I became the profane pervert Arab blogger.

(٢) Al Barger, "An Open Letter to an Iraqi Citizen," Culpepper Log, November 13, 2002 <http://tinyurl.com/pw4bow>.

أقدر سياسة الاحتواء المزدوج التي أبقت على المنطقة في حال غليان دائم لأن ذلك مناسب للولايات المتحدة.

أقدر الدعم الذي تظهره الحكومة الأميركية لكل الحكومات القمعية في المنطقة لتعود وترميها بعد انتفاء الحاجة إليها.

أقدر دور الولايات المتحدة في لجنة العقوبات.

أقدر دورها في جعلي أفتش عن القفازات الجراحية والبنج في السوق السوداء لكي يتم اقتلاع ضرسي، لأن لجنة العقوبات تضع فيتو دائمًا على هذه اللوازم.

أقدر سياسات بلد صرف الكثير من الوقت في تعزيز عقوبات على الشعب العراقي فيما لا مفاعيل لها على صدام وقاعدة سلطته، وتحوّلنا رهائن في المأزق السياسي القائم بين الحكومتين العراقية والأميركية.

أقدر الدور الذي أدته هذه العقوبات في تحويل بلد غني بالخيرات، بلدًا على هذا المقدار من الفقر.

أقدر رؤيتي أساتذتي يبيعون مكتباتهم الشخصية بكاملها من أجل البقاء، ورؤية كتبهم وقد اشتراها موظفو الأمم المتحدة لأخذها إلى بيوتهم تذكارات.

لدي الكثير من التقدير الذي يغمرني حتى أذنَيّ[1].

ذُكرت مدوّنة باكس، أوائل كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢، في موضوع لرويترز تناقلته الصحف في مختلف أنحاء العالم. واستذكر باكس قائلًا: «أصبت بالدهشة التامة»، إذ أدرك أن شعبية المدونة قد تؤدي إلى استهداف الاستخبارات له. واستشاط شقيق باكس غضبًا. وقال سلام: «اعتَقَدَ أنني مجنون لتعريضي العائلة للخطر، وهذا صحيح». وعمد سلام، في نوبة من جنون الاضطهاد، إلى حذف مدونة «أين رائد» الأصلية، لكنه أطلق بعد ذلك بأسابيع نسخة جديدة أكسبته لقب «مُدوّن بغداد»، وكتابًا من الأفضل مبيعًا، وحتى عقدًا سينمائيًا. وقال مستذكرًا: «شعرت

(١) Salam Pax, Where is Raed?, December 5, 2002 <http://tinyurl.com/pkbudt>.

وحسب أن من المهم، بين كل المدونات الإلكترونية عن العراق والحرب، وجود مدونة عراقية واحدة على الأقل، صوت وحيد: يوجد على الأقل من يتحدّث بغض النظر عن طريقة نظرتك إلى سياستي»[1].

وشكّل ردّ باكس في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢ على تقرير لنيويورك تايمز عن اختيار الولايات المتحدة حكومةً تنتظر في المنفى مثالًا على نمط تفكيره في ذلك الوقت. فقد كتب كريغ س. سميث في التايمز، «نقلًا عن أعضاء في المعارضة، أن واشنطن تريد من المعارضة أن تزيد من صدقيتها من دون أن تصبح كثيرة الاستقلال فتسيطر الولايات المتحدة على مستقبل العراق السياسي وتحظى مع ذلك بشريك عراقي جاهز للاستخدام إذا دعت الضرورة إليه بعد الاجتياح». ورد باكس: «الطريقة الوقحة التي يعتمدها الجميع في هذا الشأن مثيرة جدًّا للضحك يا رجل. حاولوا على الأقل أن تعتمدوا التحفّظ. لا حاجة إلى هذا، أليس كذلك؟ إذ ليس هناك سوى زمرة من العرب الأغبياء ولن يلاحظوا الخيوط التي تحرّك هذه الدمى»[2].

تعرّض سلام، بحلول كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣، لسيل من الأسئلة في شأن الاجتياح الوشيك. وسأله أحد القراء هل يهرب من بغداد. فأجابه باكس: «أنا، عند هذا الحد من حياتي، أهتم لعائلتي وأصدقائي أكثر من أن أقفز على متن أول وسيلة سفر وأشاهد الأمر على السي.أن.أن..»[3]. واستمر في إصدار برقياته من بغداد في وقت كانت الحرب اندلعت. أعادت الغارديان طبع معظم مشاركاته وأطلعت قراءها على ملاحظات المدوّن العراقي الوحيد الذي يغطي النزاع بالإنكليزية من داخل بغداد. ولكن في وقت كافح باكس لتحديث موقعه وسط النقص في المحروقات وغياب الطاقة الكهربائية وسقوط القنابل الطائشة، أخذت عراقية أخرى تكتب في

(١) Salam Pax, "'I became the profane pervert Arab blogger'

(٢) Craig S Smith, "Groups Outline Plans for Governing a Post-Hussein Iraq," New York Times, December 18, 2002 <http://tinyurl.com/qmvbas>; Salam Pax, Where is Raed?, December 22, 2002 <http://tinyurl.com/pv2nb4>.

(٣) Salam Pax, Where is Raed?, January 14, 2003 <http://tinyurl.com/qces4c>.

شراسة من خارج الإنترنت. احتفظت فايزة العراجي، والدة رائد جرار- صديق باكس الذي كرّس له المدوّنة - بيوميات مكتوبة عن الهجوم. وفايزة، المهندسة المدنية والمديرة التنفيذية لإحدى شركات معالجة المياه، شيعية متدينة متزوجة من سنّي. ترجم رائد يومياتها عن الحرب عام ٢٠٠٤ ونشرها على الإنترنت. وتستذكر فايزة: «بدأت بكتابة يوميات الحرب على دفتر، ثم سألت رائد: أين يجب أن أنشرها؟ فقال: سأنشئ لك مدوّنة إلكترونية»[١].

وتكمل يوميات فايزة العراجي عن الحرب برقيات سلام باكس اليومية. وتكشف تسجيلات فايزة وسلام، على غرار يوميات نهى الراضي عن حرب العام ١٩٩١، كيف كانت حياة المواطنين العراقيين في الجانب المتلقّي للعدوان الأميركي[٢]. وفي ما يلي خمسة أيام من الحرب - اختيرت بين مئات المشاركات المسجلة - كما شاهدتها أعين فايزة وسلام:

الخميس، ٢٠ آذار/مارس ٢٠٠٣

فايزة: سمعنا صفارات الإنذار، وبدأت أولى الهجمات... بعد صلاة الفجر. هرعت راكضة إلى الطبقة السفلى، وقد استيقظ الجميع. هيأت الفطور واستمتعنا بتناوله معًا. ناقشنا بعض المواضيع المختلفة وضحكنا. وعائلتنا محظوظة لامتلاكها صحنًا لاقطًا للأقمار الصناعية نخفيه. شاهدنا بعض قنوات الأخبار. الجميع في العالم يشاهدوننا. القصف بعيد جدًّا، ولم يبدُ أنه خطر، قد يصبح أكثر خطرًا في الأيام التالية. تقول الأخبار إنها ليست سوى البداية، وإن الهجوم التالي سيكون هائلًا.

---

(١) فايزة العراجي (في مقابلة مع مريم روبرتس) "An Iraqi Woman's Perspective," Global Exchange," April 1, 2006 <http://tinyurl.com/p63dwh>.

(٢) اختُصرت المقتطفات التالية بسبب ضيق المساحة، ولكن، وعلى غرار ما حدث مع مدونين وكاتبي يوميات آخرين، لم يتم تصحيح أخطاء القواعد والإملاء. وهي مأخوذة من Faiza al-Araji's A Family in Baghdad War Diary, available at <http://iraqwardiary.blogspot.com/>, and Salam Pax's Where is Raed?, available at <http://dear_raed.blogspot.com>.

استمر قصف المساء أكثر من ساعة، وأمكنني أن أسمع في وضوح صوت الصواريخ وهي تسقط، والمدافع المضادة للطائرات تطلق النار من دون توقف... آلمتني معدتي وشعرت الاكتئاب... كم من الأيام سنبقى على هذه الحال؟ أشبه بالسجناء... من دون حياة أو عمل أو إنتاج... إنها لطريقة سخيفة في حل المشكلات... هذه الحروب... فمتى ينتهي هذا الفيلم الغبي وتعود الحياة الطبيعية من جديد؟

سلام: انطلقت للتو صفارة الإنذار الشديدة الوضوح. يصدر القصف ويتوقف، ما من شيء ثقيل جدًّا، ولا يمكن مقارنته بعد بما حدث عام ١٩٩١. لا تزال كل محطات الإذاعة والتلفزيون تعمل. اكتفى التلفزيون العراقي لدى بدء الغارة الجوية ببث الأناشيد الوطنية ولم يزعج نفسه حتى في إبلاغ المشاهدين أنهم عرضة للهجوم. وهم، في هذه اللحظة، يعيدون بث مقابلة أمس مع وزير الداخلية.

لا يزال صوت المدفعية المضادة للطيران أقوى من الفرقعة والانفجارات مما يعني أنها لا تزال بعيدة من حيث نقيم، غير أن الصور التي شاهدناها على محطة العربية الإخبارية أظهرت مبنى يحترق على مقربة من منزل إحدى عماتي. فندق باكس Pax Hotel كان فكرة جيدة، فلدينا غرفتان آمنتان، إحداهما مزودة «وسائل الإعلام الدولية» والأخرى التلفزيون العراقي. الجميع ينتظرون، ينتظرون، وينتظرون. لا تزال خطوط الهاتف تعمل، وقد اتصلنا بأنحاء عدة في المدينة للاطمئنان إلى الأصدقاء. فما يحتاجون إليه هو الأخبار، والتلفزيون العراقي لا يقول شيئًا ولا يظهر شيئًا. فما نفع الأناشيد الوطنية عندما تسقط القنابل.

السبت، ٢٢ آذار/مارس ٢٠٠٣

فايزة: ليلة البارحة كارثة، والانفجارات الضخمة هزّت المنازل وحطمت النوافذ... هجمات بالصواريخ... الآن... يمكننا مشاهدة وجه الحرب البشع. مررنا بلحظات مرعبة حقًّا؛ غطيت وجهي بيدي وتلوت بعض آيات القرآن، ارتعبت حتى الموت!

الغرفة تهتزّ، والستائر تتطاير في الهواء، ولا تفصل سوى ثوانٍ قليلة بين الصاروخ

والآخر... تناولت قرصًا منوّمًا، وشعرت بنعاسٍ شديد... ولما ابتعد القصف بعض الشيء عن منطقتنا مضى عزّام لتحضير العشاء، إلا أنني رفضت مغادرة الغرفة.

تنام العائلة كلها في غرفة واحدة، في الجزء الأبعد من منزلنا؛ بعيدًا من الشارع... نسميها الغرفة الآمنة. ويمتلك معظم العائلات الأخرى غرفًا آمنة أيضًا... وهم ينامون معًا فيها. تناولنا عشاءنا في الغرفة نفسها، ورقدت على الأرض من دون أن أغسل يدي حتى...

سلام: اليوم هو الثالث من أيام الحرب، تعرضنا لعدد كبير من الهجمات خلال النهار. بعضها من دون أن تُطلق صفارات الإنذار. وهم ربما يئسوا من التمكن من الوصول على الوقت لإطلاق الإنذار. ففي الليلة الفائتة، وبعد الموجات تلو الموجات من الهجوم، أطلقوا صفارة انتهاء الغارات ليعودوا ويطلقوها إنذارًا بعد ذلك بثلاثين دقيقة.

المشاهد التي رأيناها على التلفزيون الليلة الماضية (ليس التلفزيون العراقي بل الجزيرة والبي.بي.سي. والعربية) رهيبة. بدت المدينة كلها كما لو انها تشتعل بالنيران. والأمر الوحيد الذي أمكنني التفكير فيه هو «لماذا علي هذا أن يحدث في بغداد». أوشكت البكاء فيما انهار أحد المباني التي أحبها حقًّا في انفجار هائل.

خرج والدي وشقيقي اليوم ليطّلعا على ما يحدث في المدينة، وقالا إن الإصابات دقيقة جدًّا على ما يبدو، ولكن عندما تنفجر الصواريخ والقنابل تنشر الدمار في الحي الذي تسقط فيه. تحطّمت كل نوافذ المنازل القريبة من قصر السلام (حيث أخذ الوزير الصحاف الصحافيين) وطارت الأبواب وهوى السقف في إحدى الحالات. أعتقد أن هذا ما يسمونه «الأضرار الجانبية»، فلا بأس بالأمر إذًا؟

الأحد، ٣٠ آذار/مارس ٢٠٠٣

فايزة: هجمات ليلية قوية جدًّا... أخذ منزلنا في الاهتزاز طوال الليل، ولا أعرف ما الذي كانوا يقصفونه. وفي الصباح الباكر تحطّم زجاج غرفة نومنا الرئيسة. ومن حسن الحظ أن ما من أحد ينام فيها الآن.

شعرت بقلبي يعتصر ألمًا، وشحب وجهي. ذهبت مع عزّام لتنظيف قطع الزجاج وجمعها... ووضعنا ستارًا من الخشب بدلًا من الزجاج المكسور. الوضع في غرفة نومنا محزن جدًا، فقد هجرناها في البداية وها هي الآن وقد تحطمت نوافذها.

سلام: ما من خبر جيّد في أي مكان، وما من نور في آخر النفق ولا يبدو التقدّم الأميركي مطمْئنًا جدًّا. ولو امتلكنا في منزلنا ميزانًا للمزاج لجاء فيه «فليمضِ صدام إلى الجحيم وليتبعه بوش سريعًا». ما من أحد يشعر أن عليه الترحيب بالجيش الأميركي. فالحكومة الأميركية تتلقى القدر نفسه من اللعنات التي تنزل بالحكومة العراقية.

الإثنين، ٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٣

فايزة: هجوم صباحي آخر، في السابعة... أصوات القصف ونيران الرشاشات والطائرات الحربية. الغبار الكثيف يلف المدينة؛ تساءلت كيف ستكون الأمور في منزلنا ونحن لم نحكم إغلاق النوافذ.

سمعنا بعد الظهر عن هجوم بالصواريخ التي تزن أطنانًا عدة على منازل كثيرة وراء مطعم الساعة. إعتقدوا أن صدام يعقد اجتماعًا لأركانه هناك؛ وربما هي هنا ضربة كارثية أخرى مثل الغارة على ملجأ العامرية حيث سقط الكثير من الإصابات المدنية... ولكن يصعب علينا معرفة ما يحدث لأننا لا نغادر المنزل. فالجميع يختبئون في منازلهم...

سلام: لم أخرج من المنزل طوال الأيام الثلاثة الماضية. وها قد أصبحنا الآن ١٥ شخصًا في «فندق باكس» على رغم أن المكان هنا ليس آمنا ويتوقع الجميع أن تنتقل الخطوة التالية إلى الأجزاء الغربية/الجنوبية ـ الغربية من بغداد ويخبروننا أننا سنصبح خط الجبهة. ويمكنني أن آمل، فحسب، في ألا يُواجه الأميركيون مقاومة شديدة، عندما يحين وقت الحسم، وإلا انتهى بنا الأمر بين نارين.

الثلاثاء، ٢٣ نيسان/أبريل ٢٠٠٣

فايزة: وصل التيار الكهربائي أمس ثم انقطع. وربما استغرق تصليحه وقتًا طويلًا

لتعود الشبكة إلى العمل. يحتاج المنزل إلى الكثير من التنظيف، السجاد والستائر والفراش... أحتاج إلى بعض المساعدة.

ذهبت لشراء الحاجات المنزلية... منظر بغداد يصيب بالاكتئاب الشديد؛ آلمني وحطّم قلبي...

سلام: من سخرية الأمور غياب أي صوت عراقي واحد خلال الأسابيع الأربعة الماضية في المهرجان الإعلامي الكبير هذا الذي يسمى «حرب العراق».

محادثة تناهت إلى أسماع ج. وهو في فندق الميريديان – مركز الإعلام العراقي:

الصحافية الرقم ١: آه يا عزيزتي، كيف حالك؟ لم أرك منذ زمن بعيد.

الصحافية الرقم ٢: أعتقد أن المرة الأخيرة كانت في كابول.

ثرثرة

ثرثرة

الصحافية الرقم ١: علي أن أسرع الآن، أراك إذًا في بيونغ يانغ، آه؟

الصحافية الرقم ٢: بالتأكيد.

سُحب العراق من العناوين الرئيسة. وبدأ البحث عن النزاع التالي.

ربما تبين أنه سورية فلا تضطر شبكات الأخبار إلى دفع الكثير من تكاليف السفر.

على رغم أن سلام اكتسب شهرة من سرده الآسر لحرب ٢٠٠٣، فأخلى بروزه في المجال لكادر متزايد من المدوّنين العراقيين. كان أواخر العام ٢٠٠٢ المدوّن العراقي الوحيد، ولكن أصبح هناك، بحلول أواخر العام ٢٠٠٣، ما لا يقل عن ٢٢ غيره يكتبون بالإنكليزية أو بالعربية أو بكلتيهما. وقفز العدد عام ٢٠٠٤ إلى ما لا يقل عن ٦٦ مدوّنًا عراقيًّا، أصبحوا ١١٢ أواخر العام ٢٠٠٥، ليقارب عددهم أواخر العام

٢٠٠٦ المئتين – فيما الأرقام لا تزال تتأرجح اليوم(١). يستمر باكس في التدوين في موقع أطلق عليه اسمًا جديدًا، غير أن مادته السابقة على «أين رائد؟» تبقى شهادة دائمة على مذبحة الحرب المبكرة.

وتستمر فايزة العراجي في المشاركة، في انتظام، في مدوّنة «عائلة في بغداد» A Family in Baghdad الموقع الذي أنشأه ابنها رائد في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣. واحتفظ أبناؤها الثلاثة جميعهم – رائد وخالد وماجد – بمدونات تؤرخ الحياة بعد الاجتياح. هربت فايزة من العراق أوائل العام ٢٠٠٦ لكنها عادت في تشرين الثاني/نوفمبر على أثر توقيف وزارة الداخلية العراقية خالد. واستعادت، بعودتها إلى العاصمة، ذكرى الحياة التي عاشتها سابقًا ومختلف الأمور التي فقدتها. ونشرت في ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦ هذه الملاحظات عن حيّها القديم ومنزلها:

نظرت إلى البيت كلّه نظرة أسف شاملة. تذكرت الحرب، والفوضى والسلب والنهب والاغتيالات، وهجرة أخي الطبيب صاحب البيت وخوفه على نفسه وعائلته، ورحيلي من بيتنا السابق إلى هنا لأنه كان في منطقة قريبة من شارع المطار، قلب المعركة ضد الاحتلال، حيث تقع التفجيرات كل يوم ويتحطم زجاج الشبابيك.

ثم تذكرت قصة خطف ابني خالد من الكلية واعتقاله ووضعه في وزارة الداخلية ١٢ يومًا بتهمة الإرهاب، لا لشيء سوى أن له لحية! وكيف مرت على العائلة تلك الأيام العصيبة، ثم أطلقوه لأنه بريء، ولأننا دفعنا عنه فدية، وقررنا أن نغادر العراق كما فعلت ذلك آلاف العوائل من قبلنا ومن بعدنا...

وتذكرت كيف تفرقت العائلة. خالد يدرس في جامعة خارج عمان أراه مرة في الأسبوع، وماجد يدرس في القاهرة، ورائد يعيش في أميركا ليعمل من أجل العراق، وأنا اعمل مع منظمات مختلفة لمساعدة المنكوبين والمهجرين من أهل العراق.

(١) Hassan, "Iraqi Bloggers: From Pax to Sanyora," An Average Iraqi, October 31, 2005 <http://tinyurl.com/pc53mt>.

بدأت أجهش بالبكاء. وجاء قريبي يواسيني؛ هل تبكين على الأثاث؟ وعلى الغبار؟ غدًا ستأتي امرأة تنظف البيت...

قلت له من خلال دموعي: لا، لست أبكي على الأثاث، فليذهب إلى الجحيم، إنما أبكي بلدي الذي تحطم، وعائلتي التي تشتت، والعراقيين الذين قتلوا، والدماء التي سفكت، والخراب الذي انتشر. جميع العراقيين مثلي، أصابهم ما أصابني(١).

الإحساس بالخسارة والغضب الذي يسري في عمل فايزة شائع في عالم المدونات العراقية. وكتبت «ريفربند»، وهي صاحبة مدوّنة عراقية شهيرة أخرى، في انفعال، عن الحياة اليومية والموت في بغداد. وكتبت وحسب في مشاركتها الرسمية الأولى في ١٧ آب/أغسطس ٢٠٠٣: «أنا أنثى عراقية في الرابعة والعشرين. نجوت من الحرب. هذا كل ما تحتاجون إلى معرفته. وهذا، على أي حال، كل ما يهم هذه الأيام»(٢). أنشأت ريفربند مدونتها الخاصة، «بغداد تحترق» Baghdad Burning بناء على نصيحة من سلام باكس الذي نشر في وقت سابق من السنة رسالتين إلكترونيتين بعثت بهما إليه. وشرحتْ لاحقًا:

> أحببت فكرة المدوّنة لأنني شعرت خيبة كبرى من الإعلام الغربي الذي لم ينطق إلا بنصف القصة في العراق. بدا أن ما من أحد يعرف ما يحدث داخل البلاد – كل الأضرار والأهوال التي يواجهها العراقيون يوميًّا. أضف إلى ذلك أن كتابة المدونة أثبتت أنها عملية شافية. فهي وسيلة للتنفيث عن الغضب والمخاوف التي لا يمكنني بالفعل التعبير عنها أمام العائلة والأصدقاء لأن من الضروري المحافظة دومًا على القوة والاحتفاظ، إلى حد ما، بالإيجابية(٣).

ودوّنت ريفربند، في انتظام، إلى أن غادرت العراق إلى سورية أواسط العام

(١) Faiza al-Araji, A Family in Baghdad, November 16, 2006 <http://tinyurl.com/pkt84a>.

(٢) Riverbend, "The Beginning," Baghdad Burning, August 17, 2003 <http://tinyurl.com/lmkb>.

(٣) مقابلة لريفربند مع لاكشامي شاودري Riverbend (interviewed by Lakshmi Chaudhry), "The Girl Blogger From Iraq," Alternet, April 20, 2005 <http://tinyurl.com/opae2l>.

٢٠٠٧. وأعطت، على مر السنين، وصفًا لبلد نزع الاحتلال أحشاءه وما ولّده من حرب أهلية سنية ـ شيعية. وتجمعت ريفربند وعائلتها، على غرار فايزة وسلام، في «غرفة آمنة» – غرفة صغيرة ملأى بالمساند والوسادات. وفي اليوم الأول من الاجتياح كتبت:

> إبيضّت الوجوه من التوتّر في الغرفة الآمنة. جلست زوجة نسيبي في الزاوية وابنتاها إلى جانبيها، وقد أحاطت كتفيهما بذراعيها وهي تتمتم الصلوات في هدوء. وأخذ ابن عمي يذرع المكان جيئة وذهابًا، أمام باب الغرفة الآمنة، وقد بدا عليه التجهم، فيما والدي يحاول العثور على محطة محترمة على جهاز الراديو الذي يعمل على الموجتين المتوسطة والأف. أم. ويحمله معه أينما ذهب. أخذت عمتي عند هذا الحد في اللهاث في شدة فجلست والدتي بقربها محاولة صرف انتباهها فيما صوت المذيع على الراديو يتحدث عن القنابل التي تمطر على بغداد.
>
> هدأ القصف بعض الشيء بعدما بدا أنها أربعون دقيقة لا تنتهي – يظهر أنه انتقل إلى مكان أبعد. استغللت الهدوء النسبي ومضيت أبحث عن الهاتف. كان المنزل باردًا لأننا أبقينا النوافذ مفتوحة لحمايتها من التحطم. أمسكت بالهاتف وأنا أتوقع ألا يعمل وفوجئت بوجود خط. شرعت في طلب الأرقام، أرقام أصدقاء وأقرباء. إتصلنا بعمة لنا وعم في أنحاء أخرى من بغداد، وكانت الأصوات على الطرف الآخر من الخط مرتعشة وحذرة. «أأنت في خير؟ هل الجميع في خير؟» هذا كل ما أمكنني سؤاله على الهاتف. إنهم في خير... لكن القصف شديد على كل أنحاء بغداد. لقد بدأت الصدمة والترويع(١).

صنّف بعض القراء في الولايات المتحدة ريفربند بأنها «معادية لأميركا» بسبب وجهات نظرها الصريحة. فكتبت في آب/أغسطس ٢٠٠٣: «على الرغم من أنني أكره الوجود العسكري الأميركي في شكله الراهن في العراق، لا أكره مع ذلك

(١) Riverbend, “Two Years ...,” Baghdad Burning, March 23, 2005 <http://tinyurl.com/dajtt>.

الجنود الأميركيين... أو لا، توقفوا، فأنا أحياناً أكرههم». شعرت «بتعاطفٍ وهي تراهم جالسين ضجرين ومن دون همّة على أعلى دبابتهم وفي داخل سياراتهم – وهم يتمنون وجودهم في مكان آخر»، لكنها لاحظت:

كرهتهم في ١١ نيسان/أبريل – وهو يوم رمادي بارد: يوم فقدتْ صديقة عائلتنا زوجها وابنها وابنتها الطفلة، بعدما صدمت دبابة سيارة العائلة وهي تحاول إخلاء المنزل في حي الأدهمية – المنطقة التي شهدت قتالاً شديدًا.

كرهتهم في ٣ حزيران/يونيو عندما أُوقفت سيارتنا لسبب غريب في وسط بغداد وأُجبرنا (ثلاث نساء ورجل وطفل) على النزول منها والوقوف في الصف، فيما نقّب جنود غاضبون ومتحفّزون في حقائب يدنا، وفتّشوا الرجال ودققوا في محتويات السيارة، في عناية. ولا أعتقد أنني سأتمكن يومًا من إيجاد الكلمات التي تفسّر ذل التعرض للتفتيش.

كرهتهم طوال ساعتين في ١٣ تموز/يوليو، بعدما احتُجزنا، ونحن نغادر بغداد، مع عشرات السيارات الأخرى عند أحد الحواجز تحت الحرّ الخانق الذي يصيب بالدوار.

كرهتهم ليلة الإغارة على منزل نسيبي – رجل وزوجته وابنة وصبيتان صغيرتان. دُفع إلى خارج المنزل ويداه وراء رأسه فيما أجبرت زوجته وبناته الصارخات على الانتظار في المطبخ، فيما فتش نحو عشرين جنديًّا المنزل بطريقة منهجية، مفرغين الخزائن ومنقبين في أدراج الملابس الداخلية ومقلبين صناديق الألعاب[١].

تلقّت في ١١ تموز/يوليو خبرًا مفاده أن صديقًا مقرّبًا سمّته «ت.» قتلته ميلشيا شيعية بإطلاق النار عليه في حي الجهاد في بغداد. وكتبت:

(١) Riverbend, "Setting the Record Straight," Baghdad Burning, August 22, 2003 <http://tinyurl.com/lmkb>.

> يصعب التصديق أن «ت.» قد رحل بالفعل... وجدتُ، وأنا أتحقق من بريدي الإلكتروني اليوم، ثلاث رسائل منه غير مفتوحة في صندوق الوارد. إعتقدت لوهلة أنه حيّ يرزق. «ت.» حي والأمر كله ليس إلا مجرّد خطأ رهيب! تركت نفسي، بضع ثوان ثمينة، تركب موجة عدم التصديق التي تصيب بالدوار قبل أن يحطّمني الواقع لما وقعت عيناي على تاريخ الرسائل – أرسلها في الليلة التي سبقت مقتله. تضمنت إحداها مجموعة من النكات، والثانية تشكيلة من صور الهررة، والثالثة قصيدة بالعربية عن العراق في ظل الاحتلال الأميركي، وقد أبرز بعض الأسطر التي تصف جمال بغداد على رغم الحرب... ولطالما اعتقدتُ أن بغداد واحدة من أكثر المدن روعة في العالم، إلا أنني أجد صعوبة كبرى في هذه الأثناء في رؤية أي جمال في مدينة ملطخة بدم «ت.» والكثيرين غيره من الأبرياء...[١]

أعادت «ريفربند» في المشاركة نفسها النظر في مسألة هل هي تكره الجنود الأميركيين. فقد استشاطت غضبًا على أثر مقتل «ت.»، إضافة إلى ما كُشف أخيرًا عن عمليات تعذيب أميركية وقتل جماعي للمدنيين واغتصاب جنود أميركيين في آذار/مارس ٢٠٠٦ فتاة عراقية في الرابعة عشرة قُتلت مع عائلتها:

> ذهبت الشفقة التي كانت لي ذات مرة على الجنود الأجانب في العراق. إقتلعتها فظاعات أبو غريب والموت في الحديثة وآخر أخبار الاغتصاب والقتل. أنظر إليهم في آلياتهم المصفحة، ولأكون صادقة – لا أبالي هل هم في التاسعة عشرة أو في التاسعة والثلاثين من العمر. لا أستطيع حمل نفسي على المبالاة إذا كانوا سيتمكنون من العودة إلى ديارهم أحياء. لا أستطيع حمل نفسي على الاهتمام بعد الآن بزوجة أو أهل أو أطفال تركوهم وراءهم. لا أستطيع حمل نفسي على الاهتمام، لأن الرؤية تصعب في ما هو أبعد من الفظاعات. أنظر إليهم وأتساءل كم قتلوا من الأبرياء

(١) Riverbend, "Setting the Record Straight," Baghdad Burning, August 22, 2003 <http://tinyurl.com/lmkb>.

وكم قد يقتلون قبل أن يعودوا إلى ديارهم. كم من الفتيات العراقيات الأخريات سيَغتَصِبون بعد؟[1]

تشكّل مشاركات «ريفربند»، إذا قرئت معًا في «بغداد تحترق»، مرثاة جماعية لبلد مدمّر. يرى البعض أن جدال الكثيرين في شأن مستقبل العراق خارج عن الصدد. على ما استنتجته «ريفربند» مرّة:

> أُطلقت النار على صبي في الثانية عشرة وهو يلعب في حديقته. يقول الأميركيون إنه علق في تبادل للنار بينهم وبين امرئ آخر. كادت والدته تقتلع شعر رأسها فيما والده يضرب الأرض ويعول. بدا مستعدًّا للقتل.

يتحدث الناس عن المستقبل وكيف ستصبح الأمور أفضل، بعد خمس سنوات من الآن، عشر سنوات من الآن، خمسين سنة من الآن. غير أن بعض الناس لم يعد لديهم «مستقبل». لم يعد والدا ذلك الصبي يباليان بمستقبل العراق أو بمستقبل أميركا أو بأي شيء آخر. لقد دفنا «مستقبلهما»، الليلة الفائتة. أنا متأكدة من أن المستقبل يعني لهما بقدر ما يعنيه لأهالي الجنود الذين يموتون في العراق يوميًّا.

عندما «نقل بوش الحرب إلى ساحة الإرهابيين»، فشل في الإشارة إلى أنه لن يقاتل في جبال بعيدة ما أو صحارى قاحلة: فبيوتنا هي خطوط الجبهة... و«الأضرار الجانبية» هي أصدقاؤنا وعائلاتنا[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) Riverbend, “Lately…,” Baghdad Burning, September 12, 2003 <http://tinyurl.com/pygg7v>.

٢

أصوات لاجئة

ركّزت فاضلة وباسل اهتمامهما على جهاز تلفاز صغير منزوٍ في زاوية غرفة جلوسهما الضيقة. عُرضت، وهما يشاهدان، صور بشعة لمدنيين قتلوا وجرحوا بانفجار سيارة ملغومة في إحدى أسواق بغداد. تعرف فاضلة المنطقة لأنها غير بعيدة من منزل عائلتها. واكتفى باسل بهزّ رأسه وقال: «هذا رهيب، رهيب». وجلسنا صامتين بعد انتهاء التقرير.

هرب الزوجان الشابان من العراق إلى الأردن أواخر العام ٢٠٠٢، ليهاجرا من هناك إلى أستراليا حيث تتواصل اتصالاتهما المستمرة بالعائلة في بغداد على خلفية التقارير الصحافية اليومية عن التفجيرات الانتحارية والعبوات الناسفة وعمليات إطلاق النار والتعذيب والخطف. جلست فاضلة وباسل في عالم بعيد في منزلهما المتواضع المؤلف من ثلاث غرف نوم في كوفس هاربور في نيو ساوث وايلز وشرحا، وسط ضجيج التلفزيون، تفاصيل قرارهما مغادرة العراق قبل اجتياح العام ٢٠٠٣ وبعده[1]. وفضّل الزوجان، ونحن نتحدث، إبقاء صوت التلفزيون مرتفعًا على محطة الجزيرة – بدا أنهما مترددان في إطفاء واحد من أكثر الروابط المباشرة والمرعبة بين حياتهما القديمة وحياتهما الجديدة.

---

(١) مقابلة أجراها ريتشارك هيل مع فاضلة وباسل في ١٥ آذار/مارس ٢٠٠٨ في كوفس هاربور، نيو ساوث وايلز، أستراليا.

النـزوح

لم يفكّر أي من فاضلة، وهي عراقية في أواخر العقد الثالث من العمر، ذات شعر بني كثيف وبشرة زيتونية، أو زوجها الطويل القامة الداكن العينين، باسل، أن حربًا تلوح في الأفق، عام ٢٠٠٢، وتهدد ديارهما. وقالت فاضلة: «لم نشعر القلق اعتقادًا منّا أن الأميركيين يتحدثون وحسب عن الحرب وأن الأمر لا يعدو كونه تهديدًا. لم نعتقد أنهم سيغزوننا». وعلى مر السنين، أخذت ضغوط عائلة باسل في عمّان تزداد على الزوجين لزيارة الأردن. وقالت فاضلة إن عائلة باسل ضللتهما، لا بل خدعتهما، للتخلي عن حياتهما المريحة في الكرخ، وهي ضاحية ثرية، غرب بغداد. إعتقد والدا باسل، عن حق، أن الهجوم على العراق وشيك وسعيا إلى حماية ابنهما وزوجته وحفيدتيهما الصغيرتين.

غادر الزوجان الشابان، اللذان تزوجا عام ١٩٩٩، بغداد اعتقادًا منهما أن زيارة الأردن ليست أكثر من عطلة. وأبلغ باسل زملاءه، وكان حينذاك يعمل فنيًّا في مختبر للأسنان، أن الرحلة ستكون وجيزة. لم يأخذا معهما شيئًا سوى ابنتيهما الصغيرتين وبعض ألبسة الشتاء. لم يمتلكا مدخرات تساعدهما على مواجهة الأزمة غير المتوقعة. وشرحت فاضلة:

> غادرنا مسافرين إلى الأردن في ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. سُعدنا، ذاك اليوم، بالمغادرة لأنني اعتقدت أننا سنمضي أسبوعين أو ثلاثة في الأردن نعود بعدها إلى بغداد. سافرنا إلى هناك بالسيارة، واستغرقتنا الرحلة تسع ساعات... لم تراود أيًّا منا، في الحقيقة، أفكار عن الحرب. لم نعتقد أنها ستقع. طلب منّا أهل باسل مغادرة بغداد. لم يمكنهما أن يقولا لنا إن بوش سيهاجم العراق، بل اكتفيا بالقول إنهما يريدان رؤية الفتاتين.

فرضت وسائل الإعلام التابعة للدولة رقابة شديدة على أي خبر يتعلق بالتوترات المتصاعدة مع الغرب. وبحسب رواية فاضلة: «لم نسمع بالحرب... لأننا لا نمتلك

لاقطًا للأقمار الصناعية في بغداد. وجعلت الحكومة الأمر يبدو كأنها تقدّم برنامجًا جيّدًا. وهكذا اختارت برنامجًا جيِّدًا وعرضته على التلفزيون».

بوصولهم إلى الأردن، أسكنهم أهل باسل في شقة صغيرة مجاورة. وعندذاك فحسب، عرف الزوجان، بعد مشاهدتهما البي.بي.سي. والسي.أن.أن. والجزيرة، أن الحرب وشيكة. وقالت: «أدركنا، بوصولنا إلى هناك، ما يحدث لأنهما امتلكا لاقطًا للأقمار الصناعية. أُصبتُ بصدمة عندما عرفت أن الاجتياح سيحدث. وشعرت الحزن الشديد». شاهدت فاضلة وباسل، في قلق متزايد، هجوم الائتلاف الذي تقوده الولايات المتحدة. واستذكرت فاضلة:

> بكيت لدى اندلاع الحرب. شرعوا في القصف، منتصف الليل، والناس نيام. وعُرض القصف على التلفزيون. قلقت على أهلي. لم أتمكن من الاتصال بهما. حاولت الاتصال بهما. واستغرق الأمر أسبوعين إلى أن اتصلت والدتي من هاتف جوال. وأبلغتني أن الوضع سيئ جدًّا، جدًّا... وقال والدي إنه لا يستطيع مغادرة المنزل بسبب خطورة الأمر. وأعرب عن اعتقاده أن لا حكومة ولا أمن. قصف الأميركيون منزل جارنا فتحطّمت كل نوافذ منزل أهلي وأبوابه. دُمّر منزل جارنا. وقالت لي أمي إنهما صلّيا ليتوقف إلقاء القنابل.

بات لا يمكن الاعتماد على خدمة الهاتف بين الأردن والعراق، مما زاد من حدة الشعور بالمسافة التي تفصل بين فاضلة وأهلها:

> أصابني القلق، كل مرّة عجزت عن الاتصال. ففارقني النوم، وبكيت. بات لا يمكنني الاتصال بهما. قصف الأميركيون كل شيء. شكّلت تلك أوقاتًا سيئة بالنسبة إلينا. إعتقدتُ أن الحرب ستستمر بضعة أيام وينتهي كل شيء. إعتقدت أننا سنتمكن من العودة بعد بضعة أسابيع.

لم تعد فاضلة وباسل وطفلتاهما قط إلى بغداد. وأصبحوا من بين ما يُقدّر بمليون

عراقي إلى مليونين هربوا من البلاد بين حربي الخليج الأولى والثانية. وخلال المدة الفاصلة بين هاتين الحربين، قدّم أكثر من ٢٧٧ ألف عائلة طلبات لجوء إلى الغرب، إلى أوروبا والولايات المتحدة أساسًا، ولكن أيضًا إلى أستراليا ونيوزيلندا وكندا وغيرها. وهرب كثيرون منهم إلى دول مجاورة في الشرق الأوسط، بمن فيهم أكثر من ٢٥٠ ألفًا إلى الأردن و٢٠٠ ألف إلى إيران و٤٠ ألفًا إلى سوريا وعشرات الآلاف إلى لبنان وتركيا. وشهدت تلك السنوات تهجيرًا داخليًا لمليون شخص إضافي في مختلف أنحاء العراق. وتسببت محاولات صدام الغاشمة «تعريب» الشمال الكردي العراقي وقمع الشيعة في الجنوب بالتهجير الداخلي، الذي ضاعفت منه العقوبات الأميركية(١).

انتقلت كاتبة يوميات بغداد نهى الراضي إلى بيروت عام ١٩٩٥ بعدما خشيت انتقام نظام صدام حسين على أثر نشر دار «غرانتا» يومياتها. إستأنفت يومياتها في بيروت وانصرفت فيها إلى مشاعر التفكك التي انتابتها كلاجئة. وكتبت في ٤ آذار/ مارس ١٩٩٦ من بيروت:

> تفقد القصد والاعتزاز عندما تصبح بلا وطن. فهذا القصد يعني أن يتم الاعتراف بك والإقرار. وتصبح مجرّد لا شيء في العالم الخارجي حيث ينبغي لك التعريف وإعادة التعريف بنفسك. وأنت كل مرة تنطلق من الصفر: من أنت؟ من أين أنت؟ ماذا تفعل؟»(٢).

وكثيرًا ما زارت نهى الأردن حيث لها عائلة تقيم فيه وأصدقاء. وقد استقبل الأردن، على غرار لبنان، عددًا كبيرًا من المنفيين السياسيين والفنانين ونخب الطبقة العليا ممن هربوا من العراق خلال مرحلة العقوبات. وعاش بعض هؤلاء اللاجئين،

---

(١) Gil Loescher, "A Disaster Waiting to Happen," Observer, February 2, 2003 <http://tinyurl.com/r9lqpk>; Arthur C. Helton and Gil Loescher, "Internally Displaced Persons in Iraq: A Potential Crisis?," openDemocracy, April 10, 2003 <http://tinyurl.com/rblf8e>.

(٢) اقتُبست هذه المقتطفات وغيرها لرواية نهى الراضي كلاجئة من كتابها Nuha al-Radi, Baghdad Diaries: A Woman's Chronicle of War and Exile, Vintage: New York, Amazon Kindle Edition, 2007.

في رخاء، بفضل مدخراتهم، إلا أن الآخرين باتوا بلا عمل وفقراء. ولاحظت نهى في ١٥ شباط/فبراير ١٩٩٦ من عمّان:

> يكاد يستحيل الحصول على إذن بالعمل أو على الإقامة. ولا يقع الحق في الحقيقة على الأردن. فهو بلد صغير وقد بالغ في توسيع إمكاناته. وحتى لو حصل المرء على عمل هنا، فالأجر متدن والاحتمالات ليست كثيرة. ويشكّل فقدان الطمأنية والضعف ظروفًا مستمرة؛ وسيعود معظم العراقيين إلى العراق إذا استقامت الأمور فيه من جديد.

واتخذ «شاكو ماكو»، كاتب المدونات الإلكترونية العراقي الذي هاجر إلى المملكة المتحدة في التسعينات، وجهة نظر مختلفة. وبحسب ماكو سعى كثيرون من العراقيين الذين غادروا في تلك المرحلة إلى الانفصال عن بلدهم الأم. فالنزوح العراقي الذي حدث ما بين ١٩٩٠ و٢٠٠٣:

> ضم كل طوائف المجتمع العراقي من عرب وكرد (وغير ذلك من الأقليات الاثنية)، ومسيحيين ومسلمين (وغيرهم من الأقليات الدينية)، وشيعة وسنة، وكل طبقات المجتمع الاقتصادية، الطبقات الفقيرة والمتوسطة والموسرة، بأقسامها المتدينة والعلمانية، وبأمييها وبذوي المهارات العلمية الأساسية والمتعلمين وأصحاب الاختصاصات الرفيعة. وأهم من ذلك أن أهدافهم كانت أكثر اختلافًا بكثير، فمعظم العراقيين الذين غادروا العراق في تلك المرحلة أرادوا تحقيق الانفصال التام عن العراق ولا تحدوهم أي إرادة بالعودة ويحاولون يائسين الحصول على جنسيات جديدة (وبخاصة من مختلف البلدان الأوروبية الثرية ومن أميركا). شكّل الأمر، بالنسبة إلى معظمنا، رحلة ذهاب فحسب. وهي ليست مجرّد رحلة مادية بل ذهنية واجتماعية ونفسية[1].

(١) Sheko Mako, "A Nation Overwhelmed by Mass Exodus," Sheko Mako in Iraq, March 11, 2007 .<http://tinyurl.com/odavt5>.

ويدخل محمّد، العراقي الذي التقيناه في رينكيبي في السويد، في وضوح، ضمن هذه الفئة، فقد سعى إلى انفصال مادي ونفسي عن الحرمان في العراق. وتبادل محمد وأصدقاؤه العراقيون، أطراف الأحاديث المحلية وناقشوا الأحداث الإقليمية والمحلية المتعلقة في الغالب ببلدهم الأم. تميّزت المناقشات بالحدة يقطعها بين الحين والآخر حالات صمت نسبي خصوصًا عندما تُثار مسألة الاحتلال. إمتلك محمد المظهر الشارد نفسه وشبه المتجهم الذي لأمير، العراقي في رينكيبي الذي سبق أن عرّفنا عنه في الفصل الأول. وهو أيضًا يمج سيجارته، في قوة، وينفث دخانها من أنفه وفمه معًا.

وصل محمد، ابن السادسة والثلاثين، إلى السويد عام ٢٠٠٢ عبر الأردن واليمن. ولا يزال على اتصال، بالبريد الإلكتروني والهاتف، مع عائلته الكبرى في مسقطه مدينة كربلاء الشيعية المقدسة. ويعيش أهله وزوجته وأولادهما الخمسة – إضافة إلى أربعة أشقاء وأربع شقيقات – في رينكيبي وجوارها. وقد أجبره القمع الوحشي وظروف العيش القاسية في العراق في ظل صدام على الهرب. وسبق لمحمد أن سُجن قرابة عقد بعد خدمته في الجيش العراقي. واستذكر:

> أوقفت في الديار بسبب «مشكلة سياسية» لأبي وأبناء عمي.. كانوا ضد صدام... أوقفوني لأنهم جاءوا في طلب والدي، ولمّا لم يجدوه أخذوني عوضًا عنه. أُرسلتُ إلى السجن مباشرة، إلى سجن تابع للجيش في بغداد. وإنه لأمر الطبيعي أن يتم توقيف العراقيين بهذا الشكل... احتججت، ولكن ماذا في وسعي أن أفعل؟ فالأمور على هذا المنوال في عهد صدّام. عذّبوني في السجن. كسروا أسفل ساقي اليسرى بضربي عليها مرات كثير بمفك للبراغي. حدث ذلك نحو ثلاث مرات. هاجموني لأنهم أرادوا معرفة مكان أبي، غير أنني لم أكن أعرف بمكانه في ذلك الوقت... بقيت في السجن طويلًا. بقيت فيه من العام ١٩٩١ إلى العام ١٩٩٨[١].

(١) مقابلة مع محمّد أجراها ريشتارد هيل وكريم في ٥ تموز/يوليو ٢٠٠٨ في رينكيبي في السويد.

شكّل السجن، بالنسبة إلى محمد «مكانًا رهيبًا، الطعام فيه سيئ، وقد تعرض فيه على نحو دائم للتعذيب إضافة إلى الاكتظاظ الشديد». وقال: وفي ما يبدو ليس في الحسبان، صدر عام ١٩٩٨ قرار حكومي بإطلاقه. واستذكر:

> ذهبت مباشرة إلى الموصل. لم أعد إلى كربلاء لأنني خفت جدًّا من العودة إلى هناك في حال تم توقيفي من جديد... إنتقلتْ عائلة أخرى إلى منزلنا في كربلاء. فقد غادر معظم أفراد عائلتي، بمن فيهم والدي، إلى السعودية لأنهم خافوا جدًّا من حكومة صدام... ذهبوا إلى البصرة أولًا ومن هناك إلى السعودية.

بقي محمد شهرين في الموصل ثم عاد إلى كربلاء لترتيب بعض شؤون العائلة. وعاد بعد ذلك إلى الموصل حيث قال إنه شعر «الأمان، وعدم وجود مشاكل. لم أعد خائفًا... كانت الموصل مكانًا جميلًا». عمل محمّد في وظيفة إضافية ككهربائي سيارات وكسب ما يكفي لدفع الإيجار وتوفير القليل. عاش حياة وحيدة منعزلة وهو يحاول جمع بعض المال للمستقبل. غير أنه شعر أن الوضع في العراق يزداد سوءًا يومًا بعد يوم. وقال مستذكرًا: «كنا نعيش في العراق لكننا كنا أمواتًا. لم نعرف هل نبقى أحياء في اليوم التالي. لم نعرف ما الذي قد يحل بنا. كانت الحياة شاقة جدًّا. فالوظائف المتوافرة قليلة جدًّا وهناك دومًا نقص في الأمور». وهرب محمد عام ٢٠٠١:

> أردت الشعور بالحرية، والعيش من دون خوف. اشتريت جواز سفر مزوّرًا من رجل في الموصل. دفعت ثمنه سبعة آلاف دولار. جهدت في العمل كميكانيكي لادخار هذا المال، عملت، في مشقة، وساعات طويلة. عقدت اتفاقًا مع هذا الرجل ليرشو مسؤولين فيمكنني بلوغ الأردن. لديه أصدقاء كثيرون بين المسؤولين. وهذا النوع من الأمور طبيعي في العراق.

تمكن محمد في مآل الأمر من دخول الأردن مستخدمًا الرشوة والوثائق المزورة. وسرعان ما تبينت حقيقة الحياة القاسية في الأردن:

> الأمر صعب جدًّا... فقد سُمح لنا بالبقاء ثلاثة أشهر فقط في عمان وعلينا بعدها مغادرة البلاد والعودة. كان هذا شرط السماح لنا بالدخول. دفعت ٦٠٠ دولار لبلوغ اليمن، ثم أمكنني العودة [إلى الأردن]. عملت في عمان في سنترال للهاتف في مقابل بدل زهيد جدًّا. عشت وحدي وحاولت الادخار لكن المال كان شحيحًا. بلغ الأمر حدًّا كبرى من الصعوبة بالنسبة إلي.

وذكّر هذا الوجود المستوحد والتهديد الدائم بالترحيل «لأي سبب» محمد بالزمن الذي أمضاه في العراق في ظل صدام والعقوبات. وقال «وُجِدتْ في العراق ثلاث مجموعات من الناس: الأغنياء ومتوسطو الحال والفقراء». وتابع:

> كنّا فقراء ولا يمكننا الحصول على الكثير من الأشياء. أُعطينا بطاقة حكومية تسمح لنا بشراء الغذاء بأسعار أرخص. يمكنك شراء أي شيء في السوق السوداء إذا توافر لك المال. ونحن لا نملك هذا الكم من المال... كانت تنقصني الأشياء دومًا في الأردن. إمتلكت القليل من المال. وحصلت على الأشياء من السوق السوداء.

كان لمحمد في العراق أصدقاء وعائلة يعتمد عليهم في حصوله على ضروريات الحياة الأساسية. لكنه تملكه في الأردن إحساس حاد بالعزلة، وبأنه غير حصين في مواجهة نزوات المسؤولين الذين في وسعهم ترحيله في أي وقت. وهذا ما أثار خشية محمد أكثر من أي شيء آخر: «لا يمكنني العودة إلى العراق. الأمر خطير جدًّا بالنسبة إلي. يمكن أن أتعرض للقتل».

غادر محمد الأردن إلى السويد أواخر العام ٢٠٠٢. وقال إنه عارض الاجتياح الأميركي ورأى فيه «استلابًا» لنفط العراق. مات خمسة من أنسبائه منذ ٢٠٠٣ – «قتلوا في الوقت نفسه تقريبًا». ليس متأكدًا ممن قتلهم، لكنه شدد على أن:

> الأمر رهيب بالنسبة إلى عائلتنا، إذ لا يمكنك الانتقال إلى أي مكان في العراق من دون خوف. الناس خائفون كل الوقت. وهناك نقص في الماء

> والكهرباء. دُمّرت المستشفيات ولا توجد وسائل نقل. لا يمكن أفراد عائلتي الحصول على عمل. الأمر صعب جدًّا بالنسبة إليهم. يخبرونني هذه الأمور كل مرة أتصل بهم. ويحزنني جدًّا الاستماع إلى هذا.

يمضي محمد معظم أيامه في العمل ميكانيكيًّا بدوام جزئي، أو في المنزل مع عائلته، أو يزور أهله وشقيقاته. ويلتقي أيضًا أصدقاءه – كثيرون منهم يقيمون في رينكيبي منذ العام ١٩٩٠ عقب حرب الخليج الأولى – في المقاهي وفي المنزل وفي زوايا الشوارع لتبادل السجائر والأحاديث. وتخيّم غيوم من الدخان فوق هذه اللقاءات التي تعود في شكل ثابت إلى موضوع العراق وشعبه ومعاناته المستمرة. وقال: «أشعر هنا أنني رجل حر. أذهب حيثما شئت. لا أشعر الخوف أو واجب ملازمة المنزل. أعرف أنني إذا خرجت لن أتعرض للهجوم أو للتوقيف أو أي شيء كهذا». غير أن محمد يقول في الوقت نفسه: «لا أنسى دياري، بلدي. وهي لا تبارح ذهني أبدًا». وتوقّف بعض الشيء ليضيف:

> أشعر الغضب. جميع العراقيين يشعرون الغضب. نعيش في خارج البلاد ولا نريد الاحتلال الأميركي. عليهم مغادرة العراق. معظم العراقيين يعارضون الاحتلال. وما من أحد أراد هذا. كنّا ضد صدام حسين لكننا لا نريد الاحتلال. سنعود إذا غادرت الولايات المتحدة بلادنا وإذا تحسّن الوضع السياسي.

هدأ محمد وأخذ مجّة أخرى من سيجارته. وأضاف: «أريد أن أشتمّ تراب العراق من جديد. فنحن نعيش في السويد غير أن قلوبنا في العراق».

ثلاث موجات من المعاناة

غادر نحو مليوني شخص العراق خلال حقبة العقوبات، غير أن اجتياح العام ٢٠٠٣ تسبب بتسونامي فعليّ من التهجير. وأسفرت الحرب وتبعاتها الفورية عن

٢,٤ مليون لاجئ إضافي وهجّرت أكثر من ٢,٧ مليون في داخل العراق[١]. يبقى هذا العدد غير المسبوق من المشردين – أكثر من خمسة ملايين في المجموع – هو الأكبر في المنطقة منذ انشاء إسرائيل عام ١٩٤٨.

تم مسبقًا، وعلى نطاق واسع، توقع هذا الشتات العراقي الجديد. وقدّر تقويم للأمم المتحدة تحت عنوان «السيناريوهات الإنسانية المحتملة» أجري في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢، أن « نحو ٩٠٠ ألف لاجئ عراقي سيحتاجون، نهاية المطاف، إلى المساعدة، وبينهم ١٠٠ ألف سيحتاجون إلى المساعدة الفورية»، و«سيحتاج مليونان إضافيان إلى المساعدة مع تأمين المأوى لهم». وأطلقت أيضًا «هيومان رايتس ووتش» تحذيرًا من «كارثة إنسانية» تؤثر في مئات الآلاف من الناس، وصدر تنبيه عن نائب الأمين العالم للأمم المتحدة للشؤون الإنسانية كينزو أوشيما توقّع فيه أن يحتاج عشرة ملايين عراقي إلى المساعدة الغذائية ويفتقر ١٢ مليونًا إلى مياه الشفة، ويراوح عدد اللاجئين الجدد بين ٦٠٠ ألف و١,٤٥ مليون في حال اندلاع الحرب. ووافق جيل لوتشر، وكان يومذاك باحثًا رئيسًا في التهجير القسري والأمن الدولي في المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية، على هذه التقديرات. وحاجج في شباط/فبراير ٢٠٠٣ بأن «من المرجح أن يزيد نزاع جديد، مأساويًا، عدد أولئك الذين سيهربون، ومن الواضح غياب الآليات والموارد الضرورية لمواجهة سيناريو الحال الأسوأ»[٢].

لم تفعل الولايات المتحدة سوى القليل، هذا إن فعلت، تحسّبًا للكارثة الإنسانية التي سيتسبب بها الاجتياح. وقال لوتشر:

قد يكون المظهر الأكثر إخافة في التخطيط الراهن للطوارئ هو الغياب

(١) Five Years On, More People Displaced Than Ever Before," International Organization for Migra-" tion, March 18, 2008 <http://tinyurl.com/2u57pa>.

(٢) Likely Humanitarian Scenarios (Strictly Confidential)," United Nations, December 10, 2002" <http://tinyurl.com/63px>; "Do Media Know That War Kills?," FAIR, March 14, 2003 <http://tinyurl.com/ojyngt>; Gil Loescher, "A Disaster Waiting to Happen".

شبه التام للتنسيق بين الحكومة الأميركية والجيش ووكالات الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية. رفض الجيش مناقشة خططه للطوارئ أو فرضياته خوفًا من الكشف عن استراتيجيته الحربية. وهكذا تُركت المنظمات غير الحكومية في فراغ وهي عاجزة عن معرفة ما الذي يخطط له اللاعبون الآخرون الكبار وكذلك أدت القيود الحكومية على نشاطاتها في العراق وإيران إلى منعها من وضع الخطط المناسبة(١).

أسيء تنفيذ خطط الإغاثة التي وضعها البنتاغون وإدارتها. وشرح جويل ر. تشارني، نائب الرئيس السياسي في منظمة اللاجئين الدولية Refugees International أن موظفي مكتب الإعمار والمساعدة الإنسانية التابع للبنتاغون:

أُبقوا لأسباب أمنية في حال انتظار في الكويت على مدى أسابيع عدة بعد تدمير الحكومة العراقية. ولمّا دخل موظفو مكتب الإعمار والمساعدة الإنسانية في النهاية إلى البلاد عزلوا أنفسهم عن الشعب العراقي وأقاموا في واحد من قصور صدام حسين، وادعوا في الجوهر لأنفسهم البهارج الرمزية لحكمه. وفي غياب القدرة على القيام بأعمال الشرطة وعجز الجيش عن بسط القانون والنظام، أبطأ مكتب الإعمار والمساعدة الإنسانية في ترميم الخدمات الأساسية وفي ممارسة ما يُفترض أنه هدفه الأول وهو إقامة السلطة العراقية التي يمكنها تولي شؤون الحكم المحلّي فيما يتم الإعداد للحوار الوطني السياسي(٢).

وضاعف عدم كفاية السلطة الموقتة للائتلاف في اتخاذ القرارات من الإخفاقات المباشرة لمكتب الإعمار في التعامل مع الحاجات الإنسانية للعراقيين، أي إعادة الكهرباء والماء والنظام المدني. وبحسب مايكل شوارتز، مؤلف «حرب من دون نهاية: الحرب العراقية في السياق» War Without End: The Iraq War in Context،

(١) Gil Loescher, "A Disaster Waiting to Happen".

(٢) Joel R. Charny, "The United States in Iraq: An Experiment with Unilateral Humanitarianism," Foreign Policy in Focus, June 26, 2003 <http://tinyurl.com/yagvxtr>.

أنتجت المبالغة في الحماسة في إزالة آثار حزب البعث الموجة الأولى من ثلاث موجات مختلفة من التهجير العراقي. فقد شرعت السلطة الموقتة للاحتلال، بقيادة بول بريمر، على الفور في تفكيك أجهزة الدولة العراقية: تم تطهير الحكومة من آلاف البيروقراطيين البعثيين؛ وفُصل عشرات الآلاف من العمال من الصناعات المغلقة التي تمتلكها الدولة؛ وسُرّح مئات الألوف من العناصر العسكريين من جيش صدّام المُفكك. وسرعان ما تضاعفت أعدادهم فيما انتشرت موجات فقدانهم القدرة الشرائية في مختلف جوانب الاقتصاد. وجد الكثيرون من المهجرين وظائف أخرى (أقل مردودًا)؛ واحتمى آخرون في انتظار مرور الأوقات الصعبة؛ ومع ذلك غادر آخرون منازلهم وسعوا إلى العمل في مكان آخر وذهب أصحاب أكثر المهارات إلى الدول المجاورة حيث ثمة حاجة إلى مهاراتهم. وقد شكلوا الحافة الرائدة لموجة اللاجئين العراقيين الأولى[1].

أثارت الظروف الاقتصادية السيئة الموجة الأولى من اللاجئين، فيما دفع العنف في الفلوجة إلى الموجة الثانية. أدى حصاران أميركيان فرضا على المدينة ذات الغالبية السنية الواقعة على بعد ٦٠ كيلومترًا غرب بغداد، إلى تدمير ٣٦ الفًا من أصل منازل الفلوجة الخمسين ألفًا إلى جانب ٦٥ جامعًا و٦٠ مدرسة ومستشفيات عدة. وتحوّل ما لا يقل عن ٢٠٠ ألف من سكان مدينة تعدّ ٢٨٠ ألفًا، مشرّدين[2]. وشكّلت حركة الفلوجيين إلى مدن عراقية أخرى الموجة الثانية. كذلك أثارت الضغوط الاجتماعية والعنف الذي تسبب به مهجرو الفلوجة بموجة ثالثة كبرى من اللاجئين. وبحسب وصف وزير المال العراقي علي العلاوي:

> تجمع اللاجئون الذين غادروا الفلوجة في ضاحيتي بغداد الغربية السنّيتين، العامرية والغزالية، اللتين سيطر عليهما التمرّد. إنقلب المتمرّدون، يساندهم

(١) Michael Schwartz, "Iraq's Broken Pieces Don't Fit Together," Asia Times, February 13, 2008 <http://tinyurl.com/p6yslv>.

(٢) Mike Marqusee, "A Name that Lives in Infamy," Guardian, November 10, 2005 <http://tinyurl.com/qwtsja>.

في الغالب أقارب لاجئي الفلوجة [السنة]، على سكان هاتين الضاحيتين الشيعة. طُردت مئات العائلات الشيعية من منازلها التي استولى عليها اللاجئون. أخذ استياء السنة العرب من «تعاون» الشيعة مع قوات الاحتلال في التراكم وفاقمته اللامبالاة الظاهرة للشيعة حيال الهجوم على الفلوجة.

وأخذ الشيعة يصابون بدورهم بالسخط من جراء الهجمات اليومية على رجال الشرطة والجنود وهم في معظمهم من فقراء الشيعة. وبدأ، أوائل العام ٢٠٠٥، استهداف السنّة في الأحياء ذات الغالبية الشيعية. ففي حي الشعب في بغداد، على سبيل المثال، أدى اغتيال رجل الدين الصدري الشعبي، الشيخ هيثم الأنصاري، إلى تشكيل واحدة من أولى فرق الموت الشيعية... وتغذّت حلقة القتل والاغتيال والتفجير والتهجير، بعضها من بعض، وتحوّلت سريعا عملية تطهير إثنية واسعة النطاق لأحياء المدن والبلدات[١].

وأنتج تفجير شباط/فبراير ٢٠٠٦ لجامع العسكري في سامراء – واحد من أقدس الأماكن الشيعية – عنفًا طائفيًا لا ضوابط له وسرّع الموجة الثالثة الكبرى. وبحسب «ماما»، كاتبة المدونة الإلكترونية من الموصل، غادرت العائلات العراقية منازلها لأسباب متنوعة. فقد هربت بسبب الخطر الماثل المباشر أو بسبب خطورة الحي. فأحيانا يأسر الإرهابيون المنزل وأصحابه الذين يغادرونه بالتالي، تحسبًا، للحفاظ على حياتهم. وقد يختبئ عناصر القوى العسكرية، من جهة أخرى، في منزل أحد المواطنين لمراقبة المناطق المحيطة أو لنصب مكمن لشخص يختبئ في الجوار. وقد يغادر بعضهم البلاد، أو المدينة، بحثًا عن وظيفة للعمل في أمان من دون التعرّض للابتزاز[٢].

(١) علاّوي كما نقل عنه شوارتز في Schwartz, “Iraq’s Broken Pieces Don’t Fit Together”

(٢) Mama, “Reasons Why Iraqis Leave Their Houses,” Emotions…, April 11, 2008 <http://tinyurl.com/poxz58>.

وأحيانًا يغادر بعض العائلات وحسب بسبب الأسى. وذكرت «ماما» في آذار/ مارس ٢٠٠٨، أن صديقًا حميمًا اسمه رافي قُتل في انفجار سيارة ملغومة. كان رافي «ألطف شخص عرفته. يمتلك ابتسامة ساحرة ونظرة خجولة محببة. إمتلك قلبًا كبيرًا ملؤه الحب وشخصية لطيفة». وكان الكرب الذي تسبب به موته أكبر من أن تتحمله عائلته. وبحسب «ماما»:

> غادرت عائلة رافي المنزل لأن كل زاوية من زواياه تذكّرهم بمصابهم وتجلب الألم. يشاهدون رافي في غرفته، على كرسيه، وفي كل مكان مما يتسبب بالعذاب. تركوا وراءهم ذكرياتهم ومنزلهم واستأجروا منزلًا آخر. وقد يغادر آخرون منازلهم للسبب نفسه...[١]

أصبح هناك، بحلول نيسان/ابريل ٢٠٠٨، ما لا يقل عن ٢/٧٧ مليون شخص مهجّر داخليًا مبعثرين في مختلف أنحاء البلاد، ويتركزون أساسًا حول محافظات بغداد والموصل ودهوك وديالى. واستوعبت جارات العراق أيضًا الملايين من موجات اللاجئين الأولى والثانية والثالثة. إستقبلت سوريا أكثر من ١,٢ مليون، فيما استوعب الأردن ما لا يقل عن ٧٠٠ ألف. وبين الدول الأخرى التي استقبلت أعدادًا أقل، لكنها لا تزال كبيرة، من اللاجئين العراقيين، مصر (٧٠ ألفًا)، وإيران (٥٧ ألفًا)، ولبنان (٤٠ ألفًا)[٢].

في الأردن

أقام ليث، ابن بعقوبة ووالد الصبيين وزوج المرأة الحامل الذي عرّفنا عنه في

(١) Mama, "Please God give us solace," Emotions..., March 20, 2008 <http://tinyurl.com/oungg3>; Mama, "Reasons Why Iraqis Leave Their Houses".

(٢) IRAQ: New Report Highlights Growing Number of IDPs," IRIN, April 3, 2008 <http://tinyurl." com/ocknje>; Khaled Yacoub Oweis, "Iraqi Refugees in Syria Reluctant to Return," Reuters, February 12, 2009 <http://tinyurl.com/p397kg>; "Statistics on Displaced Iraqis around the World," UNHCR, September 2007 <http://tinyurl.com/yeozk8t>.

الفصل الأول، في شرق عمّان منذ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤. وقال: «لو أمكنني العمل لما عشت في كوخ كهذا»، مشيرًا إلى منزله الإسمنتي المتداعي[١]. ولا يمتلك ليث، كمثل جميع اللاجئين العراقيين هناك، أي حق بموجب القانون. وأضاف: «لا يُسمح لنا بالعمل، واضطرت زوجتي إلى بيع كل مجوهراتها أو كل ما أمكنها بيعه». حالف ليث الحظ بالعثور على وظيفة غير شرعية كنجار أوّل وصوله من العراق. ولكن، وبعد أربعة أشهر على توليه الوظيفة، أصيبت أربعة من أصابعه بجروح عميقة بالمنشار. شفيت جروحه غير أنه يعجز كليًّا عن استخدام يده اليمنى. وقال: «لست بمواطن، وليست لي تعويضات، ولا تأمين صحّي». وحصل ليث، بصفة كونه لاجئًا مسجلًا لدى المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، على مساعدة غذائية وعلى خدمات طبية ومساعدة متدنية الأجر مع إعادة التسديد. وعلى رغم هذه الفوائد لم يتسجّل لدى المفوضية في الأردن سوى ٥٣ ألفًا من أصل ٧٠٠ ألف عراقي[٢]. ويعتقد ليث أن الكثيرين من العراقيين – وبخاصة من يقيمون منهم في الأردن بطريقة غير شرعية – يخشون إدخال أسمائهم في السجلات الرسمية فيما رفض آخرون القيام بذلك من قبيل عزة النفس.

ويحدّد ميثاق الأمم المتحدة المتعلق بوضع اللاجئين «اللاجئ» بأنه كل شخص:

> وبسبب خوف له ما يبرره من التعرض للاضطهاد بسبب عرقه أو دينه أو جنسيته أو انتمائه إلى فئة اجتماعية معينة أو آرائه السياسية، يوجد خارج بلد جنسيته ولا يستطيع، أو لا يريد، بسبب ذلك الخوف أن يستظل بحماية ذلك البلد.

ويعلن الميثاق أن على كل الدول الموقعة عليه أن «تمنح اللاجئين المقيمين في صورة نظامية في إقليمها أفضل معاملة ممكنة تُمنح، في الظروف نفسها، لمواطني بلد أجنبي في ما يتعلّق بحق ممارسة عمل مأجور». ويمضي الميثاق قائلًا:

(١) مقابلة مع ليث أجراها مايكل أوترمان وتمارا فنجان في عمّان، الأردن، في ٣ شباط/فبراير ٢٠٠٨.

(٢) Ma'aly Hazzaz and Ziad Ayad, "First Iraqi family departs Jordan for resettlement in Germany", UNHCR, March 16, 2009 <http://tinyurl.com/cesnl8>.

لا يجوز لأي دولة متعاقدة أن تطرد لاجئًا أو تردّه، بأي صورة من الصور، إلى حدود الأقاليم التي تكون حرّيته وحياته مهددتين فيها، بسبب عرقه أو دينه أو جنسيته أو انتمائه إلى فئة اجتماعية معينة أو بسبب آرائه السياسية(١).

ولم توقّع سوريا والأردن – الدولتان اللتان تستضيفان العدد الأكبر من العراقيين – هذا الميثاق الصادر عام ١٩٥١ على رغم أن ١٤٤ دولة وقّعته.

سخر ليث، على رغم أنه مسجّل كلاجئ، من أهمية هذا التوصيف. وقال: «إذا أبرزت وثائق مفوضية اللاجئين للشرطة فسيرمونه في وجهك ويقولون إنها غير صالحة هنا. فهم لا يعدونها قانونًا لهم». ويقيم ليث في الأردن بتأشيرة زيارة انتهت صلاحيتها. «إذا صدمت سيارة ما ابني فسأخشى نقله إلى المستشفى لأننا كعراقيين لا نملك حقوقًا هنا في الأردن. ونحن نعيش بالخوف». فالأردن، وعلى العكس من سوريا المجاورة، لا يسمح للعراقيين بالتسجيل في المدارس الحكومية. «بقي [الأولاد] على مدى ثلاث سنوات من دون مدرسة. اعتادت كنيسة محلّية تنظيم الدروس، لكن الحكومة أغلقت الكنيسة لأنها غير مرخص لها». وشرع أولاده مطلع العام ٢٠٠٨ في الالتحاق بالصفوف في مدرسة صغيرة للاجئين أقامتها منظمة «أنقذوا الأطفال» غير الحكومية. وقال ليث إن «هذه المدرسة تعلّم كل شيء. وأنقذوا الأطفال تدفع [كل المصاريف] والأطفال سعداء».

ويقبع ليث في المنزل ويدخّن السجائر في كثافة، فيما يتابع أولاده الدراسة. وكان، لما التقيناه، ينتظر جوابًا من المنظمة الدولية للهجرة التابعة للأمم المتحدة التي تعالج طلبه الهجرة إلى الولايات المتحدة التي استقبلت منذ العام ٢٠٠٣ أكثر

(١) ميثاق الأمم المتحدة المتعلّق بوضع اللاجئين الذي تبناه في ٢٨ تموز/يوليو ١٩٥١ مؤتمر الأمم المتحدة للمفوضين المطلقي الصلاحية عن وضع اللاجئين وعديمي الجنسية. <http://tinyurl.com/yhr2wwl>.

من ثلاثين ألف لاجئ عراقي[١]. وعلى رغم أن الولايات المتحدة تشكّل مقصدًا يسعى إليه الكثيرون، تتملك ليث مخاوف حقيقية في شأن الهجرة إلى هناك. وقال غاضبًا: «سأصل إلى أميركا مديونًا إذ سيتوجّب عليّ دفع كل شيء. وعليك أن تعيد دفع كل ما تقول عنه المنظمة الدولية للهجرة. ومن غير الواضح كم ستبلغ النفقات». ويقول أحد كتيبات المنظمة الدولية للهجرة إن عليه أن يسدد ثلاثة آلاف دولار عن الشخص البالغ الواحد و١,٥٠٠ دولار عن كل ولد في غضون ٣٦ شهرًا على وصوله إلى الولايات المتحدة. وقال وهو يمسك، في إحكام، بكتيب التوجيهات المجعّد: «يجب أن أدفع الهاتف والغذاء والنقل والثياب – كل ما يجب إعادة تسديده موجود على اللائحة. أفضل البقاء هنا وتحمّل هذا» – وأشار إلى جهاز التدفئة الكهربائي البسيط في الغرفة – «على الذهاب إلى بلد وأنا مديون. سنفقد كرامتنا. أفضل أن أعيش فقيرًا على أن أكون مديونًا». إلتزم ليث الصمت عندما سئل كم من الوقت سيبقى في الأردن إذا رفض لاحقًا العرض بالهجرة إلى الولايات المتحدة. «ليس لدي وقت محدد. لما جئت إلى الأردن كانت المهلة الزمنية المحددة تسعة أشهر، وها قد مضت علي هنا أربع سنوات»، قالها همسًا.

أقام أيضًا أحمد، العراقي ابن الحادية والعشرين الذي كاد يُخطف من أمام منزله في الأدهمية، في الأردن منذ ٢٠٠٤. وهو يتحدّر، على عكس ليث، من خلفية مميزة إذ إن أبويه كانا قبل الاجتياح من أصحاب المهن الحرّة الموسرين في العراق. واستذكر أحمد «أنهما بقيا [في العراق] حتى ٢٠٠٦ لأنهما اعتقدا أن الأمر سيتحسن. يوجد دومًا أمل في أن تسير الأمور نحو الأحسن». ويجسّد نزوح والديه «هجرة الأدمغة» العراقية الراهنة – هرب المواطنين الذين يمتلكون المهارات التقنية القيّمة الضرورية لإعادة البناء. خسر العراق بحلول ٢٠٠٦ أربعين في المئة من الفئة المهنية. وفي بغداد خسر بعض المستشفيات والجامعات ما يصل إلى ٨٠ في المئة

(١) Alexander G. Higgins, "UN: Most Iraqi refugees in program go to US," Associated Press, October 16, 2009 <http://tinyurl.com/yf27dcx>.

من طواقمه. معظمهم هرب خوفًا – قُتل أكثر من ٣٨٠ أكاديميًّا جامعيًّا وطبيبًا ما بين العامين ٢٠٠٣ و٢٠٠٦[١].

ثمة حاجة إلى والد أحمد في العراق، لكنه يقول إن من الخطر الشديد عليه أن يمارس الطب هناك. وقال في افتخار «إن والدي طبيب عيون مهم. تخرّج في موسكو وكان أول طبيب عيون عربي في ليبيا بعد التأميم هناك. أدار عيادته في بغداد من العام ١٩٨٣ إلى العام ٢٠٠٦ عندما انتقل إلى عمّان». تلقّى والد أحمد تهديدات بعيد انفجار جامع العسكري في سامراء. «لم يقل والدي شيئًا. لكن والدتي وشقيقتي أبلغتاني أنهما شاهدتاه في إحدى المرات مصدومًا تمامًا وشاحبًا، وقال بعد ذلك إنه يريد إجراء الجراحات خارج العراق. أراد الرحيل». وضاقت سبل العيش بوالده في الأردن. إضطر في البداية إلى اتخاذ اسم أردني للتملص من السلطات، ومن ثم الموافقة على تقاسم نصف مدخوله مع رئيس الأطباء في المستشفى. وقال أحمد: «أسمع منه كل يوم: إنني أموت هنا. لأنه تعود وهو طبيب في بغداد أن يعاين نحو خمسين مريضًا في اليوم. أما الآن فإنه لا يعاين إلا مريضًا واحدًا في الشهر. وهو يخسر المال».

تقع عيادته بعيدًا من المنزل – يذهب، فيدفع دينارين أردنيين للتاكسي ويعود فيدفع دينارين آخرين. مريض واحد في الشهر، ويحصل على عشرة دنانير. لكن عليه أن يعطي نصفها لصاحب العيادة، فيخسر.

تلقت والدة أحمد أيضًا التهديد في العراق. وقال: «تخرجت أمي في الجامعة الأميركية في بغداد، وقد نالت الماجيستر في إدارة الأعمال. بدأت التعليم عام ١٩٧٧ في جامعة المنتصرية وتوقفت عام ٢٠٠٦ عندما انتقلت إلى هنا». تقع الجامعة شمال شرقي بغداد عند طرف مدينة الصدر، الجيب الشيعي السريع التقلّب.

---

(١) مقابلة مع أحمد أجراها مايكل أوترمان وتمارا فنجان في ١ شباط/فبراير ٢٠٠٨ في عمان، الأردن؛ Escalating Violence in Iraq Prompts UN Aid Official to Call for Urgent Help from Leaders,"" UN News Center, October 11, 2006 <http://tinyurl.com/p3wuvn>; Clea Caulcutt, "Iraq's Deadly Brain Drain," France 24, May 11, 2008 <http://tinyurl.com/qw7hcz>.

«تلقت ملاحظة جاء فيها: عليك التوقف عن الذهاب إلى الجامعة. رموا بالملاحظة في المرأب. فغادرت الجامعة بعد ذلك بثلاثة أشهر». ومن حسن حظ أمه أنها غادرت في ذلك الوقت. ففي ١٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧، قتلت قنبلتان ما لا يقل عن ٧٠ طالبًا وأستاذًا وموظفًا في المنتصرية. وبعد ذلك بأربعة أسابيع قتلت انتحارية ٤٢ شخصًا آخرين عند بوابات قسم الإدارة والأعمال خلال امتحانات نصف السنة. وقُتل حتى الآن ما لا يقل عن ٢٨٠ أكاديميًا في مختلف أنحاء العراق، فيما هرب ثلاثة آلاف آخرين ردًا على التفجيرات والاغتيالات وعمليات الخطف. وانخفض، منذ منتصف العام ٢٠٠٨، عدد الحضور في الجامعات في أنحاء بغداد بمقدار الثلثين. وإذا كان هدف المتطرفين الشيعة والسنة هو تدمير قاعدة المعرفة في العراق، فقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد. وقال الدكتور مصطفى جبوري من وزارة التعليم العالي العراقية عام ٢٠٠٧: «استُنفد النظامان الصحي والتربوي من المحترفين الجيدين. فقد هرب نحو ثلث هؤلاء [المحترفين] الذين عاشوا في العراق قبل العام ٢٠٠٣ من العنف»[١].

اضطر أحمد ووالدته إلى الالتحاق بالجامعة في عمان للحصول على بطاقتي الإقامة في الأردن. وقال أحمد: «تبلغ كلفة الإقامة لي ولأمي ما يقارب ١٥ ألف دينار أردني في السنة». وهو يدرس الهندسة المعمارية فيما تواصل والدته تحصيل شهادة الدكتوراه في التسويق. وقال: «أريد التخصص في التنظيم المدني، فأنا أحب سيم سيتي Sim City»، مشيرًا إلى لعبة الفيديو الشعبية عن التنظيم المدني. «السنة المقبلة هي الأخيرة لي في الجامعة، وسأحضّر من ثم للماسترز».

أحمد غير متأكد من عودته إلى العراق. وقال «إنه حلم بالنسبة إلي أن أضيف شيئًا إلى ذلك البلد». لكن واقع العودة مختلف:

---

(١) "Deaths Top 100 in Baghdad Bombings, Shooting," CNN/VOV News, January 17, 2007 <http://tinyurl.com/p7l9rn>; Clea Caulcutt, "Iraq's Deadly Brain Drain," France 24; Jaboury quoted in "IRAQ: The Exodus of Academics has Lowered Educational Standards," IRIN, January 7, 2007 <http://tinyurl.com/on6xvs>.

لن أعود بعد التخرّج إلى بغداد أقله لمدة عشر سنوات. فالمكان هناك ليس للشباب، إنه للسياسيين. أريد أن أعيش عشريناتي وثلاثيناتي خارج البلاد. أريد أن أكون حرًّا. سأفكّر بالأمر بعد عشر سنوات. فأنا في الحادية والعشرين الآن.

ويوجد، في غضون ذلك، ما يثير قلق أحمد الفوري – أي أن أموال العائلة التي دعمته طوال حياته أخذت تنضب في سرعة. وقال «صدقًا نحن لم نحظ بأي مدخول خلال سنواتنا الثلاث في الأردن. وهكذا فإن ما نحويه من مال نصرفه على جامعتي وجامعة أمي ومدرسة شقيقتي ومصاريفنا اليومية». ويخشى أحمد ألا تملك عائلته ما يكفي من المال للتعامل مع أي طارئ صحي قد يحدث في سن أهله المتقدمة. «لا تأمين، لا شيء، إنها لمشقة. فأبواي لم يعودا شابين». وينوي أحمد مساندة عائلته كلها بعد التخرج. «أنا الوحيد الذي تتوافر لي فرصة القيام بشيء ما. غير أنني عندما أنعم النظر في الأمر – أتطلع إليه من الناحية المالية – أجد أن علي الذهاب إلى الخليج للعمل. إنها الطريقة الوحيدة لإعالتهما». والأجور في دول الخليج أرفع بكثير منها في الدول العربية الأخرى. لكن تكاليف المعيشة مرتفعة هي الأخرى. «وبخاصة دبي – إذا كنت أفكّر بدبي فسأحتاج إلى ستة رفاق مسكن. وإذا توجب علي الذهاب كل يوم [إلى العمل] بالتاكسي، فسأخسر المال كلّه».

ويتطلع أحمد قدمًا لمغادرة الأردن على رغم المشقة التي تنتظره. وبات العراقيون الذين رُحّب بهم في السابق موضع ريبة الآن. ففي التاسع من تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥ قتل مفجرون انتحاريون ٦٠ شخصًا في ثلاثة فنادق راقية في عمان. وسرعان ما اكتُشف أن المفجّرين عراقيون. وقال: «تعودنا العيش في النعيم. كان الأمر جيّدًا فعلًا بالنسبة إلي. يعرفونك عراقيًّا فيحبونك. ولكن كل شيء تغيّر الآن». أخذ الأردنيون، بعد عمليات التفجير، يحترسون من العراقيين في وسطهم، فيما شددت الحكومة من السيطرة على الحدود. وقال أحد المسؤولين الأردنيين بعد الانفجار: «دعونا لا ننسى أن الذين فجروا أنفسهم عام ٢٠٠٥ في الفنادق حملوا جوازات سفر مزورة». وأضاف: «علينا الآن أن نحترس في شأن من نسمح له بدخول بلادنا لأننا لا

نريد وقوع مأساة أخرى»[1]. وينحو الأردنيون الآن باللوم على العراقيين في الارتفاع الحاد في أسعار العقارات وفي انقطاع المياه بل وحتى في اختناقات المرور. ويشتهر سائقو سيارت الأجرة الأردنيين بشتم العراقيين بل وبمهاجتهم أحيانًا. ويحاول أحمد في تنقلاته أن يخفي هويته العراقية. «أغيّر لهجتي فلا يعرفون أنني عراقي. وأحد أسباب ارتدائي هذه الكوفية» – أمسك أحمد بالوشاح ذي المربعات السود والبيض الذي يلفه حول عنقه – «هو يعني أني أردني. أنا أتنكر، وعليّ ذلك». ويتكلم أحمد أيضًا باللكنة الأردنية وهو في مكان عام:

> أواجه مشكلة كل مرة أتحدث العربية العراقية. لأنني كل مرة أتحدث العربية العراقية – يوجد حرف «الكاف» في العربية الأردنية الذي يُلفظ «غ» – ويعرف الناس أنني عراقي، يبدأون بلومي بقولهم مثلًا إن والدي جاء إلى هنا ورفع الأسعار وإن كل الشقق امتلأت الآن، وإنه فجر الفنادق. وينتهي بنا الأمر نتقاتل.

لا يزال الكثيرون من العراقيين يحاولون دخول الأردن، لكنهم يعودون أدراجهم عند الحدود. وفي آب/أغسطس ٢٠٠٧، كتب واضع مدونة إلكترونية يُعرف باسم الدكتور محمد عن الإذلال الذي تعرض له لدى وصوله إلى مطار الملكة عليا الدولي في عمان. خطط محمد للقيام برحلة إلى الأردن تستغرق ثلاثة أسابيع لرؤية أهله وتمضية الوقت وزوجته «بعيدًا عن تفجيرات العراق وجحيمه»[2]. لم يكن ضابط التفتيش متعاطفًا ووضع محمد وزوجته في قاعة للانتظار قذرة. ولاحظ عند حد ما والدة شابة تلتمس من الحارس السماح لها بالوصول إلى حفاضات طفلتها:

> قالت له إنها تريد جلب حفاضات لطفلتها من حقيبتها (الموجودة خارج «السجن») وهي تحتاج إليها لأن الطفلة متسخة جدًّا. وأخذت الطفلة المسكينة تبكي وقد فاحت منها رائحة كريهة. ورجته المرأة مرات عدة

(١) IRAQ-JORDAN: New Rules a 'Death Sentence' for Iraqis," IRIN, March 1, 2007 <http://tinyurl." com/pvcz4m>.

(٢) Dr. Mohammed, "The Jail," Last of Iraqis, August 9, 2007 <http://tinyurl.com/opnx53>.

إلى أن استبد بي الغضب كثيرًا، فسحبت تلك المرأة وقلت لها: صحيح أنني غريب عليك، ولكن أرجو منك أن تعدّيني أخًا لك وتوقفي عن التوسل إليه، فهذا يفتت قلوبنا، إستخدمي شيئًا آخر كحفاضات، تعالي معي. في هذا الوقت، سمعتْ امرأة أخرى الحديث وأعطتها منشفة استخدمتها. ولكن مرة أخرى اتسخت الطفلة فغضبت المرأة جدًّا، وغضب جميع المحتجزين كثيرًا، وشرعنا جميعًا في الصراخ ومطالبتهم بالسماح لها بجلب الحفاضات. لكنهم لم يسمحوا لنا، فتوجهتْ زوجتي صوب الضابط وهو يفتح الباب وقالت له: رجاء اسمح لها بالحصول على الحفاضات فالطفلة متسخة جدًّا، أرجو منك، أليست لديك شفقة؟ حاولتُ سحبها لأنني أدركت أنه سيقول أمرًا لن يعجبنا، فأشار إليها بإصبعه وأمرها بالتراجع. وبإشارته إليها بالإصبع ونظره إليها كما لو انه ينظر إلى شيء بائس، نهض وأقفل الباب علينا من جديد، ومرة أخرى شرعت حبيبتي في البكاء وأردتُ أن أفقأ عينيه بأصابعي. وقالت لماذا يفعل هذا؟ لماذا؟ شرعت الوالدة في البكاء وهي تقول: أهذا ما يحدث للعراقيين، يا للعراقيين المساكين... وعند هذا الحد بكيتُ، نعم بكيت علنًا، فرؤية المشهد محزنة جدًّا، والدة وطفلتها يبكيان من أجل حفاض، ونحن في «السجن» ونُعامل على هذا الأساس. الجميع متسخون وتعبون. ومرّ يوم على النساء وهن يبكين. لماذا على هؤلاء النسوة اختبار السجن، ما الذين فعلنه؟

أعيد محمد وزوجته إلى بغداد بعدما أمضيا أكثر من ١٢ ساعة في غرفة الانتظار. وحاول الدكتور محمد، بعد ذلك بأشهر، دخول الأردن من جديد، وهذه المرة بغية أن تحصل زوجته على جواز سفر بريطاني يسمح لهما بالهجرة إلى المملكة المتحدة. لكنه أعيد مرّة أخرى. وكتب وهو محتجز:

مضت علينا ١٨ ساعة من دون طعام أو ماء... ولا يوجد من نشتري منه أي شيء... أنا مستعد لدفع مئة دولار ثمن سندويش وزجاجة ماء، أو

على الأقل ليتركونا نعود إلى ديارنا. يقولون إن الطائرة العراقية ستصل في الثانية بعد الظهر، ولكن، بحسب خبرتي السابقة، لا أصدق أن هذا سيحدث. أعتقد أنها ستتأخر أكثر من ذلك. لا أعرف ماذا أقول أو أشعر، أحتاج إلى النوم، احتاج إلى أريكة أو سرير، فجسمي موجوع من الاستلقاء على الأرض والجلوس على الكراسي المعدنية، أنا جوعان وعطشان... وأنا غاضب وحزين جدًّا وتعب كثيرًا، أريد أن أصرخ وحسب. لم أعتقد أنني سأمر بالتجربة نفسها من جديد... يسيطر الأمر عليَّ جدًّا، وهو يدمّر روحي وجسمي، يؤلمني أن أرى هؤلاء الرجال والنساء العراقيين الأصيلين الأنيقين يتمددون على الأرض أو ينامون وهم لم يرتكبوا أي خطيئة... إلا الخطيئة الأصلية... خطيئة أننا عراقيون...[1]

في سورية

شكّلت سورية جنة إقليمية للاجئين العراقيين، وبخاصة من رفض السماح لهم بدخول الأردن أو من رُحّلوا منه. فتحت حكومة سوريا البعثية أبوابها للعراقيين عقب الاجتياح – مستقبلة في المعدّل الأقصى ٦٠ ألف عراقي في الشهر ما بين شباط/فبراير ٢٠٠٦ وتشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧. هربت كاتبة المدونة الإلكترونية «ريفربند» إلى سوريا أواسط العام ٢٠٠٧. ودهشت في «بغداد تحترق» للسهولة التي دخلت فيها جارة العراق الغربية:

سيطرت عليّ الدقائق الأولى على عبور الحدود. راحة طاغية وحزن طاغ... كيف أن امتدادًا من بضعة كيلومترات أو ربما من عشرين دقيقة يفصل، في قوة، بين الحياة والموت؟

كيف أن حدودًا لا يمكن أحدًا رؤيتها أو لمسها تقف حدًّا فاصلًا بين السيارات

(١) Dr. Mohammed, "Detained Again !!," Last of Iraqis, February 12, 2008 <http://tinyurl.com/omur54>.

الملغومة والميليشيات وفرق الموت و... السلام والأمان؟ يصعب التصديق حتى الآن. أجلس هنا أكتب هذا وأتساءل لماذا لا أستطيع سماع الانفجارات. أتعجّب كيف أن النوافذ لا ترتجّ فيما الطائرات تمر من فوق رؤوسنا. أحاول إنقاذ نفسي من توقع أن يقتحم رجال باللباس الأسود بابنا وحياتنا. أحاول أن أعوّد عيني على الشوارع الخالية من حواجز التفتيش وسيارات الهامر وصور مقتدى والباقين...

كيف يقع هذا كله على مسافة سفر قصير بالسيارة؟[1]

أنهت سوريا في الأول من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧ سياسة الباب المفتوح لطالبي اللجوء العراقيين. وتقول النيويورك تايمز إن رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي ضغط على المسؤولين السوريين للتشدّد على الحدود، لأن سيل اللاجئين «قوّض جهد الحكومة العراقية في بسط المزيد من الأمن في البلاد»[2]. ومنذ هذا التغيير لم يعد يُسمح بالدخول السهل إلا للأكاديميين العراقيين وسائقي الشاحنات وسيارات الأجرة والتجار. وكان العراقيون يحصلون، قبل وضع هذه القواعد الجديدة، على تأشيرات زيارة قصيرة الأمد تُمنح لهم على الحدود. ويكتفون لدى انتهاء صلاحية هذه التأشيرات بالخروج ثم بالعودة إلى دخول البلاد بتأشيرات جديدة. وتأملت «ريفربند»، في إعلانها النهائي في مدونتها الشهيرة، في مسألة تجديد تأشيرتها:

> استسلمت لواقع أننا لاجئون، في وقت دخلنا من جديد الحدود السورية وتوجهنا عائدين إلى سيارة الأجرة الجاهزة لنقلنا إلى القامشلي. أقرأ عن اللاجئين يوميًّا في الإنترنت... وفي الصحف... وأسمع عنهم في التلفزيون. أسمع عمن يقدّر عددهم بمليون ونصف المليون من اللاجئين العراقيين في سورية وأهزّ رأسي من دون أن أعدَّ فعلًا أنني وعائلتي أحد منهم. أوليس اللاجئون في النهاية هم الناس الذين ينامون في الخيم ولا

(١) Riverbend, "Leaving Home...," Baghdad Burning, September 6, 2007 <http://tinyurl.com/2lvj23>.

(٢) Thanassis Cambanis, "Syria Shuts Main Exit From War for Iraqis,"New York Times, October 21, 2007 <http://tinyurl.com/qftl6f>.

> يملكون مياه شفة ولا تمديدات صحية؟ أَوَلا يحمل اللاجئون حاجاتهم في الأكياس بدلًا من الحقائب ولا يملكون هواتف خلوية أو اشتراكًا في الإنترنت؟ تمسّكت بجواز سفري كأن حياتي متعلّقة به وقد خُتمت في داخله تأشيرة لشهرين إضافيين في سورية، واكتشفت كم أنني مخطئة. فجميعنا لاجئون. وتحوّلت فجأة رقمًا. فاللاجئ يبقى لاجئًا مهما بلغت ثروته أو ثقافته أو راحته. اللاجئ كناية عن شخص غير مرحّب به فعلًا في أي بلد– بما في ذلك بلده... وبخاصة في بلده[1].

وتسمح سورية، على عكس الأردن، للعراقيين بالعمل شرعيًّا بل وحتى بفتح أعمال جديدة لهم. التقينا في جرامانا – الجيب الذي يضم عراقيين على بعد سبعة كيلومترات في الجنوب الشرقي الصحراوي للعاصمة السورية دمشق ـ مريم ابنة السادسة والعشرين التي تعمل في معمل قريب لحقائب اليد الجلدية. أبلغتنا أنها تعمل تسع ساعات في اليوم، ستة أيام في الأسبوع، وتجني ١٢٠ دولارًا في الشهر– نحو ٥١ سنتًا في الساعة. وهي تجني ما يكفي تمامًا لدفع إيجار الشقة التي تحتوي غرفة نوم واحدة تتشاركها مع شقيقها وأبويها المتقدمين في السن في مبنى إسمنتي متصدع. واستمرت في العمل على رغم الجرح البليغ في يدها اليمنى المضمدة في شكل سيّئ والذي قالت عنه «إنه ناتج عن حادث». وتجني عائشة، وهي خادمة شابة وأم عازبة لابنتين صغيرتين، ١٥٠ دولارًا في الشهر في أحد مقاهي جرامانا. وقالت إن المبلغ غير كاف حتى لو أضافت إليه من مدخراتها. وأضافت أن الإيجار الشهري لشقة في جرامانا مؤلفة من غرفة نوم واحدة يكلّف وحده ١٥٠ دولارًا في الشهر[2].

---

(١) Riverbend, "Bloggers Without Borders ....»

(٢) مقابلة مع مريم أجراها مايكل أوترمان وتمارا فنجان في ٣١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨ في جرامانا، دمشق، سورية؛ مقابلة مع عائشة أجراها مايكل أوترمان وتمارا فنجان في ٣١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨ في جرامانا، دمشق، سوريا؛ الرجاء ملاحظة أن أجزاء من هذه المقابلات والخلفيات الإعلامية ظهرت أولًا في Mike Otterman and Tamara Fenjan, "Between Iraq and a Hard Place," New Matilda, February 5, 2008 <http://tinyurl.com/qokpkt>.

تقدّم المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة والهلال الأحمر العربي السوري الجزء الأكبر من خدمات الدعم إلى العراقيين في سورية. ففي مركز التسجيل التابع لمفوضية اللاجئين في دوما – الأكبر في العالم – تجرى مقابلات مع ما يصل إلى خمسمئة عراقي في اليوم يحصلون على وضعية اللاجئ الرسمية من الأمم المتحدة. وقد تسجّل حتى الآن نحو ٢٠٠ ألف عراقي. وما إن يتم الاعتراف بهم حتى تُعطى لهم شهادة رسمية من المفوضية العليا للاجئين- سوريا جاء في قسم منها أن:

> هذا الشخص بصفة كونه/كونها لاجئًا هو محط اهتمام لمكتب المفوض الأعلى للاجئين في الأمم المتحدة، ويجب خصوصًا حمايته/حمايتها من العودة القسرية إلى البلد الذي سيواجه/تواجه فيه تهديدات لحياته/حياتها أو حريته/حريتها. وستحظى أي مساعدة ممنوحة للشخص الوارد اسمه آنفًا بالتقدير الكبير.

يحق للاجئين المسجلين الحصول على خدمات طبية مجانية، وفي بعض الحالات على تسلّم الغذاء أو على منح شهرية. قابلنا الكثيرين من العراقيين في دمشق ممن اختاروا التسجيل، غير أن معظمهم لم يعرف الكثير عن الخدمات التي توفّرها لهم المفوضية العليا للاجئين.

يعيش معظم العراقيين في سورية من مدخراتهم، على رغم أن الحظ حالف البعض منهم في العثور على عمل. وعندما تجف المدخرات يختار الكثيرون السفر عائدين إلى العراق. وفي ساحة مغبّرة في السيدة زينب – وهو جيب آخر في دمشق يستوعب أكثر من نصف مليون عراقي – تعيد دزينة من باصات الركاب العراقيين إلى البلد الذي سموه يومًا الديار. وتبلغ كلفة رحلة الباص في اتجاه واحد إلى بغداد ألف ليرة سورية، حوالى عشرة دولارات. وقد وقف كاظم، من المنصور في بغداد، ينتظر للصعود إلى أحد هذه الباصات. وقال: «سمعت أن الوضع بات أكثر أمانًا في بغداد، غير أن السبب الرئيس لمغادرتي هو أنني لم أعد أملك المال». وقال رجل

ضخم الجثة أسود اللباس ومعه عمّته، وهي سيدة متقدمة في العمر ذات عينين تعبتين وغارقتين، أنهما باتا أيضًا من دون مال. وقال الرجل وهو يجلس في الباص وعلى استعداد للمغادرة إلى بغداد: «لا يمكننا العمل». وأضافت العمة: «بعنا كل شيء: سخان الماء، الأثاث وكل شيء. وكل ما تبقى لي هو هذه الثياب». قالت ذلك وهي تشد بكّمها. وتمتم الرجل: «نفضل الموت في العراق على الجوع كغرباء في سورية»(١).

وليسوا وحدهم في ذلك. فقد سبق لاستطلاع أجرته المفوضية العليا للاجئين أن سأل عراقيين في دمشق لماذا يعودون، أو يعود أحد يعرفونه، إلى العراق. وقال نحو نصف المجيبين (٤٦ في المئة) أنهم لم يعد يسعهم تحمّل نفقة الإقامة في سوريا، وأجاب نحو ربعهم (٢٦ في المئة) أن تأشيرتهم انقضت وهم مضطرون إلى الرحيل، فيما تناهى إلى ١٤ في المئة أن الوضع الأمني تحسن وبات في وسعهم العودة في أمان إلى الديار(٢). وقال ممثل المفوضية العليا للاجئين في سورية لورنس جوللس في شباط/فبراير ٢٠٠٩: «هناك حركة أكبر ومن المرجح أن عددًا كبيرًا قد قفل راجعًا، لكن الناس يبقون خياراتهم مفتوحة ولا تزال أعداد كبيرة من اللاجئين العراقيين في سورية». وأضاف: «مرّ الكثيرون من الناس في تجارب صادمة. وليس في وسع الجميع العودة إلى حياتهم بعبارات الإقامة في الحي نفسه أو المنزل». فقد انقسم معظم الأحياء المختلطة السنية الشيعية في بغداد على خطوط تماس طائفية. وأضافت كريستيل يونس وهي محامية كبيرة في منظمة اللاجئين الدولية:

تم التهويل على الكثيرين من [العائدين]. وقُتل بعضهم. وفُجرّت منازلهم.

(١) مقابلة مع كاظم أجراها مايكل أوترمان وتمارا فنجان في ٣٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨ في السيدة زينب، دمشق سوريا؛ مقابلة مع رجل عراقي وعمته أجراها مايكل أوترمان وتمارا فنجان في ٣٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨ في السيدة زينب، دمشق سوريا؛ الرجاء الملاحظة أن أجزاء من هذه المقابلات والخلفيات ظهرت أولًا في .Otterman and Fenjan, “Between Iraq and a Hard Place”

(٢) UNHCR Syria Update,” UNHCR-Syria, May 2008, p. 4.

يبدو أن الجماعات غير جاهزة بعد للترحيب بعودة واسعة النطاق، وبخاصة العودة الكبيرة من طوائف غير تلك السائدة في الأحياء[١].

في العبور

يحرص رافد على مغادرة سورية ولم يمضِ على وجوده فيها شهر واحد. وهو يفتخر جدًّا بمظهره على رغم أنه عاطل من العمل. إرتدى ابن الثلاثين للقائنا في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨ في جرامانا بزَّة أنيقة وحذاء ملمّعًا وقصّ شعره قصيرًا. وقال في شقته المرتبة في الطبقة الثانية إن «المظهر الجيد مهم»[٢].

درس رافد علوم الكمبيوتر في الجامعة لكنه عمل بعد الاجتياح حارسًا أمنيًّا في شركة «كيللوغ، براون وروت» المتفرعة من هالليبورتون. أعطي جهازًا لاسلكيًّا ودرعًا واقية لكن لم يُسلّم مسدسًا. وقال: «قضت مهمتي بأن أبلغ عبر الجهاز عن أي شيء غريب أشاهده». وأضاف أن ذهابه إلى عمله والعودة منه يسبب مشكلة. أقام في ذلك الوقت على بعد ١٥ دقيقة من المنطقة الخضراء. وقال: «كمن الخطر الشديد في المغادرة والدخول. وأخذ أناس يقتلون أصدقائي الواحد تلو الآخر. ويحدّدون كل من يُشاهدونه يدخل القصر على أنه يعمل للأميركيين. وقد قُتل أربعة أو خمسة من أصدقائي».

هرب رافد في تشرين الأول/أكتوبر من بغداد إلى الأردن ومعه شقيقاه الأكبر منه وشقيقته وأمه. (يقيم والده وحده في أستراليا منذ التسعينيات بعدما دخل البلاد خلسة وطلب اللجوء). وقال: «لم يكن لدي معارف أو أرقام لهواتف الناس الخلوية.

---

(١) جوللس كما نقل عنه خالد يعوقب عويس في Khaled Yacoub Oweis, "Iraqi Refugees in Syria Reluctant to Return," Reuters؛ يونس كما تم الاستشهاد بها في Lourdes Garcia-Navarro, "The Past Complicates Iraq's Efforts To Move On," NPR, April 20, 2009 <http://tinyurl.com/cckew3>.

(٢) مقابلة مع رافد أجراها مايكل أوترمان وتمارا فنجان في ١٣ كانون الثاني/يناير ٨٠٠٢ في جرامانا في دمشق، سورية.

وعندما غادرت العراق توجب علينا ترك الكثير من الأمور هناك ولم نأخذ إلا حقيبة واحدة من الملابس». عثر على شقة في شرق عمان، «واكتفيت بداية في البقاء في المنزل والانتظار». لكنه سرعان ما اكتشف ثغرة في القانون الأردني. فالعراقيون ممنوعون من العمل، ولكن يمكنهم أن «يتطوعوا» في المنظمات غير الحكومية المرخصة من الدولة. ويمكن هذه المنظمات بدورها أن تدفع للنثريات مثل الغذاء وتكاليف النقل. وقال: «علّمت الكمبيوتر في إحدى الكنائس – دفعوا لي مبلغًا رمزيًا. علّمت صفّين، ودفعوا لي ١٥٠ دينارًا أردنيًا». وتطوع لاحقًا في منظمة «أنقذوا الأولاد». «كنت أساعد اللاجئين العراقيين – أساعد أحد الأطباء على تسجيل أسماء الناس في الكمبيوتر. وتلقيت دينارين أردنيين في اليوم إضافة إلى الطعام». وعمل أيضًا مع «فيلق الرحمة» Mercy Corps. «أرادوا تسجيل العراقيين الذين لا يتابعون الدارسة. وساعدنا في تنظيم النشاطات للأولاد».

ليست حياة رافد في الأردن شاعرية بالتأكيد، لكنها مستقرّة. غير أن الأمور تبدّلت في أحد أيام تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧ وهو عائد إلى المنزل من عمله مع «فيلق الرحمة»:

> كنت في المنظمة غير الحكومية، ولما غادرت المكان تعرّضت للضرب على أيدي أربعة أشخاص. قال لي أحدهم إنهم من عناصر الشرطة. خرجوا من السيارة، وشرعوا في ضربي في الشارع، وجروني إلى السيارة. نقلوني في سيارة مرسيدس. أهانوني وأخذوا في شتمي وضربي. قالوا: «نعرف أنك عراقي ونريد طردك من هذا البلد. مكانك ليس هنا».

وعلمنا من زاهرة، صديقة رافد السابقة في الأردن، أن الحادث نتج عن قتال بين أبناء شقيقته وأبناء الرجال الذين شنوا الهجوم. وقالت: «بدأ الأمر نزاعًا بين أولاد، لكن البالغين، آباء وأعمامًا وانسباء، انتقموا منه. لم تكن لرافد أي علاقة بالمشكلة، فقد أراد وحسب حلها مع الأولاد»[1].

(١) مقابلة مع زاهرة أجراها مايكل أوترمان وتمارا فنجان في ٢ شباط/فبراير ٢٠٠٨ في عمّان، الأردن.

تواصل الهجوم الفاسق في داخل المرسيدس فيما انطلقت السيارة مسرعة من قرب مكتب المنظمة غير الحكومية. وتوقفت السيارة بعد بضع دقائق على مقربة من مخفر للشرطة. قال رافد: «كانوا يعرِفون شخصًا ما في المخفر. لم أدرك ما الذي يحدث - يضربونني ثم يأخذونني إلى الشرطة». ما إن أصبح رافد داخل المخفر حتى شرح للشرطي ما حدث. قال: «أنا متطوع. ظهر هؤلاء الأشخاص وحسب وشرعوا في ضربي». بدت الشرطة في البداية غير متأكدة مما يجب عمله. أصر الرجال الذين شنوا الهجوم على أن تتولى الشرطة ترحيل رافد، غير أن شرطيًّا تعاطف معه فنقله إلى المستشفى. وبيّن لنا رافد نسخة بالية من تقريره الطبي. ولاحظت الورقة بالعربية: «كدمات في الوجه وجروحًا في الوجه والعنق والركبة اليمنى والذراع والساق اليسرى. القلب في حال جيدة».

تقدّم رافد بشكوى لدى الشرطة، وأوقِفَ بعد أقل من أسبوع أحد الرجال الذين ضربوه. وقال إنه «ينتمي إلى الجيش أو إلى قوات الشرطة». وشرع عندذاك أصدقاء المشتبه فيه في الضغط عليه لإسقاط التهم. «حاولوا تخويفي لإجباري على القول إنني مخطئ وإنه ليس الشخص المعني». رفض، وأجريت المحاكمة. وُجد المتهم مذنبًا وفُرضت عليه غرامة صغيرة. لكن الحكم لم يضع حدًّا لمشكلات رافد الذي قال: «تلقيت بعد ذلك اتصالًا هاتفيًّا يطلب مني الحضور إلى فرع الاستخبارات». خاف مما قد يحدث، فذهب أولًا للتحدث إلى ممثلي المفوضية العليا للاجئين. «ذهبت لرؤيتهم وأبلغتهم أن الاستخبارات استدعتني إليها، فقالوا: إذهب، لا مشكلة». لم يستدعوا إلا رافد إلا أن شقيقه الأكبر عاصف أصرّ على مرافقته. «إنه يهتم لأمري»، قال رافد.

قصد رافد وعاصف الاستخبارات منذ الصباح - وبقيا ينتظران حتى الثالثة بعد الظهر. ثم اقترب منهما فجأة رجال باللباس المدني وكبلوا أيديهما وعصبوا أعينهما ووضعوهما في سيارة. وقال رافد: «قادونا إلى أحد السجون - إلى سجن صحراوي هو مركز احتجاز للمهاجرين». لم يُسمح للشقيقين بإجراء أي اتصال بأحد في السجن. وقال رافد: «أخذوا كل أوراقي - أوراق المفوضية العليا للاجئين -

وهاتفي الخلوي». وشرح أن وضع اللاجئ الذي تمنحه الأمم المتحدة «ليس له مفعول» في الأردن. لم تُسأ معاملتهما، لكن السجن كان مكتظّاً في شكل سيئ. تقاسم رافد وعاصف زنزانة مع ما لا يقل عن أربعين آخرين. وقال: «كنّا جميعًا في غرفة كبيرة. ووجد بيننا كثيرون من العراقيين والمصريين والهنود، والتجار العراقيين. ولم يفهم العراقيون سبب وجودهم هناك».

وفي شرق عمان، عرف الشقيق الأوسط من الشرطة المحلية مكان احتجاز شقيقيه. وقال رافد: «جاء بعد أسبوع إلى السجن حاملًا تذكرتي سفر بالطائرة». وهما تذكرتا ذهاب فقط إلى اربيل، المدينة الكردية الآمنة نسبيًّا في شمال العراق. أعاد حراس السجن إلى الرجلين وثائق الأمم المتحدة الخاصة بهما وهاتفيهما الخلويين، ثم واكبوا رافد وعاصف إلى المطار للقيام برحلتهما. وأقام الرجلان، بعودتهما إلى العراق، عند أصدقاء في أربيل ثم توجها جنوبًا إلى بغداد للحصول على تأشيرة دخول تجارية إلى سوريا. واستذكر رافد:

> التأشيرة التجارية مرتفعة الكلفة. وفرضت غرفة التجارة علينا إيداع مال في البنك، ٦٠ ألف دولار لكل شخص. وعرفنا شخصًا يمكنه فتح هذا الحساب باسمنا موقتًا، ويعيد لاحقاً نقله إلى اسمه.

حصل كل من رافد وشقيقه من غرفة التجارة على بطاقة تعريف بلاستيكية بأنهما تاجران، فأخذاهما إلى السفارة السورية لنيل تأشيرتيهما. وركب الشقيقان في ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧ الحافلة إلى دمشق – في رحلة طويلة لم يتخللها أي حادث. ويتشاركان الآن شقة من غرفتي نوم إلى جانب زقاق مظلم في جرامانا، في دمشق. ويمتلئ الشارع الرئيس في جرامانا بزخارف الحياة العراقية بما في ذلك متاجر الثياب، ومحال الأسطوانات والمطاعم. وتشكّل الفلافل «على الطريقة العراقية» – رغيف خبز كبير على شكل هلال مملوء بالكبيس والحمص بالكاري وأقراص الفلافل الكبيرة الهرسة – وجبة رافد الخفيفة المفضلة. وأجاب لدى سؤاله كيف يرى دمشق: «يصعب حقًّا قول شيء بعد شهر واحد. لا أريد حقًّا القول. فهي مجرّد دولة عبور – أريد في الحقيقة الذهاب إلى أهلي». فقد مُنحت والدته عام

٢٠٠٦ تأشيرة إنسانية واجتمع شملها بزوجها في أستراليا. وفيما سعى عاصف إلى العودة إلى الأردن للاستمرار في تشغيل شركة شحن مربحة أسسها في عمان، يقوم محام في سيدني بمعالجة طلب تأشيرة رافد للسفر إلى أستراليا. وقال رافد: «إن شاء الله سأتمكن من الذهاب إلى سيدني».

في أستراليا

سمحت أستراليا – الدولة التي يبلغ عدد سكانها نحو ٢١ مليون نسمة – منذ العام ٢٠٠٣ بدخول أكثر من ١١ ألف عراقي[١]. وحكت فاضلة وباسل اللذان التقيناهما في بداية الفصل، رحلتهما من العراق من غرفة الجلوس في منزلهما في كوفس هاربور. وشرحت فاضلة:

> قدّمنا، عام ٢٠٠٣، طلبًا للذهاب إلى أميركا... شعرت استياء من أنني سأذهب إلى البلد الذي اجتاحنا. وسعدت عندما رفضونا! وشعرت أيضًا الغضب لأنهم رفضونا. أشعر هذا الآن. ربما قرأوا على وجهي أنني لا أريدهم. قابلتني امرأة. إلتقطوا صورنا كما تلتقط صور المجرمين. تحدّثت معنا سيدة كبيرة في السن. طرحت علينا أسئلة كثيرة. أعطيتُهم معلومات جمة عن عائلتي[٢].

أحالت المفوضية العليا للاجئين في الأردن قضيتهما على كندا بعدما رفضت الولايات المتحدة طلبهما. وقالت فاضلة: «انتظرنا تسعة أشهر ولم نلقَ جوابًا. لا أعلم لماذا رفضنا الأميركيون أو الكنديون. أثار الأمر عصبيتي جدًّا». شعرت فاضلة وباسل تزايد عدم حصانتهما وقد أدركا تمام الادراك الضغوط التي يمارسها العراقيون على المجتمع الأردني. واقترحت عليهما المفوضية العليا للاجئين في عمان أن يجرّبا أستراليا، ووافق الزوجان من دون تردد. طرحت فاضلة قضيتها، في قوة، خلال

(١) "Statistics on Displaced Iraqis around the World," UNHCR.

(٢) مقابلة أجراها ريتشارد هيل مع فاضلة وباسل.

مقابلتهما مسؤولي الهجرة الأستراليين. واستذكرت: «قلت لمن أجروا المقابلة معنا إذا قبلتمونا فأبلغونا ذلك على الفور وإلا سأقفل راجعة إلى العراق. استغرق القرار يومين. بكيت عندما سمعت به. ولو لم يتم إبلاغي به لفكرت في العودة إلى بغداد».

اختلطت انفعالات فاضلة عندما حان موعد رحيلها وعائلتها من الأردن. تطلّعتْ إلى الأمان الذي توفره أستراليا، لكنها شعرت السوء لمغادرة عائلتها في العراق وعائلة باسل المحبة والداعمة في الأردن. وقالت متذكّرة:

> قبّلت أفراد عائلة فاضل. عانقتهم لأنني عرفت أن وقتًا طويلًا سيمر قبل أن أراهم من جديد. تمنوا لي الحظ الطيب وطلبوا أن أعتني بعائلتي. قالوا إن ليس جيدًا لقلبك أن تفكري بعائلتك. شكل ذلك وقتًا صعبًا لنا.

أثبتت الرحلة إلى أستراليا بالنسبة إلى باسل أيضًا أنها حلاوة تشوبها المرارة. إعتقد أنه سيحظى بفرص أكبر في تلك البلاد، ولكن صعبت عليه مغادرة عائلته في الأردن وحياته القديمة في بغداد. وتطلّب الأمر منه التعامل أيضًا مع حزن فاضلة. غير أن شعورًا بالسعادة والتفاؤل ساد في نهاية الأمر. وشرح باسل:

> وجدت خلال رحلتنا الجوية أن فاضلة مستاءة. فقد امتلكنا منزلنا الخاص في بغداد، وهو كناية عن فيلا كبيرة قريبة جدًّا من منزل أهل فاضلة – نحو عشر دقائق بالسيارة. وهي فيلا مؤلفة من أربع غرف نوم؛ جميلة جدًّا؛ وتحيط بها حديقة رائعة. لم نعرف لدى مغادرتنا إلى الأردن أننا نترك المنزل. خلفنا وراءنا كل شيء مثل الأثاث، الأثاث الغالي، وأيضًا الكثير من الأمور الجميلة. تركنا كل ثيابنا وكل ممتلكاتنا. تركنا المجوهرات. ولما غادرنا الفيلا انتقل إليها بعض الناس، لا أعرف من هم، ربما من الشيعة لكنني لست متأكدًا. ونحن غير متأكدين مما حلّ بمنزلنا. توجه والد فاضل إلى المنزل لكنه تعرّض للتهديد. هددوا بقتله. فكّرت بهذا وأنا في الطائرة، لكن الحياة مهمة، ونحن على الأقل لدينا حياة. أشكر لله كل شيء. شعرنا الإثارة ونحن في الطائرة. لقد كنا نتطلع قدمًا للذهاب

إلى أستراليا. علت وجوهنا الابتسامات العريضة، كنا سعداء. أصابتنا السعادة جميعنا حقًّا. سنتسعيد حياتنا. وعرفنا أن الصغيرتين ستشعران الأمان والسعادة.

أمنت منظمة «سانكتشواري» الأنغليكانية الأسترالية غير الحكومية الاستقرار للعائلة الشابة. وتشكل كوفس هاربور، وهي شاطئ مشمس مقصود في نيو ساوث وايلز الشمالية ذات المناخ الاستوائي، منطقة إعادة توطين شعبية ومقرًّا للكثيرين من شعوب أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط. واستذكر باسل وصول العائلة إلى كوفس هاربور في وقت مبكر من المساء بعد رحلة استغرقت ١٣ ساعة: «وصلنا ليلًا. أعتقد أنها كانت التاسعة مساء. خرجنا. الأمر مختلف جدًّا. وبوصولنا إلى المطار ساعدنا الكثيرون من الناس. كانوا لطفاء جدًّا». تدبّرت «سانكتشوراي» إقامة العائلة الشابة في منزل متواضع مؤلف من ثلاث غرف نوم. وصفه باسل بـ«الجنة» ووصف المدينة بـ«الجميلة». وقال إنه شعر الأمان والاطمئنان في المنطقة وسعد لإخراج فاضلة والصغيرتين من التهديد اليومي بالعنف. شعر أنه في «الديار» على رغم افتقاده وجود حديقة يمكنه أن يزرع فيها الخضر. لا يوجد أمام المنزل سوى فناء من الباطون.

إلتحق باسل وفاضلة، بعد بضعة أسابيع في أستراليا، بصفّ اللغة الانكليزية في المعهد المحلّي. وقال باسل: «تميّز الأمر بالصعوبة الكبيرة لأننا لا نتكلم الإنكليزية قط. عرفت قليلًا من الإنكليزية التي درستها في كلية طب الأسنان». وبات في وسعهما الآن تكلم إنكليزية المحادثة الأساسية، إلا أن باسل يخطط، ما إن يمتلك اللغة، لأن يستأنف عمله كتقني أسنان بعد توقف استمر منذ العام ٢٠٠٢. وتعتمد العائلة في هذه الاثناء على أموال الرعاية والمساعدة الحكومية في دفع الإيجار لتغطية النفقات. وقد تدبّرا، على رغم حياتهما المتواضعة، ملء بيتهما الجديد بكل تجهيزات المنزل الدافئ والمحبوب: أثاث نظيف وأنيق، سجادات نظيفة، صور ضمن إطارات، وبعض السيراميك الملون والزخارف، وأزهار مجففة في مزهريات أنيقة، ومجموعة باسل الكبيرة من أباريق القهوة الخزفية من مختلف أنحاء العالم.

ومع انتهاء محادثتنا في كوفس هاربور فكر كل من باسل وفاضلة مليًّا في مستقبلهما في أستراليا. إستبعد باسل فكرة العودة إلى العراق نهائيًّا: «كلا، بالنسبة إلي لم تعد هذه بلادي. وما أريد قوله هو أن أستراليا هي موطني». غير أن فاضلة شعرت من ناحيتها أنها «ستتمكن من العودة في يوم من الأيام، لكن هذا صعب ولا يزال حلمًا. أود أن آخذ ابنتيّ إلى هناك. آمل في أن تتمكن عائلتي من المجيء إلى هنا، فنحن هنا بعيدون جدًّا عن الجميع». إتسم صوت فاضلة بالحزن. وقالت: «أحب أستراليا، فعلًا». وأشرقت عيناها البنيتان الساطعتان وهما تعكسان الصور المتراقصة على شاشة التلفزيون المجاور. «فتحوا أذرعتهم لنا هنا، [لكنني] أشعر الحزن على الشعب في العراق. كما لو انني أمتلك عينين: واحدة لأستراليا والأخرى للعراق».



٣
فرض الرقابة على المدنيين

«اللاشخص» في رواية جورج أورويل «١٩٨٤» هو كل من تعد الدولة أنه لم يوجد على الاطلاق، وهو شخص يمكن لمجرّد وجوده أن يهدد الوضع القائم. وقد أعطى الغرب على نطاق واسع هذه المرتبة الغامضة للعراقيين: «اللاشعب» الذي – بتعابير المؤرخ البريطاني مارك كورتيس – «يُعدُّ عديم الجدوى ويمكن الاستغناء عنه في البحث عن السلطة والكسب التجاري»[1]. ولم تأت هذه التسمية عرضًا. فالصمت الإعلامي والحكومي المحيط بالشتات العراقي وبالضحايا البشرية للعدوان الأميركي هو جزء من خطة إقصاء منسقة. وعلى المرء دراسة الآليات الموضوعة للتمكن من وضع حد لهذا الصمت.

موضوعية مؤاتية

وضع المتخصص في الشؤون العامة في البحرية الأميركية الرائد أرثور أ. همفريز عام ١٩٨٣ مقالة مؤثرة عن حرية الصحافة في زمن الحرب صاغت السياسة الأميركية

(١) Mark Curtis, "Unpeople: Author's Introduction," online excerpt from Mark Curtis, Unpeople: Britain's Secret Human Rights Abuses, Vintage: London, 2004 <http://tinyurl.com/qqlj8s>.

للعقود المقبلة. ونُشرت مقالة همفريز في عدد أيار/مايو-حزيران/يونيو من تلك السنة في مجلة المعهد الحربي البحري Naval War College Review وتضمّنت الخطوط العريضة لـ«المشكلات» الكامنة للصحافة الحرّة ووسائل ضمان «الموضوعية المؤاتية» في الجسم الصحافي الأميركي(١). وكانت لمقالته آثار بعيدة المدى على الرقابة التي فرضها البنتاغون خلال النزاعات الممتدة من غرانادا عام ١٩٨٣ إلى العراق اليوم.

ألقى مفهومُ أن الإعلام الأميركي «خسر الحرب» في فيتنام من خلال إحباط الجمهور الأميركي، بثقله القوي على همفريز الذي رأى أن:

> عندما يشاهد أقارب أحد الجنود فتاهم، أو من يمكن أن يكون فتاهم، جريحًا أو مشوّهًا بالألوان الحيّة من خلال الصور التي تُعرض مباشرة أمامهم، يتجه ذلك إلى إصابة دعمهم لأهداف حرب حكومتهم بالتآكل. وهو ما حدث إبان حرب فيتنام. ونعرف ما الذي حل بالرأي العام نتيجة الجرعات المتكررة من مشاهد العنف الرهيبة التي تُعرض أمام جمهور غير جاهز لمواجهتها. وتبقى المسألة إذًا هي: ما الذي يمكن الحكومة أن تفعله حيال هذا النوع من المشكلات نظرًا إلى عاملي القدرات التقنية العالية في مجال الاتصالات والجمهور العالمي المؤتلف مع حرية الإعلام؟(٢)

وجد همفريز نموذجًا مثاليًا في سياسة المملكة المتحدة خلال حرب الفوكلاند، عندما فرض البريطانيون تحكمهم الكامل بالإعلام. فقد سمحوا لمجموعة صغيرة من ٢٩ صحافيًا فقط بمرافقة الجنود إلى الجزيرة الواقعة جنوب الاطلسي. وسمح هذا الترتيب للإنكليز بالتحكم بتحرّكهم تحكمًا كبيرًا وباستبعاد المراقبين المنتقدين من

---

(١) همفريز كما نقل عنه تيد غالين كاربنتر Ted Galen Carpenter, The Captive Press: Foreign Policy Crises and the First Amendment, Cato Institute: Washington DC, 1995, p. 166.

(٢) همفريز كما استشهد به جون ر. ماك أرثر John R. MacArthur, Second Front: Censorship and Propaganda in the Gulf War, University of California Press: Berkeley, 1992, p. 139.

الساحة. ولم تشهد سوى قلة على أي قتال فعلي. ومارست القوات البريطانية، علاوة على ذلك، تحكّمًا كاملًا بمقالات المراسلين – تم تمحيص كل البرقيات الصحافية قبل نشرها[1]. أعجب همفريز بهذا الترتيب وكتب في مجلة معهد الحرب البحري:

> تظهر لنا حرب الفوكلاند، بصرف النظر عن مفهوم الخيار في المجتمع الديمقراطي، كيف يتأكد لنا ألا تؤدي طريقة تغطية الحرب إلى تقويض سياسة الحكومة...
>
> توافرت في جنوب الأطلسي فرصة أن يشاهد المواطنون في الديار صورة حية، حقيقية، مباشرة لرجال من دولتين تتواجهان على جزيرتين عاديتين، وحتى ذلك الوقت غير مهمتين، وهم يقومون بأعمال دائمة وبشعة بعضهم في حق بعض. فبعد هجوم الـ«تيت» في فيتنام عام ١٩٦٨ شاهد الجمهور الأميركي، كما شاهد العالم بأسره أيضًا، نموذجًا من الإعدام على الطريقة الفيتنامية الجنوبية – إعدام حقيقي لجندي معاد عبر أجهزة التلفزيون في داخل منزله. وليس هذا هو النوع من الأمور ما يولّد الدعم في الوطن للحرب. ويجب، إذا أردت المحافظة على الدعم الشعبي للحرب، ألا يبدو من هم في جانبك برابرة من دون رحمة...

قدم نموذج الفوكلاند حلًّا: «التحكّم ببلوغ مناطق القتال، واستحضار الرقابة، وحشد المساعدة التي ترتدي ثوب الوطنية في الديار وفي منطقة القتال. وقد أظهر لنا كل من الأرجنتين وبريطانيا العظمى طريقة تطبيق هذه الحكمة»[2].

أشاد همفريز بالمقاربة العامة للبريطانيين، لكنه أخذ عليهم تشددهم أكثر مما يجب. فشل الإنكليز «في تقدير أن إدارة المعلومات هي أكثر من مجرد الرقابة الأمنية على الأخبار، إذ إنها تعني أيضًا توفير الصور». وأوضح أن على الإعلام أن يدار في عناية لا أن يُقفل عليه كليًّا:

---

(١) Carpenter, The Captive Press, p. 165.

(٢) همفريز كما استشهد به ماك أرثر. MacArthur, Second Front, pp. 138–40.

> من الضروري أن تقدم الحكومة وشعبتها العسكرية، كلما أمكن، إيجازات منتظمة إلى ممثلي كل المؤسسات الإعلامية من أجل تعزيز علاقة الثقة ورعاية دفق المعلومات الصحيحة ووقف التكهنات الخاطئة.
>
> وعلى الخطط أن تشتمل معايير لإدراج وسائل الإعلام الإخبارية في تنظيم الحرب... فحزمة القوة ترتد نزولاً عبر أقمار الاتصالات وتذهب إلى الطرف الذي يخبر القصة أولًا.
>
> يمكن وسائل الإعلام الإخبارية أن تشكل أداة مفيدة، بل وحتى سلاحًا، في مواصلة الحرب النفسية، فلا يضطر المشغّلون إلى استخدام أسلحتهم الأشد قسوة[١].

حفزت مقالة همفريز مسؤولي إدارة ريغان في معارضتهم تحرير الصحافة من الأغلال في زمن الحرب – لن يُسمح بعد ذلك للصحافة أبدًا بـ«إرباك» الجمهور في شأن أهداف الحكومة من الحرب. وبحسب تيد غالن كاربنتر، مؤلف «الصحافة الأسيرة: أزمات السياسة الخارجية والتعديل الأول» The Captive Press: Foreign Policy and the First Amendment، فإن «مقالة همفريز شكلت مسوّدة للتحكم بوصول الصحافة إلى مناطق الحرب ولإدارة الأخبار التي تنبثق في النهاية من ذلك. ويبدو أنها حازت اهتمامًا هائلًا من أرفع المسؤولين العسكريين والمدنيين...»[٢] إتبع البنتاغون، بدءًا من حرب بنما، توصيات همفريز واختلطت النتائج.

إدارة غرانادا وبنما وحرب الخليج الأولى

اجتاحت الولايات المتحدة غرانادا في ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣ – في «انتهاك فاضح للقانون الدولي» بحسب الجمعية العمومية للأمم المتحدة – لإطاحة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) Carpenter, The Captive Press, p. 167.

حكومة هدسون أوستن الماركسية. وسبق لأوستن، قبل ذلك بأيام، أن استولى على السلطة واغتال رئيس الوزراء موريس بيشوب. وكتب جون ر. ماك أرثور، مؤلف «الجبهة الثانية: الرقابة والدعاية في حرب الخليج في ١٩٩١» :Second Front Censorship and Propaganda in the 1991 Gulf War أن البنتاغون، «وبحسب معايير همفريز، لم يعالج» العمليات الإعلامية في غرانادا «في فاعلية». لم تكن هناك إدارة كبرى للأخبار– بل تغطية رقابية وحسب. وعلى غرار البريطانيين في فوكلاند، أغلقت واشنطن في البداية على الإعلام مانعة جميع الصحافيين من دخول الجزيرة إلى ما بعد انقضاء ٤٨ ساعة على بدء الاجتياح. وأُبعد الصحافيون المغامرون الذين حاولوا استئجار المراكب والطائرات أو احتجزهم المسؤولون العسكريون الأميركيون. وحذّر الأميرال جوزف متكالف، قائد القوة البحرية الأميركية المنتدبة: «هل يحاول أي منكم أيها الفتيان المجيء في مراكب صحافية؟ أنا أعرف حقًّا كيف أوقف تلك المراكب الصحافية. شرعنا في إطلاق النار عليها. لم نغرق أيًّا منها بعد، ولكن أنَّى لنا أن نعرف من تُقلّ»[1].

ولما سُمح أخيرًا للصحافيين بدخول الجزيرة، أخذهم المسؤولون العسكريون في جولات إلى مواقع بعيدة جدًّا من فظائع الحرب. ومُنع كلّ من أُمسك به ينفصل عن مجموعة الجولة من المشاركة المستقبلية. ولفّق البنتاغون، خلال التعتيم الإخباري، رواية المعركة وأعطى، على نطاق واسع، أرقامًا غير دقيقة عن الجنود الكوبيين وكميات الأسلحة السوفياتية على الجزيرة، وقلّص، كما سنرى في الفصل الرابع، من أرقام جثث المدنيين. ووجد تقرير «صندوق القرن العشرين» الصادر عام ١٩٨٥ عن الرقابة أن «لا سابقة في التاريخ الأميركي الحديث أن تمنع الحكومة منذ البداية التدفق الحر للمعلومات إلى الجمهور في شأن العملية العسكرية الرئيسة في غرانادا». وأمكن مع ذلك تهريب بعض الصور من الجزيرة على رغم التعتيم. فقد تمكن أحد المصورين الشجعان، وهو يعمل لمؤسسة التصوير الفرنسية «سيغما»، من الانفصال عن المجموعة والتقاط الصورة الوحيدة من النزاع لقتيل من المارينز – وهي

(١) MacArthur, Second Front, pp. 141–2; Metcalf quoted in Carpenter, The Captive Press, p. 160.

صورة نُشرت لاحقًا في مجلة التايم. ولاحظ ماك أرثر أن «لا بد من أن المسؤولين الإعلاميين في البنتاغون لاحظوا الأمر لأنهم حرصوا على ألا يتكرر أبدًا»[١].

ترأس اللواء وينانت سايدل، عقب حرب غرانادا، لجنة من البنتاغون تُعنى بحريات الصحافة زمن الحرب، أوصت بإنشاء تجمّع صحافي - مجموعة صغيرة من المراسلين يُسمح لهم بمرافقة الجنود الأميركيين خلال المراحل الأولى من العمل العسكري. وسيعمل مراقبو البنتاغون على حذف كل ما يُعدُّ أنه يشكّل تهديدًا لـ«أمن المهمة» قبل نشره. أضف إلى ذلك أن البنتاغون نفسه هو الذي سيختار وكالات الأنباء المشاركة. وبحسب تيد غالن كاربنتر فإن «التأثير العملي هو ضمان احتكار الأخبار من قبل أعضاء وسائل الإعلام السائدة الذين لا يُرجّح أن يكونوا من المعارضين الأشداء لسياسة التدخّل الخارجية الأميركية»[٢].

ولما استُخدم تجمّع الصحافيين خلال العمليات البحرية الأميركية عامي ١٩٨٧ و١٩٨٨، حذف مراقبو البنتاغون برقيات عدة وأخّروا بعض التقارير لما يصل إلى ٢٤ ساعة. واتُّبع نظام التجمع مرة أخرى في الغزو الأميركي لبنما عام ١٩٨٩، ففوّت في شكل كبير بداية الهجوم الذي هدف إلى إطاحة دانيال نورييغا واعتقاله. أُخّرت مغادرة التجمّع الولايات المتحدة إلى ما قبل ساعتين من بدء الهجوم، واحتُجز الصحافيون لدى وصولهم في إحدى القواعد الأميركية إلى أن انتهت المعركة الرئيسة. وعلى عكس غرانادا لم تجد أي صورة للإصابات الأميركية طريقها إلى موجات الأثير أو الصحف[٣].

واستُخدم نظام التجمع بعد ذلك بثلاث سنوات خلال حرب العام ١٩٩١ في الخليج لتصوير «حرب نظيفة»، الإصابات فيها قليلة. وكان حصر تحرك الصحافيين وبرقياتهم في أساس المخطط. وبحسب ما سجلته لوس أنجلس تايمز حينذاك:

على رغم اعتماد ١,٤٠٠ مراسل في السعودية الآن، لا يُشرك إلا مئة

(١) Carpenter, The Captive Press, pp. 159, 169–70; MacArthur, Second Front, p. 142.

(٢) Carpenter, The Captive Press, p. 173.

(٣) المصدر السابق ص. 175؛ MacArthur, Second Front, pp. 143–4

منهم كل مرة في التجمع الصحافي الذي يجب أن يواكبه الضباط العسكريون؛ ولم يخرج في أيام الحرب الـ٣٥ الأولى سوى نصف عدد هؤلاء المراسلين مع الجنود. وبقي معظم الباقين في فنادقهم في الظهران فيما مكث غيرهم في الرياض حيث يُقدَّم الإيجاز العسكري اليومي على بعد نحو ٣٠٠ ميل من جبهة القتال(١).

إرتاع الصحافيون المخضرمون من هذا الترتيب. وقال والتر كرونكايت: «تستحيل مع هذه المنظومة معرفة هل يمكن الوثوق بصحة الرواية التي يتلقاها الأميركيون». ورأى ستانلي كلاود، رئيس مكتب واشنطن السابق في مجلة التايم:

«تصوّر [البنتاغون] طريقة للتحكّم بكل وجه من أوجه تغطيتنا. قيّدوا وصولنا إلى حدِّ عدم تمكننا من القيام بأي من تحقيقاتنا الخاصة. أطعمونا حمية ثابتة من المؤتمرات الصحافية التي يقررون فيها ما ستكون عليه الأخبار. ويمكنهم، إذا تمكنا من الإفادة عن أمر لم يعجبهم، أن يحذفوه بالرقابة... الأمر أشبه بتجنيد الصحافة في الجيش(٢).

امتلأت الإيجازات اليومية للجيش الأميركي في السعودية بأفلام القنابل «الذكية» التي تسقط على أهدافها. وشكّلت الأسلحة الموجهة بالليزر سبعة في المئة فقط من القنابل التي أسقطت على العراق، ومع ذلك صوّرت أفلام الفيديو التي نشرها البنتاغون غارات ناجحة طارت فيها الصواريخ، في دقّة، عبر الفتحات العليا للمداخن ومن خلال النوافذ. وكتب المراسل الحربي غريغ إيستربروك في أيلول/ سبتمبر ١٩٩١ في النيو ريبابليك: «لم يتم حتى الآن، في هذه الحرب التي تُخاض في عصر الفيديو، نشر لقطة واحدة من فيلم يصوِّر، أي ما يشبه معركة تضم كائنات بشرية»:

جن جنون المراقبين العسكريين عندما سمح أحد القادة الميدانيين

(١) Thomas B. Rosenstiel, "Senators Told of Press Curb Problems," Los Angeles Times, February 21, 1991, p. 5A.

(٢) كرونكايت وكلاود كما استُشهد بهما في MacArthur, Second Front, pp. 155–6.

للمراسلين بمشاهدة فيديو رشاش إحدى طائرات الأباتشي وقد سجّل سرًّا إحدى الفرق العراقية. وبدا في الشريط مراهقون يهرعون في كل الاتجاهات وقد استبد بهم الرعب فيما تشطر رصاصات مدفع الهيليكوبتر، التي لا يمكنهم رؤيتها، كل جسد من أجسادهم نصفين. وسُحب هذا الفيديو سريعًا من التداول. ولمّا سألتُ أحد مسؤولي البنتاغون الكبار عن السبب، أجاب: «إذا سمحنا للناس برؤية هذا النوع من الأمور، لن ننخرط أبدًا في أي حرب بعد الآن»(١).

وانتشرت في حرب الخليج الأولى كنايات حقبة فيتنام، إضافة إلى الصور المنتقاة. واستذكر كاتب التحقيقات الصحافية مارتن يانت «التقليل من حساسية الإصابات المدنية بتسميتها «أضرارًا جانبية»، والإصابات الأميركية بـ«ق.ف.م.» [قتلوا في المعركة] وعمليات القتل بـ«الانهاك»»(٢). ووجد استطلاع أجري في آذار/مارس ١٩٩١ أن استخدام مثل هذه التعابير أخفى، في فاعلية، أهوال الحرب. وبحسب موجز لاستطلاع قامت به شركة تايمز ميرور:

سئل نصف المستطلعين هل هم قلقون في شأن حجم «الضرر الجانبي» الذي يحدثه القصف الحليف؟ ولما طُرح السؤال مستخدمًا هذه الكناية العسكرية للإصابات المدنية، ردّ ٢١ في المئة أنهم قلقون جدًّا و٣٤ في المئة أنهم قلقون إلى حد ما. ولكن تم تغيير التعابير في النصف الثاني من النموذج وجاء التباين في الإجابات مدهشًا. وبسؤالهم هل هم قلقون في شأن «عدد الإصابات بين المدنيين وغير ذلك من الأضرار غير المقصودة» في العراق، أفاد ٤٩ في المئة أنهم قلقون جدًّا و٣٣ في المئة أنهم قلقون إلى حد ما(٣).

---

(١) Carpenter, The Captive Press, p. 211; Gregg Easterbrook, "Operation Desert Shill: A Sober Look at What Was Not Achieved in the War», New Republic, September 30, 1991.

(٢) يانت كما استشهد به كاربنتر في .Carpenter, The Captive Press, p. 211

(٣) Thomas B. Rosenstiel, "Americans Praise Media But Still Back Censorship, Postwar Poll Says," Los Angeles Times, March 25, 1991, p. 9A.

شعر ٥٨ في المئة آخرون من الأميركيين أن الصحافيين «ذهبوا بعيدًا» عندما غامروا مبتعدين عن مجموعة صحافيي البنتاغون – وهو أمر لم تقم به سوى حفنة صغيرة جدًّا من الصحافيين المبادرين – فيما امتلك تسعة من أصل عشرة «حجمًا عظيمًا أو مقبولًا» من الثقة في دقّة التقارير العسكرية الرسمية عن الحرب. واللافت أن نحو ثلثي جميع الأميركيين شعروا أن «الرقابة العسكرية أكثر أهمية من قدرة الإعلام على نقل الأخبار المهمة»[١]. وتم، في ضوء مثل هذا القبول العام الكبير بالرقابة – إلى جانب الموجة الوطنية التي أعقبت هجمات ٩/١١ ـ المزيد من التعتيم على مسألة الإصابات المدنية خلال النزاعات الأميركية التي ستلي.

سيف ذو حدَّين

في البداية، لم تجد الإصابات في صفوف المدنيين مكانًا رسميًّا لها في الحرب الأميركية على الإرهاب – وهي المبادرة التي تدور على «حرب الأفكار». وبحسب «الاستراتيجية الأميركية لمحاربة الإرهاب»:

> سنخوض، إلى جانب المجتمع الدولي، حربًا من الأفكار تهدف إلى الإيضاح أن كل أفعال الإرهاب غير مشروعة، ولنضمن ألا تجد الظروف والإيديولوجيات التي تسوّق للإرهاب أرضًا خصبة في أي دولة، وللحد من الظروف الأساسية التي يسعى الإرهابيون إلى استغلالها في المناطق الأكثر عرضة للخطر، ولإحياء الآمال والتطلعات إلى الحرية لمن هم في مجتمعات يحكمها رعاة الإرهاب الدولي[٢].

غير أن تشويه المدنيين الأبرياء وقتلهم – وهذان من مظاهر الحرب التي لا يمكن تجنبها – سارا عكس هذا الهدف المعلن. ولاحظ سكوت شاغر Scott Shuger في «سلايت»: «بما أن جوهر الإرهاب هو الغياب الفاسق للاهتمام بحياة غير المقاتلين،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «National Strategy for Combating Terrorism," February 2003, p. 23 <http://tinyurl.com/o9olnb>.

فإن إظهارك أنت لذلك الغياب في الاهتمام يعني أن الجهد برمّته لا يبدو معيبًا وحسب، بل أيضًا معيب بالفعل»(١). وما هو رد البنتاغون على هذه المعضلة؟ المزيد من إغراق مسألة الإصابات في صفوف المدنيين في طبقات من التلفيق والسفسطة.

فور انتهاء حرب الخليج الأولى، مدّ البنتاغون غصن الزيتون لمديري الأخبار متعهّدًا أن «يتمكن الصحافيون من الوصول إلى كل الوحدات العسكرية الرئيسة» وأن على «ضباط الشؤون العامة العسكريين العمل كحلقة ارتباط من دون التدخل في عملية التغطية». وسرعان ما تلاشت الوعود مع اجتياح الولايات المتحدة أفغانستان. واندلعت الحرب من دون تفعيل تجمع الصحافيين فيما هدد دونالد رامسفلد بملاحقة كل مسؤول يسرّب معلومات عن الهجوم إلى الإعلام. ولم يفعّل البنتاغون مجموعته الصحافية الصغيرة الأولى إلا أواخر شباط/فبراير ٢٠٠٢ – أي بعد مضي نحو أربعة أشهر على بدء الاجتياح في تشرين الأول/أوكتوبر ٢٠٠١. سعى بعض المؤسسات الإعلامية، وقد واجه نقصًا في الصور على الأرض في أفغانستان، إلى شراء صور الأقمار الصناعية – وهو تكتيك سرعان ما أُلغي. وصرف البنتاغون في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١ ملايين الدولارات لشراء الحقوق التجارية للأقمار الصناعية التي تدور فوق أفغانستان. وشغّل الجيش الأميركي بالفعل ما لا يقل عن سبعة أقمار تجسس صناعية عالية الوضوح، واشترى مع ذلك قمر «أيكونوس» المدني – ومنع بالتالي مؤسسات الأخبار أو الأفراد من الوصول إلى صوره. وقالت الغارديان إن قرار منع الوصول إلى صور هذه الأقمار اتخذ «بعد تقارير عن إصابات شديدة في صفوف المدنيين نتجت عن قصف ليلي لمعسكرات تدريب على مقربة من دارونتا، شمال غربي جلال أباد». ولاحظت الصحيفة أن هذه الصور أتاحت رؤية الجثث ملقاة على الأرض بعد غارات الأسبوع الماضي بالقنابل»(٢).

(١) Scott Shuger, "Stop the Kabulsh*t," Slate, February 13, 2002 <http://tinyurl.com/r5kro9>.

(٢) Amitai Etzioni and Jason H. Marsh, Rights Vs. Public Safety after 9/11: America in the Age of Terrorism, Rowman & Littlefield: Lanham, Maryland, 2003, p. 73; "Afghan War Resurrects Tensions Between Journalists, US Military," Agence France-Presse, October 7, 2002 <http://tinyurl.com/qxct67>; Duncan Campbell, "US Buys Up All Satellite War Images," Guardian, October 17, 2001 <http://tinyurl.com/rxtx8g>.

زوّد ساسة البنتاغون المراسلين الصحافيين صورًا منتقاة وُزّعت عبر مراكز إيجاز تخضع لرقابة مشددة، متبعين في ذلك نموذج حرب الخليج. واشتكى مراسل سي.أن.أن. والت رودجرز من ذلك بالقول: «تمتعنا في تغطية العمليات السوفياتية في أفغانستان بحرية أكبر مما نتمتع به في كامب رينو» في إشارة منه إلى أحد معسكرات المارينز الأميركيين. وأضاف الناقد الإعلامي إدوارد س. هرمان: «حُشر المراسلون الأميركيون في قاعدة باغروم حيث يتلقون الإيجاز مرتين في اليوم... فيما انكب المراسلون في إخلاص على نقل هذه الأخبار وبثها». وتعرض الصحافيون، خارج غرفة الإيجاز، للتهديد عندما حاولوا تغطية الإصابات المدنية. ولما حاول دوغ ستراك من الواشنطن بوست زيارة موقع القصف الأميركي الذي أدى إلى مقتل عدد كبير من المدنيين، قال له القائد الأميركي: «إذا مضيت قدمًا فستتعرض لإطلاق نار». ولاحظ ستراك لاحقًا كيف أن الحادث أظهر «المدى الأقصى الذي يذهب إليه الجيش الأميركي للإبقاء على سرّية هذه الحرب، ولمنع الصحافيين من اكتشاف حقيقة ما يحدث». واستمرت التهديدات المشابهة بعد حوالى خمس سنوات على ذلك. ففي الرابع من آذار/مارس ٢٠٠٧، أجبر جندي أميركي صحافيَّيْن من الأسوشيتدبرس على محو صور وشريط فيديو التقطت في ساحة تفجير انتحاري وتبادل لإطلاق النار في أفغانستان مما أدى إلى مقتل ثمانية أفغان وجرح ٣٤ آخرين. دافع مسؤولو البنتاغون عن عمل الجندي ملاحظين أن الصور أو الفيديو التي يلتقطها «أناس غير مدرّبين» قد تظهر تفاصيل بصرية لا تتطابق مع ما كانت في الأصل[١].

ندد البنتاغون أيضًا بتغطية الشبكات العربية للإصابات الأفغانية وساوت بين هذه الشبكات والإرهابيين أنفسهم. وأفادت الجزيرة تكرارًا بالإصابات التي أنزلها

(١) رودجرز كما استشهد به إدوارد س. هرمان في Edward S. Herman, "Tragic Errors in US Military Policy: Targeting the Civilian Population," Z Magazine, September 2002 <http://tinyurl.com/dux98>; Struck quoted in "Afghan War Resurrects Tensions Between Journalists, US Military," Agence France-Presse; Matthew Pennington, "US Military: Censorship Was Justified," Associated Press, March 10, 2007 <http://tinyurl.com/2n9pf8>.

القصف الأميركي بالمدنيين. وفي ١٣ تشرين ألثاني/نوفمبر ٢٠٠١، سقط صاروخ أميركي في مركز المحطة الأفغاني في كابول. وقال المدير الإداري للجزيرة محمد جاسم العلي إن «هذا المكتب معروف للجميع وتعرف الطائرات الأميركية موقع المكتب وتعرف أننا نبث من هناك». وهو يعتقد أن المكتب قُصف قصدًا – وهي تهمة نفاها البنتاغون نفيًا قاطعًا[١].

تكاثرت رقابة البنتاغون وتلفيقاته وزاد منها تصاعد الرقابة الذاتية عقب هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. فبعد ٩/١١ صاغ مديرو الأخبار أخبارهم لاجتذاب موجة الوطنية التي اجتاحت البلاد يومذاك. وبحسب رينا غولدن، التي تولّت وقتذاك منصب نائبة الرئيس التنفيذية والمديرة العام للسي.أن.أن. الدولية، شوهت وسائل الإعلام الإخبارية في شكل صارخ تغطيتها لاجتياح ٢٠٠١ في أفغانستان. وقالت في آب/أغسطس ٢٠٠٢ إن «كل من يزعم أن الإعلام الأميركي لم يفرض الرقابة الذاتية على نفسه يهزأ منكم».

> ليس الأمر مسألة ضغط تمارسه الحكومة بل تردد في انتقاد أي شيء في حرب تحظى في شكل واضح بدعم الغالبية الكبرى من الشعب. وهذه ليست مسألة تتعلق بالسي.أن.أن. وحسب – فهناك مسؤولية جزئية أيضًا على كل صحافي منخرط في أي شكل في ٩/١١.

وأضاف المعلق في الإنترنت والناشط كورت نيمّو:

> اشتكى الكثيرون من الصحافيين من الرقابة التي فرضها الجيش إبان حرب الخليج قبل عقد مضى، ولكن يبدو الآن أن إعلام الشركات قرر من طرفه أن يراقب الأخبار من دون قيود خارجية يفرضها البنتاغون. وبعبارات أخرى، أصبح إعلام الشركات في الجوهر نوعًا من أداة دعاية قصيرة النظر وطيّعة لإدارة بوش. واللافت أنها تنسب هذا التحوّل الطيّع

(١) الجاسم كما نقلت عنه البي.بي.بي. "Al-Jazeera Kabul Offices Hit in US Raid," BBC, 13 November 2001 <http://tinyurl.com/o24tvm>; Matt Wells, "How Smart Was This Bomb?" Guardian, November 19, 2001 <http://tinyurl.com/ptgagg>.

إلى الرغبة في عدم الإساءة إلى الرأي العام الذي يدفع بها غرورها إلى افتراض أنه أحادي السياق. وتبدو سي.أن.أن. الآن كأنها وكالة الأنباء الحكومية الرسمية[1].

واعتُمدت الرقابة الذاتية في الصحافة التلفزيونية والمطبوعة على السواء. ودرست شهيرة فهمي في «صياغة الأخبار المرئية: هجمات ٩/١١ والحرب في أفغانستان في الصحف الإنكليزية والعربية»، تغطية صحيفتي «إنترناشونال هيرالد تريبيون» و«الحياة» للاجتياح من ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ إلى ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١. وبحسب فهمي:

> أظهرت الإنترناشونال هيرالد تريبيون تغطية أكثر لطفًا اختلفت في شكل كبير عن نظيرتها الصادرة باللغة العربية. نشرت الإنترناشونال هيرالد تريبيون صورًا قليلة جدًّا عن الدمار – ٥ صور – في مقابل ٢٠ صورة في الصحيفة العربية. ومما يستوقف الانتباه جدًّا هو أن جريدة الحياة نشرت ست صور للإصابات والقتلى في حين لم تنشر الإنترناشيونال هيرالد تريبيون أي صورة. وعلى المنوال نفسه، وبعكس الحياة التي لم تنشر صورًا للمساعدة الإنسانية الأميركية – المحددة على هذا الأساس في كلام الصور – نشرت التريبيون ثلاث صور. وتوحي النتائج، علاوة على ذلك، أن الحياة حاولت جذب قرائها بنشر صور أكثر للحياة اليومية في أفغانستان – ٣٦ صورة – في مقابل ثلاث صور فقط في الإنترناشونال هيرالد تريبيون[2].

(١) غولدن كما استشهد بها روس كيك في Russ Kick, “Senior CNN Executive Admits News Media Distorted Afghanistan War,” The Memory Hole <http://tinyurl.com/95w6>; Kurt Nimmo, “The Lapdog Conversion of CNN,” Counterpunch, August 23, 2002 <http://tinyurl.com/qcq9jk>.

(٢) Shahira Fahmy, “Framing Visual News: The 9/11 Attacks and the War in Afghanistan in English and Arabic Newspapers,” paper presented at the annual meeting of the International Communication Association, New Orleans, May 2004, p. 15. <http://tinyurl.com/o7vcsa>.

وفيما حوّلت إدارة بوش أنظارها من أفغانستان إلى العراق، استأصل السيف ذو الحدين للرقابة الذاتية للإعلام الغربي والرقابة المطلقة التي فرضها البنتاغون، الروايات العراقية. وتجربة هيلين توماس، التي تُعدُّ العميدة الكبرى للجسم الصحافي في البيت الأبيض، معبّرة. فقد غطت توماس نشاط كل رئيس منذ جون ف. كنيدي، إلّا أن إدارة بوش كرهتها، في قوة، بسبب أسئلتها المواجِهة. واستذكر المتحدث باسم البيت الأبيض حينذاك أري فليشر أنها، وبحلول العام ٢٠٠٣، أُبعدت إلى الصف الخلفي مع «صحافة الإنترنت وغير ذلك من غريبي الأطوار». وبحسب فليشر فإن الصحافيين مثل توماس ممن يطرحون الأسئلة الصعبة أُجلسوا في «سيبيريا»، فيما أجلس أصدقاء الإدارة «في المقاعد الأمامية قبالة» الرئيس. ولكن وفي ٢١ آذار/ مارس ٢٠٠٦، نادى بوش – ولأسباب لم تجد لها تفسيرًا بعد – على توماس للمرة الأولى منذ ثلاثة أعوام. طرحت توماس سؤالًا مباشرًا عن الحرب في العراق وتبع ذلك حوار ساخن:

هيلين توماس: أود أن أسألك، سيدي الرئيس، عن قرارك اجتياح العراق الذي تسبب بمقتل الآلاف من الأميركيين والعراقيين، وبجروح [كذا] على مدى الحياة للأميركيين والعراقيين. وتبين أن كل سبب أعطي، أقله علنًا، غير صحيح. وسؤالي هو: لماذا أردت فعلًا المضي إلى الحرب؟ ما هي أسبابك الحقيقية من اللحظة التي وطئت فيها قدمك البيت الأبيض ومن إنشاء حكومتك – مسؤولي حكومتك، جماعة الاستخبارات وإلى ما هناك ـ؟ قلت إنها ليست النفط – السعي وراء النفط، وليست إسرائيل، أو أي شيء آخر، فما هي؟

الرئيس: أعتقد أن افتراضك الأساس – مع كل احترامي لسؤالك ولك ولطول باعك الصحافي – هو أنني لم أرد الحرب. والافتراض أنني أردت الحرب ليس إلا مجرّد خطأ تام، يا هيلين، مع كل الاحترام الواجب.

هيلين توماس: كل شيء -

الرئيس: تمهّلي لحظة، أرجوك.

هيلين توماس: - كل ما سمعته -

الرئيس: عذرًا، عذرًا. ما من رئيس يريد الحرب. وكل ما يمكن أن تكوني سمعته هو ذلك، لكن وفي بساطة ليس صحيحًا. فموقفي من الدفاع عن هذه البلاد تبدّل في ١١ أيلول/سبتمبر. نحن، عندما هوجمنا، تعهدت استخدام كل ما هو متوافر لي لحماية الشعب الأميركي.

ودفع هذا الحوار الساخن بمعلّقين محافظين كثر، بمن فيهم بيل أوريلي من فوكس نيوز، إلى مهاجمة توماس على الهواء. وصف أوريلي السؤال بـ«السخيف» وبأنه «تجاوز للحدود»، لا بل مضى إلى حد القول إنه كان «ليطردها» لو كان مكان بوش. وقالت كارن هنريتي من «أم.أس.أن.بي.سي.» مندّدة إن «هيلين توماس تشكّل تجسيدًا لهوارد دين، وجورج سوروس، وسيندي شيهان، أي كل ما هو لاذع وجازم». وأعلن تاكر كارلسون من «أم.أس.أن.بي.سي.» لمشاهديه أن «هيلين توماس، المراسلة التي تحوّلت داعية، تستخدم مؤتمرات البيت الأبيض الصحافية لبث وجهات نظرها». وبكلمات شخصية الراديو الاستفزازية دون إيموس، فإن «على العجوز الشمطاء أن تقفل فمها وترحل. لقد ضقت بها ذرعًا»[١].

وعلى رغم أن توماس تعرّضت للهجوم من النقّاد اليمنيين، خصّت زملاءها بغضبها. وترى توماس أن ٩/١١ أدت بأعضاء الجسم الصحافي في البيت الأبيض إلى «الخوف من أن يصبحوا لاأميركيين ولاوطنيين». وعلى المراسلين أن يسألوا:

---

(١) فليشر كما استشهد به غلن غرينوالد Glen Greenwald, “Ari Fleischer on ‘the grid in front of’ the President,” Salon, February 11, 2009 <http://tinyurl.com/c4h6mn>; Josh Marshall, “So there you have it,” Talking Points Memo, 21 March 2006 <http://tinyurl.com/qkfazn>; “O’Reilly, Others Smear Veteran Journalist Helen Thomas Over Exchange with Bush,” Media Matters for America, March 27, 2006 <http://tinyurl.com/qzy2lc>.

«أنظر، لقد قلتَ هذا بالأمس وأنت تقول هذا اليوم... كيف يمكنك مقاربة الشعب الأميركي بهذا؟» وأضافت توماس: «يفترض بنا، في النهاية، أننا شعب مطّلع. يمكننا التعامل مع الحقيقة»(١).

تنضم توماس إلى جوقة متزايدة من الصحافيين والعالمين السابقين ببواطن الأمور في تحديد اتجاه مثير للقلق من الرقابة الذاتية الخجولة. وبحسب سكوت ماكليلان، السكرتير الصحافي السابق لبوش والذي تحوّل ناقدًا:

> كان الجسم الصحافي الوطني ربما مراعيًا جدًّا للبيت الأبيض وللإدارة في ما يتعلّق بأهم قرار واجه الأمة خلال سنواتي في واشنطن، وهو القرار المتعلّق بسؤال: هل يجب المضي إلى الحرب في العراق؟(٢)

أيّدت جيسيكا يلين، مراسلة السي.أن.أن. التي غطّت نشاط البيت الأبيض عامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٣ لمصلحة إي.بي.سي. نيوز و إم.أس.أن.بي.سي.، وجهات نظر ماكليلان، واضعة اللوم في الرقابة على مديري الأخبار. وجاء في نقاشها الأمر مع أندرسون كوبر من ضمن برنامج «٣٦٠» على السي.أن.أن.:

> صراحةً، وقع الجسم الصحافي، خلال التمهيد للحرب، تحت ضغط هائل من مديري الشركات للتأكد من عرض هذه الحرب بطريقة تتفق مع الحمى الوطنية في البلاد ومع التقويمات العالية المؤيدة للرئيس.
>
> وتنص تجربتي في البيت الأبيض على أن كلما ارتفعت معدلات التأييد للرئيس، تعرّضتُ للضغط من مديري الأخبار – ولم أعمل لهذه الشبكة [سي.أن.أن.] في ذلك الوقت – من أجل وضع تقارير إيجابية عن

(١) Helen Thomas (interviewed by Andrew Denton), "Enough Rope with Andrew Denton," ABC, July 7, 2008 <http://tinyurl.com/6kvw9x>.

(٢) Glenn Greenwald, "Scott McClellan on the 'liberal media,'" Salon, May 28, 2008 <http://tinyurl.com/63mpxx>.

> الرئيس... أخذوا يدفعونني في مختلف الاتجاهات. يرفضون مواضيع أكثر انتقادًا ويحاولون جمع مواضيع أكثر إيجابية... تلك هي تجربتي[1].

وكمثل يلين... كاتي كوريك من سي.بي.أس. التي ناقشت كيف شعرت «ضغط الشركة» لتفادي انتقاد إدارة بوش. وقالت عام ٢٠٠٧، «أعتقد أن اتجاهًا خفيًّا من الضغط وُجد لعدم هزّ المركب، لعدد من الأسباب، سواء تعلّق الأمر بأسباب خاصة بالشركة أو غيرها من الاعتبارات». وفُصل صاحب البرنامج التلفزيوني الطويل الأمد فيل دوناهيو بالفعل من عمله في أم.أس.أن.بي.سي. بسبب انتقاده حجة بوش للحرب في العراق. وبحسب مذكّرة سُرّبت من الأن.بي.سي.، ألغي برنامج دوناهيو لأنه عرض «وجهًا عامًّا صعبًا على الأن.بي.سي. في زمن الحرب... يبدو أنه يبتهج بتقديم ضيوف معادين للحرب، ومناوئين لبوش، ويشككون في دوافع الإدارة». واستبدل دوناهيو بعد ذلك بأسابيع بمايكل سافاج – المؤيد الشديد لإدارة بوش. ولاحظت الزميلة الصحافية في أم.أس.أن.بي.سي.، أشلي بانفيلد، أن تغطية الحرب في العراق «ليست بالصحافة» بسبب «وجود فظائع في هذه الحرب تم التغافل عنها كلّيًّا.» وأضافت:

> حريّة التعبير أمر رائع، وهو ما نحارب من أجله، ولكن لحظة تصبح غير مُسْتَمْرَأة، فإننا، ولسبب ما، نحاربها. وهذا ما تبدو عليه بالتحديد النزعة الأخيرة التي أخشى أن تكون، ربما، انعكاسًا لما كانت عليه الأخبار وما باتت تقع عليه التغطية الإخبارية عرضًا[2].

ما الذي استُبعد بالتحديد من التغطية الإخبارية؟ صرفت وسائل الإعلام الغربية،

---

(١) يلين كما استشهد بها غلين غرينوالد Glenn Greenwald, “CNN/MSNBC reporter: Corporate executives forced pro-Bush, pro-war narrative,” Salon, May 29, 2008 <http://tinyurl.com/4gc2zg>.

(٢) Steve Benen, “Couric faced ‘corporate pressure,’” Crooks and Liars, September 27, 2007 <http://tinyurl.com/qzeowu>; Greenwald, “CNN/MSNBC reporter: Corporate executives forced pro-Bush, pro-war narrative”; Rick Ellis, “Ashley Banfield: ‘Don’t Shoot The Messenger,’” All Your TV, April 28, 2003 <http://tinyurl.com/y8kl9z5>.

مع بعض الاستثناءات، القليل من الوقت في عرض وقع الحرب على المدنيين العراقيين واللاجئين. ولاحظت مؤسسة مراقبة الإعلام الأميركي غير الحزبية «فير» (النزاهة والدقة في التغطية الصحافية): «على رغم التقارير اليومية عن المواجهة مع العراق، لا يسمع الأميركيون الكثير من وسائل الإعلام السائدة عن أبسط حقائق الحرب: هناك أناس سيُقتلون، وبنى تحتية مدنية ستُدمّر مع نتائج مدمّرة للصحة العامة بعد وقت طويل على توقف القتال». استعرضت «فير» التغطية السابقة للاجتياح في العراق من ١ كانون الثاني/يناير إلى ١٢ آذار/مارس ٢٠٠٣، ووجدت أن:

> ما من نشرة من نشرات الأخبار المسائية لشبكات التلفزيون الكبرى الثلاث «إي.بي.سي. وورلد نيوز تونايت» و«سي.بي.أس. إيفنينغ نيوز» و«أن.بي.سي. نايتلي نيوز» – نظرت تفصيلًا إلى الوقع الطويل الأمد للحرب على الظروف الإنسانية في العراق، أو أولت أهمية لما سينتج عن الهجوم الأميركي من مقتل فوري للمدنيين[١].

أشارت الشبكات في شكل متفرّق إلى الإصابات المدنية، غير أنها سارعت إلى تفادي تحميل الولايات المتحدة أي مسؤولية. وقال مراسل «أن.بي.سي. نايتلي نيوز» كامبل براون: «إذا وقعت إصابات كثيرة في صفوف المدنيين فلأن العراقيين سيتسببون بها في الأساس». وشددت مراسلة «إي.بي.سي. نيوز» كلير شيبمان، من جهتها، على أن صدام حسين «شخص يسعد بقتل أبناء شعبه»، مضيفة أنه قد «يعمد إلى تجويع الآلاف من أبناء شعبه، وتدمير بناهم التحتية وحتى مدنًا بكاملها لإعاقة تقدم الجنود الأميركيين ويلقي اللوم من ثم على الولايات المتحدة». وبحسب مراسل «إي.بي.سي.» جون دونافان: «سيختار العالم لوم الولايات المتحدة على رغم أن صدام هو مصدر كل مشكلات الشعب العراقي»[٢]. وأدى مثل

(١) "Do Media Know That War Kills?," FAIR, March 14, 2003 <http://tinyurl.com/ojyngt>.

(٢) المصدر السابق.

هذا الريبورتاج المنحاز إلى دعم المفهوم القائل إن النزاع في العراق يشكل حربًا «نظيفة» وإن الولايات المتحدة لن تكون المسؤولة عن الإصابات، وهي مزاعم منافية للعقل حينذاك واليوم.

آفاق مُلحَقة

الروايات عن العراق الخالي من إراقة الدماء التي وفّرها البنتاغون مع وسائل الإعلام السائدة اندمجت بعضها ببعض فيما «ألحق» الصحافيون بالقوات الأميركية الغازية. وسمح برنامج الإلحاق العسكري للصحافيين «بالركوب مع» الجنود ومراقبة مهمتهم عن كثب. ورأى البعض في هذا التدبير ممارسة صحافية رائعة في زمن الحرب. وتحدّث مراسل النيوزويك جوناثان ألتر، على سبيل المثال، بفيض من الشعور عن أن الإلحاق وفّر «للصحافة وصولًا أكبر إلى الحدث من أي وصول في أي نزاع منذ فيتنام». وأضاف أن البنتاغون «يستحق الفضل لاستنباطه مثل هذا الحل الجيد للوجستيات تغطية المعارك، الذي ما كانت الصحافة لتطلب أفضل منه». وكان لمسألة الإلحاق الكثير من الجوانب السلبية على رغم أنها وفّرت لمراسلي المناطق الحربية حماية مادية أكبر. ولاحظ ديفيد ميللر، من «ميديا لنس»، عند بداية حرب العام ٢٠٠٣، أن «[الملحقين] لا يُسمح لهم بالتجول مستقلين... وتعني هذه القواعد الجديدة أن على الصحافيين ارتداء الملابس العسكرية والثياب الواقية ويبدأون، على ما يأمل البنتاغون، في التماهي مع الجيش»[1].

لم يختر جميع الصحافيين الالتحاق بالجنود الأميركيين، لكن معظمهم فعل. إلتحق، بداية الاجتياح، ٩٠٣ صحافيين بالقوات الأميركية والبريطانية، فيما جاب بغداد حوالى ١٥٠ صحافيًّا فقط من غير الملحقين. ووجدت دراسة أجريت عام

(١) Jonathan Alter, "In Bed With the Pentagon," Newsweek, March 10, 2003 <http://tinyurl.com/re9sjf>; David Miller, "Eliminating Truth: The Development of War Propaganda," Media Lens <http://tinyurl.com/o33hna>.

٢٠٠٦ حلّلت ٤٥٢ مقالة في الصحف الأميركية أن هؤلاء الصحافيين المُلحقين – بالمقارنة مع غير الملحقين – أنتجوا تغطية أكثر تعاطفًا مع الجيش و«أوحوا ضمنًا ثقةً أكبر حيال أفراد الجيش». وعام ٢٠٠٦ وجدت دراسة أخرى حللت ٧٤٢ مقالة إخبارية نُشرت ما بين ١٩ آذار/مارس ٢٠٠٣ والأول من أيار/مايو ٢٠٠٣ انحيازات مماثلة. ووجد مؤلف الدراسة أندرو م. ليندنر أن الصحافيين الملحقين استخدموا جنديًا كمصدر لهم في ٩٣ في المئة من المقالات، أي ضعفي ما يفعله الصحافيون المستقلون الذين يتحركون، في حرّية، وأكثر بما يقارب ثلاثة أضعاف ما يفعله الصحافيون المتمركزون في بغداد. ولم تغطِّ تقارير الصحافيين الملحقين سوى ١٢ في المئة فقط من الإصابات المدنية بالمقارنة مع نصف التقارير التي كتبها مراسلون متمركزون في بغداد و٣٠ في المئة من تلك التي كتبها صحافيون مستقلون. أضف إلى ذلك أن الصحافيين المتمركزين في بغداد والصحافيين المستقلين استخدموا مصادر عراقية أكثر بثلاث مرات من الصحافيين المُلحقين وكتبوا مواضيع عراقية ذات طابع إنساني أكثر بأربع مرات من الصحافيين الملحقين[1].

أصبحت تقارير الصحافيين المُلحقين، في معظم الأحيان، الأكثر نشرًا في الصحف الأميركية على رغم أنها تضمّنت العدد الأقل من المصادر العراقية، والأقل من المواضيع ذات الطابع الإنساني، وكانت الأقل تغطية للقتلى المدنيين. ووجد ليندنر أن ٧١ في المئة من المواضيع المنشورة في الصفحات الأولى لكبرى الصحف الأميركية جاءت من مراسلين مُلحقين. ووزّع ليندنر الأرقام على كل صحيفة، على حدة، فوجد أن ٦٠ في المئة من مواضيع لوس أنجلس تايمز جاءت من مراسلين مُلحقين، فيما كتب مراسلون متمركزون في بغداد الأربعين في المئة الأخرى، ولم تأتِ أي منها من صحافيين مستقلين. ووجد ليندنر أن الواشنطن بوست حصلت على ٥٥ في المئة من مقالاتها من مراسلين مُلحقين و٢٩ في المئة من مستقلين و١٥ في المئة من مراسلين يعملون في بغداد. وكانت النيويورك تايمز الصحفية الوحيدة التي

(١) Andrew M. Lindner, "Controlling the Media in Iraq," Contexts, Spring 2008 <http://tinyurl.com/yfutc8j>.

تم تحليلها واستخدمت معظم مواضيعها (٥٢ في المئة) من مصادر مستقلة إلى جانب ٣٧ في المئة من مراسلين مُلحقين و١٢ في المئة من مجموعات تتخذ من بغداد مقرًّا لها. ويتباين هذا في شكل صارخ مع أرقام «يو.أس.إي. توداي» الصحيفة الأكثر مبيعًا. فقد جاء مئة في المئة من مقالات الصحيفة في المدة التي تم تحليلها من مراسلين مُلحقين. وبحسب ليندنر فإن تفشّي الريبورتاج المُلحق ضَمَنَ جيلًا من التغطية «شدّد في قوة على تجارب الجنود في الحرب فيما قلل من شأن آثار الاجتياح على الشعب العراقي». وهكذا

> فإن إدارة أملت في أن تبنيَ الدعم للحرب من خلال تصويرها بالمهمة الناجحة ذات الكلفة المحدودة، أمكنها القيام بذلك من خلال برنامج الإلحاق ومن دون جهود الدعاية الأشد وطأة لعملية عاصفة الصحراء[1].

اعتمدت قدرة الريبورتاج المُلحق في شكل كبير على أمانة الصحافي في عكس التكاليف البشرية للحرب. عاش أحد المراسلين، وهو إيفان رايت من «رولينغ ستونز»، وسط الجنود – لكنه تمكن من رؤية تأثيراتهم في الشعب العراقي – وقد أُلحق بكتيبة الاستطلاع في فرقة المارينز الأولى. وكتب خلال تقدم المارينز نحو بغداد أن سيدات متقدمات في السن وقفن بأثوابهن السود خارج مجموعة من الأكواخ الطينية قبالة موقع الفصيلة «يحدّقن في الإست الباهت الأبيض لأحد عناصر المارينز وهو يتغوط في باحة فنائهن الأمامي»، وهو عارٍ من وسطه نزولًا. وقال أحد جنود المارينز حينذاك لرايت معلّقًا: «أتتخيل لو أن الأمر معكوس، فيأتي أحد عناصر الجيش إلى الضاحية في بلادنا ليتغوط في حديقة كل شخص؟ إنه، واللعنة، لأمر شاذ». وبعد ذلك بأيام، فنّد رايت، في دقّة، القتلى المدنيين عقب هجوم المارينز على الناصرية. وراقب الجثث على الطريق المؤدية إلى خارج المدنية وقد شوهت القافلة العابرة الكثير منها. وكتب أن الجثث أصبحت «مسطّحة وقد خرج من كل منها أمعاؤها». وأضاف:

(١) المصدر السابق.

مررنا بباص مسحوق ومحترق مع بقايا إنسانية متفحمة تجلس منتصبة عند بعض النوافذ. وثمة رجل على الطريق من دون رأس وفتاة صغيرة ميتة أيضًا، في الثالثة أو الرابعة، ممدة على ظهرها. وهي ترتدي فستانًا وقد فقدت ساقيها[1].

وبحسب رايت، فإن اطلاق النار على المدنيين في العراق له ما يبرره بمعنى وجود بعض الباصات المدنية التي أقلت مقاتلين فدائيين... ولكن عندما تشاهد فتاة صغيرة بلباس جميل، ألبسها أياه أحد ما، وقد سُحقت على الطريق وقطعت ساقاها، تعرف في الحقيقة أن فدائيين كانوا في الجوار وأن هذه أضرار جانبية.

وقال رايت لاحقًا إن ما ميّز عمله الاعتقاد أن نظرة الأميركيين للحرب «معقّمة جدًّا»[2].

رقابة ذاتية جماعية

جُمعت لاحقًا مقالات إيفان رايت المنشورة في «رولينغ ستون» في كتابه «جيل القتل» Generation Kill الذي اقتبسته محطة «إتش.بي.أو» لتنتج منه سبع حلقات تلفزيونية. سوى أن الريبورتاج المُلحق الجيّد عن الإصابات في صفوف المدنيين لم يضمن دومًا الحصول على عدد واسع من القراء أو على تأثير كبير. ففي ١٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥، على سبيل المثال، فتح الجنود الأميركيون النار على سيارة في تل عفر عندما لم يتوقف سائقها بعد الطلقات التحذيرية. قُتلت أم ووالد في المقعدين الأماميين – ولم يصب أولادهما الخمسة في المقعد الخلفي بأذى. وكان كريس هوندروس، المصور لدى «غيتي إيماجز»، ملحقًا بفرقة المشاة الخامسة

(١) رايت كما استشهد به مايكل ماسينغ Michael Massing, "Iraq: The Hidden Human Costs," New York Review of Books, vol. 54, no. 20, December 20, 2007 <http://tinyurl.com/288xyq>.

(٢) المصدر السابق.

والعشرين التي أطلقت النار القاتلة. أخذ هوندروس سلسلة من اللقطات التي تصوّر الصرخات الأليمة للأولاد العراقيين اليتامى، غير أن قائد الوحدة سعى إلى تأخيره عن إرسال الصور إلى ناشره. وشدد هوندروس على أنهم «لم يطلبوا قط الرقابة، بل طلبوا مني تأخير الإرسال». عرف أن التأخير قد يعني وصول الصور متأخرة جدًّا فلا يتم استخدامها، فأرسل مجموعة صور تل عفر كلها إلى ناشريه في الولايات المتحدة، إلا أن صحفًا قليلة نشرت اللقطات. وقال هوندروس إن هذه اللقطات، وعلى النقيض من ذلك، «هيمنت على ما يبدو على الخطاب في أوروبا حيث نشرها الكثير من الصحف المهمة على صفحات كاملة عدة»[1].

واجه وليام برانيغين من الواشنطن بوست عام ٢٠٠٣ ردًّا مماثلًا على تقرير أبرز التفاوت بين احتساب البنتاغون المدنيين القتلى والرواية التي قدمها شهود عيان. وأفاد برانيغين في الأول من نيسان/أبريل ٢٠٠٣ عن «مشهد شنيع على الطريق السريع الرقم ٩» أدى إلى مقتل عشرة عراقيين، بينهم خمسة أطفال دون الخامسة. وأضاف برانيغين، الذي كان موجودًا لحظة الهجوم، أن الجنود لم يطلقوا طلقة تحذيرية قبل فتحهم النار. وبحسب روايته الأخاذة صرخ النقيب روني جونسون، «يا [عبارة نابية] قتلتم للتو عائلة لأنكم لم تطلقوا طلقة تحذيرية في الوقت المناسب!» ومع ذلك لم تخبر غالبية الصحف الأميركية وبرامج الأخبار شيئًا عن هذا التفصيل الحاسم. ونشر معظم الصحف، بدلًا من ذلك، رواية البنتاغون للأحداث – وهي أن سيارة الفان لم تبالِ بطلقات المارينز التحذيرية. وعلى سبيل المثال، اكتفى موضوع النيويورك تايمز عن الحادث الذي نشرته بعد يوم على الرواية الأولى للواشنطن بوست، بأن يعلن وحسب – مستشهدًا برواية البنتاغون الرسمية للأحداث – أن «الجنود أطلقوا طلقات تحذيرية لوقف الفان، ثم أطلقوا النار على المحرك، إلا أن الفان تابع تقدمه مما أجبر

(١) In Pictures: Shooting in Tal Afar," BBC <http://tinyurl.com/r5xvd4>; Hondros quoted in Barbara" Bedway, "Why Few Graphic Images from Iraq Make it to US Papers," Editor & Publisher, July 18, 2005 <http://tinyurl.com/7rd94>.

الجنود على إطلاق النار على مقصورة الركاب». وكذلك، وبعد ١٨ ساعة بالتمام والكمال على نشر رواية الواشنطن بوست، أفاد الراديو العام الوطني:

> ما نسمعه هنا في الـ«سنتكوم» (القيادة المركزية الأميركية) هو أن الجنود أطلقوا رصاصة تحذيرية بينما كانت الآلية تقترب من نقطة التفتيش. ولم تتوقف. فأطلقوا النار من ثم على كتلة المحرك. وواصلت الآلية سيرها. فأطلقوا حينئذ النار على مقصورة الركاب وقتلوا سبعًا بين نساء وأطفال.

وضمّنت «أتلانتا جورنال-كونستيتيوشن» و«هيوستون كرونيكل» أعدادهما روايات مماثلة للأحداث. والغريب أن متابعة الموضوع التي تولاها صحافي آخر في الواشنطن بوست تضمنت رواية البنتاغون – لا رواية برانيغين. وبحسب «فير» (النزاهة والدقة في التقارير) فإن حفنة وحسب من الصحف – النيويورك ديلي نيوز، بوسطن غلوب، شيكاغو تريبيون، لوس أنجلس تايمز، سان فرانسيسكو كرونيكل – لاحظت التضارب[١].

وتجاهلت الصحف الأميركية أيضًا الريبورتاج الجيد لروبرت فيسك في الأندبندنت، وهو الصحافي غير المُلحق الذي كتب بعض أهم التحقيقات عن الإصابات التي ألحقتها الحرب بصفوف المدنيين. ففي ٢٨ آذار/مارس ٢٠٠٣، على سبيل المثال، قُتل أكثر من ٦٠ عراقيًا بسقوط صاروخ طائش في منطقة الشعلة في بغداد. وجاءت تغطية النيويورك تايمز للهجوم نموذجًا للرد الأميركي. لاحظت التايمز في اليوم التالي أن «صاروخًا سقط في منطقة أسواق حاشدة» و«استحال تحديد السبب»، مضيفة أن «متحدثًا باسم القيادة المركزية في قطر قال ليل الجمعة إن الولايات المتحدة لم يسعها القول ما الذي سبب قصف يوم الجمعة». زار فيسك المكان والتقط شخصيًا قطعة من الصاروخ الذي نشر رقمه المتسلسل في ٣٠ آذار/

(١) William Branigin, "A Gruesome Scene on Highway 9," Washington Post, April 1, 2003 <http://tinyurl.com/p7b6vw>; "Official Story Vs. Eyewitness Account," FAIR, April 4, 2003 <http://tinyurl.com/otrnpg>.

مارس ٢٠٠٣. وبعد ذلك بأيام تتبع زميله الصحافي في الأندبندنت، كاهال ميلمو، الرقم المتسلسل إلى شركة «رايثيون كوربوريشن» فأفاد أن السلاح «على ما يُعتقد» هو «إما صاروخ هارم المضاد للرادارات وإما قنبلة موجهة بالليزر من طراز بايفواي». وعلم ميلمو أيضًا من مصادر في البنتاغون أن طائرة «براولر إي.آي – ٦ ب» أميركية حلّقت فوق بغداد يوم الهجوم «وأطلقت صاروخ هارم واحدًا على الأقل لحماية مقاتلتين أميركيتين من بطارية صواريخ أرض – جو»[١]. واستمر الإعلام الأميركي، على رغم هذا الكشف، يردّد كالببغاء ما قاله البنتاغون. ولم يذكر روبرت بورنز في ٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٣ في النيويورك تايمز تقارير فيسك وميلمو، بل ألقى بدلًا من ذلك باللوم على العراقيين. ولاحظ أن المسؤولين العراقيين «أخّروا، ساعاتٍ، مواكبة المراسلين إلى الموقع، وتهرّبوا من الرد على استفسارات المراسلين عن الفجوة الصغيرة غير المعتادة في السوق...». كذلك شرح مقدّم برنامج «حديث الأمة» Talk of the Nation على الراديو العام الوطني، نيل كونان، أن مسؤولي الجيش الأميركي لم يتمكنوا حتى الآن من إيجاد الدليل إلى أن القصف مصدره سلاح أميركي. وقال: «سيمر بعض الوقت قبل أن نعرف بالفعل ما الذي حدث هناك، هذا إذا عرفنا»[٢].

كذلك خضعت صور الجنود الأميركيين – أبطال الحرب الأساسيين ـ الجرحى أو الذين يشارفون الموت للرقابة الذاتية الجماعية من وسائل الإعلام الأميركية الإخبارية. فقد نشرت الصحف الأميركية، من آذار/مارس ٢٠٠٣ إلى تموز/يوليو ٢٠٠٨، أقل من نصف دزينة من صور الجنود القتلى. وعام ٢٠٠٥ سُمح للمصور الحائز جائزة بوليتزر، جون ب. مور، بدخول المستشفى العسكري الأميركي في بغداد، مدة وجيزة، فالتقط صورًا للجنود الجرحى والمشوهين. وقد اهتم باستبعاد أي سمة قد تُعرّف بالجندي، تماشيًا مع سياسة البنتاغون. وقال مدير التصوير في الأسوشيتدبرس، سانتياغو ليون: «بذلنا جهدا لعدم إظهار الوجوه».

---

(١) Cahal Milmo, "The Proof: Marketplace Deaths Were Caused by a US Missile," Independent, April 2, 2003 <http://tinyurl.com/o5wjjd>.

(٢) «Media Should Follow Up on Civilian Deaths," FAIR, April 4, 2003 <http://tinyurl.com/q5l2dd>.

ولكن عندما أرسلناها، اختار عدد كبير من الصحف الكبرى في الولايات المتحدة عدم نشرها. وتشترك هذه الصحف وغيرها من وسائل الإعلام في نشراتنا المصورة. وهي تدفع مبلغًا مقطوعًا ويمكنها أن تنشر كل ما تريد نشره. وقد اختارت في هذه الحال عدم النشر.

كذلك نادرًا ما لاقت صور الجنود الأميركيين الجرحى التي التقطها المصور الصحافي السابق لنيوزداي، مويزس سمّان، طريقها إلى النشر. وقال: «يدرك الأميركيون أننا في حرب – ولكن لا يريد الكثيرون من الناس مشاهدة عواقبها الحقيقية، خصوصًا عندما يتعلّق الأمر بواحد منهم. وأعتقد أن بعض المنشورات يلبّي هذا الشعور من خلال محاولة عدم إغضاب المشتركين والمعلنين بتغطية قاسية و'مثيرة' للطبيعة الحقيقية للحرب»[1].

تعرّض المصورون الصحافيون لرقابة البنتاغون المباشرة، إضافة إلى الرقابة الذاتية. فقد حظر البنتاغون، طوال ١٨ عامًا، كل صور النعوش الملفوفة بالعلم الأميركي لدى بلوغها قاعدة دوفر الجوية في ديلاوير – السياسة التي لم تُسقط إلا في شباط/فبراير ٢٠٠٩. وفي ٢٠٠٨ طُرد مراسل الأسوشيتدبرس برادلي بروكز من شمال العراق لمجرّد تحدّثه مع جنود ينقلون النعوش من آلية «هامفي» إلى طائرة متوجهة إلى الولايات المتحدة. وهو، بحسب مسؤولين في البنتاغون، خالف «قاعدة جديدة» تحظر على الصحافيين المُلحقين التغطية وهم في طريق العبور إلى الوحدات التي تنتظرهم. وعاش زورايَهْ ميللر، الصحافي الحرّ، تجربة مماثلة. وقال: «أنت مصوّر حرب، ولكن ما إن تلتقط صورة للحرب على حقيقتها حتى تجد نفسك في ورطة». ونشر ميللر عام ٢٠٠٨ على الإنترنت مختارات من صور لعناصر من المارينز قتلوا في تفجير انتحاري في الفلوجة. وعلى رغم أنه أزال كل المميزات التي يمكن أن تدل إلى هوية الأشخاص، أبلغه مسؤول أميركي بعد ذلك بساعات قليلة

(١) Michael Kamber and Tim Arango, "4,000 US Deaths, and a Handful of Images," New York Times, July 26, 2008 <http://tinyurl.com/5a43os>; Lyon and Saman quoted in Bedway, "Why Few Graphic Images from Iraq Make it to US Papers".

وجوب حذف ما نشره في مدونته الإلكترونية. رفض ميللر فسُحب منه وضعه كمُلحق. وبعدما اعترض ميللر على مسؤولي البنتاغون، اتهمه هؤلاء بأنه وفّر «معلومات مفصّلة عن فاعلية الهجوم» وأنه «عرّض بالتالي القوات الأميركية في العراق لخطر إصابتها بضرر». وأدت الدعاية التي رافقت القضية إلى إعادة أوارق ميللر الصحافية الثبوتية إليه، غير أنه لا يزال ممنوعًا من توثيق عمليات المارينز الأميركيين. وتساءل ميللر لاحقًا: «كيف يمكن الأمور أن تتغير عندما يكون كل ما يخرجِ من العراق كناية عن صور معقَّمة للحرب مخصصة لوسائل الإعلام السائدة التي تركّز على كسب المال، لا على نوعية ما تنقله أو صحته؟»[١]

احملوا أفكارنا

أُلحق الإعلام بالجيش، غير أن الجيش ألحق نفسه بالإعلام أيضًا. وقام البنتاغون من عام ٢٠٠٢ إلى عام ٢٠٠٨ بعملية خفية تهدف إلى التلاعب بالرأي العام المحلي. وتألف برنامج البنتاغون، «المحلل العسكري»، مما يصل إلى ٧٠ جنرالًا سابقًا يحتفظون بعلاقات مهنية وتجارية قوية بالبنتاغون. يتلقى الجنرالات من محركيهم في وزارة الدفاع الإيجازات عن مواضيع نقاش محددة يتوجب عليهم طرحها عندما تجري شبكات التلفزيون والإذاعة الكبرى مقابلات معهم. وتعرّف الشبكة عن المحللين بأنهم مستقلون، مع أنهم يطرحون الأفكار التي زودهم إياها ضباط الإعلام في البنتاغون. ويستفيد الذين يُسوّقون للتلفيقات الرسمية بذلك للوصول أكثر إلى مسؤولي البنتاغون (رافعين بذلك من وضعهم كوسائل إعلام مُربحة)، فيما يُنتزع

(١) Elisabeth Bumiller, "Pentagon to Allow Photos of Soldiers' Coffins," New York Times, February 26, 2009 <http://tinyurl.com/aehay8>; Associated Press, "Media, Pentagon Spar Over Control of Information," Editor & Publisher, February 6, 2009 <http://tinyurl. com/dkpwl5>; Amanda Terkel, "Military Kicks Out Embedded Blogger For Photographing Marine Killed In A Suicide Bombing In Iraq," Think Progress, July 7, 2008 <http://tinyurl.com/6rdmdh>; Zoriah Miller (interviewed by Amy Goodman), Democracy Now!, July 14, 2008 <http://tinyurl.com/5ug5py>.

ممن لا يفعلون حقهم في الوصول إلى العارفين ببواطن الأمور. وجاء في مذكّرة نُزع عنها طابع السرّية بعث بها أوائل العام ٢٠٠٥ النقيب روكسي ت. ميريت مدير العمليات الصحافية في وزارة إلى عدد من المسؤولين الكبار في البنتاغون:

> بات للمحللين الإعلاميين تأثير أكبر فأكبر في تغطية الشبكات الإعلامية التلفزيونية للمسائل العسكرية. وباتوا الآن الأشخاص الذين يُقصدون ليس فحسب من أجل المواضيع الطارئة، بل لأنهم يؤثرون أيضًا في وجهات النظر حيال المسائل. ولديهم أيضًا تأثير كبير في المواضيع ذات العلاقة بالجيش التي تقرر الشبكة تغطيتها استباقيًا...
>
> وأنا أوصي بإنشاء مجموعة أساسية من ضمن لائحتنا من المحللين الإعلاميين ممن يسعنا الاعتماد عليهم لنقل أفكارنا... فنزودهم معلومات أساسية وقيّمة ليصبحوا الأشخاص الأساسيين الذين يجب على الشبكات أن تقصدهم وتشرع بنفسها في اجتثاث المحللين الأقل ركونًا إليهم والأقل ودًّا[١].

ظهر المحللون أو تم الاستشهاد بهم أكثر من ٤٥٠٠ مرّة في أخبار الشبكات وشبكات الكابل الإخبارية أو عبر الإذاعة الوطنية العامة. ودعم الجنرالات قضية حرب إدارة بوش، وقد وصفهم مسؤولو البنتاغون بأنهم «يضاعفون من قوّة الرسالة»، وأشادوا بمسلك الجيش في العراق، ورددوا صدى موقف الحكومة في حيّز من المسائل بما في ذلك خليج غوانتانامو وعمليات التنصت غير القضائية[٢].

(١) Glenn Greenwald, "How the military analyst program controlled news coverage: in the Pentagon's own words," Salon, May 10, 2008 <http://tinyurl.com/r88ddb>.

(٢) "Military analysts named in Times exposé appeared or were quoted more than 4,500 times on broadcast nets, cables, NPR," Media Matters for America, May 13, 2008 <http://tinyurl.com/o8x556>; Diane Farsetta, "Pentagon Rejects Its Own Pundit Program Whitewash," Center for Media and Democracy, May 6, 2009 <http://tinyurl.com/djks3c>.

عُلّق برنامج المحللين ما إن خرج وجوده إلى العلن، بيد أن مبادرات البنتاغون الأخرى لـ«إدارة التصوّر» لا تزال قائمة بالفعل. إذ يعمد ضبّاط الشؤون العامة إلى توزيع أفلام فيديو أو إلى رفعها مباشرة على اليوتيوب، تصوّر غارات جوية أميركية خاطفة، حاسمة، ومن دون إراقة دماء في صفوف الأعداء في العراق وفي أفغانستان. وقال الرائد ألاين كونواي، كبير ضباط الشؤون العامة في فرقة المشاة الثالثة المتمركزة في العراق، إن «على المرء أن يتأكد من أن الموضوع سيُحرَّر بالشكل الملائم». وتساءل وهو يحرر الفيديو: «هل من شأن هذا أن يجعل جو صاحب العضلات يرفع ناظريه عن عشائه أو عن وجبته السريعة وينظر إلى التلفاز ويقول: آه، إن القوات الأميركية تركل الأعقاب في العراق؟». ويشغّل ضباط الشؤون العامة، إضافة إلى أفلام المعارك، برنامج «طاولة مدونات إلكترونية مستديرة» دعي المدونون المتعاطفون مع الجيش إلى التفاعل فيه مع كبار مسؤولي البنتاغون. ويشغّل البنتاغون أيضًا «وكالة أنباء الديار»، المبادرة التي هدفت، عام ٢٠٠٩ وحده، إلى إصدار ما لا يقل عن ٥٤٠٠ بيان صحافي، و٣٠٠٠ بيان تلفزيوني، و١٦٠٠ مقابلة إذاعية أعطيت لوسائل الإعلام في مختلف أنحاء الولايات المتحدة. وفي اختصار، أنفق البنتاغون ٥٥٠ مليون دولار على «إدارة التصور» المحلية. وقال روبرت هاستينغز القائم بأعمال مدير الشؤون العامة في البنتاغون في دفاعه عن البرنامج إن «لا مكان للتلفيق في وزارة الدفاع. إذ يقضي دور الشؤون العامة بتزويدك المعلومات فتتمكن بنفسك من اتخاذ القرار عن معرفة واطلاع»[1]. حلّل كارل كونيتا من «مشروع البدائل الدفاعية»، جهاز الأبحاث السياسية، الذي لا يتوخى الربح، في معهد الكومونولث، مئات المقالات الإخبارية والخطابات والنصوص لتقويم طريقة تلاعب البنتاغون بالنقاش الوطني في شأن الحرب. ووجد كونيتا أن وزارة الدفاع دفعت بأربعة طروحات مُضللة تتعلق بالإصابات في صفوف المدنيين العراقيين في جهد منها للتخفيف من القيود التي اعتقدوا أن الرأي العام السلبي قد يفرضها على

(١) كونواي كما استشهدت به الأسوشيتدبرس "Media, Pentagon Spar Over Control of Information"; Hastings quoted in Chris Tomlinson, "AP Impact: Pentagon boosts spending on PR," Associated Press, February 5, 2009 <http://tinyurl.com/qqzahf>.

المجهود الحربي. وكتب كونيتا أن «فائدة» هذه الطروحات الأربعة، على رغم أنها قد تعكس بعضًا من الحقيقة «جاءت محدودة في توضيح المشكلة واحتمالات الأضرار الجانبية. وهي تهدف، إلى جانب قبولها كلها من دون تشكيك أو مجملها، إلى حرف النقاش العام في أمر الحرب وتداعياتها»[١].

قضى الطرح الأول والأقوى بأن «قدرات الولايات المتحدة على الهجوم الدقيق أنتجت ثورة في أعمال الحرب بما يسمح بشن حرب مع خفض كبير في عدد الإصابات والأضرار الجانبية»[٢]. وقد عبّر جورج دبليو بوش عن ذلك تعبيرًا جيِّدًا في خطابه في نيسان/أبريل ٢٠٠٣:

> طبقنا القدرات الجديدة للتكنولوجيا... القاضية بضرب القوة العدوة في سرعة ودقة غير معقولة. ونحن، بتركيبة من الاستراتيجيات الخلاقة والتكنولجيات المتقدمة، نعيد تحديد الحرب بشروطنا. وفي وسعنا في هذه الحقبة الجديدة من الحرب استهداف النظام لا الأمة[٣].

اكتسب هذا الطرح – الذي كرره المتحدثون باسم البيت الأبيض والبنتاغون ووزارة الخارجية إلى حدّ السأم – قدرة اجتذاب قوية لدى وسائل الإعلام الأميركية والبريطانية. وسجّل كونيتا:

> أفرطت العناوين الرئيسة في الإطراء على «عملية الحرية للعراق» بصفة كونها تشكّل مثالًا «للطريقة الجديدة للحرب» (وكالة أنباء كوبلاي ٠٣/٢٠/٣)، و«فنًّا جديدًا في الحرب» (دايلي ستاندارد، ٠٣/٠٣/٠٤)، و«أسلوبًا جديدًا في الحرب» (بالتيمور صن، ٠٣/١٣/٠٤)، سيؤدي فيه «القصف الدقيق» (نيويورك تايمز، ٠٣/٠٢/٠٢) «والاستهداف

(١) Carl Conetta, "Disappearing the Dead: Iraq, Afghanistan, and the Idea of a 'New Warfare,'" Project on Defense Alternatives, Research Monograph no. 9, February 18, 2004, p. 15 <http://tinyurl.com/o7rmkc>.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ص٦١.

الدقيق» (فاينانشل تايمز، ٠٣/١٦/٠٦)، و«الدقة في الهجوم» (لندن تايمز، ٠٢/٢٣/٠٩)، إلى «الضرب، في قوة، وإلى الضرب، في سرعة، وإلى حماية المدنيين» (بالتيمور صن، ٠٣/٢٤/٠٢). وسيمكّن هذا من شن حرب وفي الوقت نفسه من «تجنب المدنيين والمباني بل وحتى العدو» (افتتاحية في النيويورك تايمز، ٠٣/٣٠/٠٣) أو «تجنب البلاد وشعبها» (مينيابوليس ستار تريبيون، ٠٣/٢٧/٠٤)[1].

ولكن هل يمكن الأسلحة المتطورة فعلًا أن تنقذ الأرواح؟ ليس بالضرورة، على ما لاحظه كونيتا:

حصدت العمليات العسكرية الأميركية خلال عصر «الأعمال الحربية الدقيقة» (بدءًا بحرب الخليج الأولى) أرواح نحو ٥٠ ألف شخص في أنحاء العالم (من مقاتلين وغير مقاتلين)، فيما لم تحصد العلميات الأميركية المكشوفة في الأعوام الأربعة عشر التي سبقت حرب الخليج الأولى سوى أرواح نحو ألفي شخص[2].

على رغم قدرة القنابل الموجّهة بالليزر على إصابة أهدافها تكرارًا في اختبارات يتم التحكّم بها، يفرض نسق من العوامل في العالم الواقعي، الوقع القاتل الذي يمكن أن يؤديه السلاح «الذكي» في الحرب الحقيقية. ويتضمن ذلك الخطأ البشري، والعطل الميكانيكي، والخطأ في البرمجيات، والتقلّب في دقة أنظمة تحديد المواقع، والطقس، والاستخبارات العسكرية السيئة. وتكفل هذه العوامل – مجتمعة مع الطبيعة التدميرية المتأصلة للقنابل والواقع الفوضوي للحرب – سقوط القتلى في صفوف المدنيين. وهذه العوامل صاغت، على سبيل المثال، حملة «الصدمة والترويع» العسكرية الأميركية في بداية الاجتياح – وحولتها فشلًا ذريع على رغم استخدام الأسلحة الدقيقة. وبحسب هيومان رايتس واتش:

فشلت كل الهجمات الخمسين المعترف بها والتي استهدفت الزعامة العراقية. لم تقتل الغارات أي فرد من المستهدفين، لكنها قتلت وجرحت

(١) المصدر السابق ص٧١.
(٢) المصدر السابق ص٠٢.

عشرات المدنيين. وأعلن العراقيون، الذين تحدثوا إلى هيومان رايتس واتش عن الهجمات التي حقّقتْ فيها تكرارًا، أنهم يعتقدون أن الأشخاص المستهدفين لم يكونوا حتى موجودين حين شُنَّت الغارات[١].

وسيسقط القتلى المدنيون حتى لو أصابت الأسلحة الدقيقة من تستهدفهم من ضحايا. وبلغ متوسط عدد قتلى الغارات الجوية الأميركية ١٧ في السنة من العام ٢٠٠٣ إلى العام ٢٠٠٨ – وهو عدد مساوٍ لمتوسط المدنيين الذين قتلهم مفجرون انتحاريون من المشاة (١٦ قتيلًا في الهجوم الواحد). أضف إلى ذلك أن ٤٦ في المئة من ضحايا الغارات الجوية هم من النساء و٣٩ في المئة من الأولاد. ولاحظ كونيتا أن من «غير الممكن عمليًّا تفادي سقوط الضحايا من المدنيين من جراء استخدام الأسلحة الدقيقة»، نظرًا إلى أن «قنبلة تزن ألفي رطل ستحفر حفرة باتساع ٥٠ قدمًا وعمق ١٦ »[٢].

على رغم هذا الواقع، شدد البنتاغون – في طرحه الرئيس الثاني على ما حدده كونيتا – على «أنهم يفعلون ما في وسعهم، وبأكثر مما فعله أحد آخر من قبل، لتجنّب المدنيين». وهذا الطرح مُضلِّل لأن مقتل المدنيين ضُمِّنَ في خطط البنتاغون ولم يُستبعد منها. وتوجد في كل الاشتباكات العسكرية درجة مسموحة ومُتوقّعة من القتلى المدنيين. واستذكر مارك غارلاسكو، رئيس الاستهداف عند بداية الحرب، أن «الرقم السحري كان ٣٠. ويعني هذا أن إذا بلغ الرقم المتوقع للمدنيين القتلى الثلاثين فيجب أن يحمل الإذن بشن الغارة الجوية التوقيع الشخصي لرامسفلد أو لبوش». وتحدثت النيويورك تايمز عن الموافقة على أكثر من خمسين غارة مماثلة في الأيام الأولى للحرب. ولكن لا حاجة إلى أن يعرف الرئيس أو زير الدفاع في شأن الغارة إذا كان الرقم المتوقع للقتلى المدنيين أقل من ثلاثين. وعلى ما لاحظه

(١) Off Target: The Conduct of the War and Civilian Casualties in Iraq," Human Rights Watch, 2003," p. 6 <http://tinyurl.com/p7pzt8>.

(٢) The Weapons That Kill Civilians—Deaths of Children and Noncombatants in Iraq, 2003–2008"" (press release), Iraq Body Count, April 16, 2009 <http://tinyurl.com/ckrepb>; Conetta, "Disappearing the Dead," pp. 23, 25.

مارك بنجامين في «صالون» فإن «هذه القواعد تعني أن قتل المدنيين مشروع – ما دامت عمليات القتل تنتج عن الإغارة على هدف عسكري مشروع»[1]. ومقتل المدنيين ليس بالحادث العرضي على رغم ما قد يبذله البنتاغون من جهد لتفادي مقتلهم.

ويشدد مسؤولو البنتاغون أيضًا على أن عدد الإصابات «ليس بالضرورة ذا مغزى في تقويم نجاح المجهود الحربي أو تقدّمه» – وهذا هو الطرح الثالث الذي حدده كونيتا. وعلى سبيل المثال، عندما طُلب من المتحدث باسم القيادة المركزية النقيب فرانك ثورب أن يقوّم الخسائر المدنية العراقية والعسكرية، شدد على أن «الرقم قد لا يكون مؤشّرًا إلى شيء». ونظر البنتاغون إلى معايير أخرى، من مثل هل يُنظر إلى هزيمة العدو في مناطق جغرافية محددة من العراق، وقوة الجيش العراقي الجديد، أو معدّل اجتثاث حزب البعث، بصفة كونها مسائل أهم بكثير من القتلى المدنيين. وفي طرح البنتاغون هذا، الذي تبنته إلى حد كبير وسائل الإعلام السائدة، أُسقطت كليًّا معاناة العراقيين، الذين شُنت الحرب ظاهريًّا من أجلهم. وإذ لاحظ كونيتا أن للعوامل الأخرى صلة بتغطية النزاعات، قال إن تقديرات الإصابات حاسمة إذا كان الهدف المتوخى من الصحافة «مساعدة الجمهور على تقدير كلفة الحرب»[2].

وعد البنتاغون في طرحه الرابع الأخير عن الكلفة البشرية أن «معرفة عدد إصابات الحرب في شكل مؤكد غير ممكنة». وكما سنرى في الفصل الرابع، لا يزال مفهوم حقبة فيتنام هذا سائدًا على رغم وجود آلاف الوسائل لتقدير الأعداد الفعلية للجثث. وتكشف عناوين رئيسة من مثل: «تصاعد في الإصابات المدنية ولكن يصعب تقويم الاحصاءات» (بوسطن غلوب)، «عدد القتلى قد لا يُعرف أبدًا» (سياتل تايمز) و«إحصاء الإصابات في العراق مجرّد تخمين» (سي.بي.أس. نيوز)... أن وسائل

(١) أرلاسكو كما استشهد به مارك بنجامين Mark Benjamin, "When is an Accidental Civilian Death not an Accident?," Salon, July 30, 2007 <http://tinyurl.com/3dbprn>; Michael Gordon, "US Air Raids in '02 Prepared for War in Iraq", New York Times, July 20, 2003 <http://tinyurl.com/pdthry>.

(٢) ثورب كما استشهد به كونيتا في Conetta, "Disappearing the Dead," pp. 41, 43.

الإعلام تعطي صدقية لهذه الفرضية المضللة. وإذا أخذنا هذه الطروحات الأربعة معًا نجد أنها تغلف مسألة الإصابات المدنية العراقية بالالتباس وتعوّق «التقدير التام لتكاليف الحرب الدموية وانعكاساتها، وتجعل بالتالي التقويم المتزن لخيار الحرب أكثر صعوبة». وخلص كونيتا إلى «استحالة تحليل التكاليف ـ المنفعة الحقيقية للحرب، من دون احتساب تكاليفها البشرية في دقة»[1].

ترتيب الفلوجة

نجح البنتاغون في شكل كبير في جعل شبكات الأخبار الأميركية «تحمل أفكاره»، غير ولكن ثبت وجود صعوبة أكبر في احتواء وسائل الإعلام العربية ذات الامتداد العالمي. وقد سُرّب في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧ تقرير استخباري سري للبنتاغون إلى موقع «ويكيليكس» Wikileaks الذي يفضح المخالفات، يبرز القلق من محطة الجزيرة، ومركزها في قطر. وأنحى التقويم الداخلي للبنتاغون الذي مُهر أساسًا بطابع «سرّي/لا يُوزّع على حلفاء الولايات المتحدة»، بين عوامل أخرى، باللائمة على الجزيرة في «الفشل النسبي لمعركة الفلوجة الأولى» – وهو الحصار الذي فرضته الولايات المتحدة في نيسان/أبريل ٢٠٠٤ وأدى إلى مقتل ما يقارب ٦٠٠ مدني وتهجير مئات الآلاف من سكان المدينة الـ٢٨٠ ألفًا[2]. وتوفّر هذه الوثيقة، على غرار مقالة همفريز في مجلة المعهد الحربي البحري عام ١٩٨٣ عن حرية الصحافة في زمن الحرب، عدسة يمكن النظر من خلالها إلى ممارسة البنتاغون وسياسته المتعلقة بالتغطية الإعلامية للإصابات المدنية في العراق.

بدأت الاضطرابات في الفلوجة في نيسان/أبريل ٢٠٠٣ عندما حوّلت الفرقة

---

(١) المصدر السابق ص ٣، ٢٠٠٢-١٢، ٣٣، ٠٥.

(٢) Julian Assange, “Classified U.S report into the Fallujah assult,” WikiLeaks, December 25, 2007 <http://tinyurl.com/5jcp32>; “Complex Environments: Battle of Falluja I, April 2004” (NGIC Assessment), US Army National Ground Intelligence Center, p. 14 <http://tinyurl.com/r9khsb>.

الأميركية الثانية والثمانون المحمولة جوًّا إحدى المدارس مركزًا للقيادة العسكرية ومنعت جميع الطلاب من ارتياد الموقع. وفتح الجنود في ٢٨ نيسان/أبريل النار على حشد من الطلاب المحتجّين على الخطوة وقتلوا أكثر من دزينة منهم وجرحوا ٧٥. وقُتل، بعد ذلك بيومين، ثلاثة أشخاص آخرين وجُرح ١٦ وهم يحتجون على عمليات القتل السابقة. وكان مراسل الديلي ميرور، كريس هيوز، حاضرًا في الحدث الثاني:

> راقبتُ، في ارتياع، الجنود الأميركيين وهم يفتحون النار هنا في البارحة على حشد من ألف شخص أعزل. وقُطع الكثيرون، وبينهم أولاد، كل منهم نصفين من جراء رشقات تستمر عشرين ثانية من أسلحة رشاشة خلال تظاهرة احتجاج على مقتل ١٣ متظاهرًا، يوم الإثنين، عند مدرسة العهد[١].

أثارت عمليات القتل في نيسان/أبريل ٢٠٠٣ انتقامًا عنيفًا متبادلًا بين الجنود الأميركيين وأهالي الفلوجة بلغ ذروته في ٣١ آذار/مارس ٢٠٠٤ بقتل أربعة من الحراس الأمنيين تستخدمهم المؤسسة العسكرية الأميركية الخاصة بلاكووتر. ووُزّعت صور البقايا المتفحمة للمقاولين الأمنيين، وقد عُلقت على أحد جسور الفلوجة، في مختلف أنحاء العالم. ولاحظ تقرير البنتاغون الذي سُرّب أن «الفلوجة أصبحت رمزًا للمقاومة سيطر على العناوين الدولية الرئيسة». وقرر دونالد رامسفلد والقائد الأميركي جون أبي زيد والسلطة الائتلافية الموقتة برئاسة بول بريمر شن هجوم فوري إنقاذًا لماء الوجه. وقطع نائب مدير العمليات العسكرية في العراق الجنرال مارك كيميت وعدًا للصحافيين، في الأول من نيسان/أبريل ٢٠٠٣، وقال: «سنطوّع المدينة»[٢].

شن البنتاغون في سياق الأيام القليلة التالية «عمليات ترتيب» – ضرب المارينز

(١) هيوز كما استشهد به جميل ضاهر في Dahr Jamail, Beyond the Green Zone: Dispatches from an Unembedded Journalist in Occupied Iraq, Haymarket: New York, 2007, pp. 131–2.

(٢) Mark Kimmit and Dan Senor (press briefing), Department of Defense, April 1, 2004 <http://tinyurl.com/qd6fxk>.

طوقًا حول المدينة وأعلنوا عن هجوم وشيك ولم يسمحوا إلا للنساء والأولاد والعجّز بالمغادرة. ومُنع مرور جميع «من هم في سنّ الخدمة العسكرية» – وعددهم عشرات الآلاف – من عبور الحواجز. وفي الخامس من نيسان/أبريل ٢٠٠٤، شن ما يقارب الألفي مارينز هجومًا بريًّا على المدينة من كل جوانبها يدعمهم أكثر من ألف غارة جوية لإنقاذ الفلوجة مما يُقدّر بما بين خمسمئة «متمرد» وألف. وجاء في تقرير البنتاغون أن «الوقت القصير جدًّا المتوافر لترتيب العمليات قبل القتال أدى إلى ساحة معركة تعج بالمدنيين عند البدء به». وبعبارات أخرى، علق مئات الألوف من المدنيين وسط تقاطع النيران. وأوقف أبي زيد، في التاسع من نيسان/أبريل ٢٠٠٤، العمليات البرية الشاملة، على رغم أن «عبارة وقف إطلاق النار تشكّل سوء تسمية»، على ما لاحظ التقرير[١]. واستمرت الغارات الجوية الأميركية والقنص الذي يقوم به المارينز حتى نهاية نيسان/أبريل عندما أعلنت القوات الأميركية وقفًا للنار من جانب واحد وانسحبت من المدينة وسلّمت أمنها إلى الفلوجيين والجيش العراقي. وأدى ٢٦ يومًا من المعارك إلى مقتل ١٨ من المارينز في داخل الفلوجة وجرح ٩٦ آخرين. ووجد تقدير متحفّظ لمجموعة «تعداد الجثث في العراق» أن ما بين ٦٠٠ عراقي و٨٠٠ ممن أفيد عن موتهم هم من المدنيين – ٣٠٠ منهم من النساء والأولاد. وذكر البنتاغون لاحقًا أن قنّاص المارينز النموذجي سجّل ٣١ عملية قتل في الفلوجة – قتيل واحد كل ثلاث ساعات أو أربع خلال الخدمة[٢].

ركّز التقويم «السرّي/الذي لا يوزّع على حلفاء الولايات المتحدة»، والذي وضعه مركز الاستخبارات الميدانية الوطنية التابع للجيش، كثيرًا على مفهوم «عمليات المعلومات». وبحسب التقرير، فإن «أخبار القنوات الفضائية العربية كانت حاسمة في تعزيز الضغط السياسي لوقف العمليات العسكرية». وتابع:

---

(١) «Complex Environments: Battle of Falluja I, April 2004", pp. 4, 13, 7.

(٢) No Longer Unknowable: Falluja's April Civilian Toll is 600" (press release), Iraq Body Count," October 26, 2006 <http://tinyurl.com/pagcop>; "Operation Vigilant Resolve", GlobalSecurity.org <http://tinyurl.com/jcvnk>.

> تزداد عمليات المعلومات أهمية مضطردة في عالم القرن الواحد والعشرين حيث يعمل تلفزيون الكابل ٢٤ ساعة في اليوم وتقدّم الإنترنت فرصًا دعائية لمجموعات المتمردين والإرهابيين. وقد تحكّم العدو بالحضور الإعلامي في ساحة القتال؛ وصاغ، نتيجة لذلك، الكثير من المعلومات التي شاهدها العالم خلال القتال.

استفرد التقرير فريق الجزيرة الذي تمكن من التسلل إلى داخل المدينة قبل أيام على الحصار. ومن وجهة نظر البنتاغون:

> دعا المتمردون، خلال الأسبوع الأول من نيسان/أبريل، مراسل الجزيرة، أحمد منصور [كذا] وفريق تصويره إلى الفلوجة حيث صوّروا، في المستشفيات، أشرطة لأطفال موتى زعموا أن غارات الائتلاف الجوية قتلتهم. وأجريت المقارنات مع الانتفاضة الفلسطينية. وعُرض الأطفال وهم مثخنون بالدماء؛ وأُظهرت الأمهات، يومًا تلو آخر، وهن يصرخن وينتحبن[١].

دخل كبير مراسلي الجزيرة أحمد منصور ومصوّره ليث المشتاق وأحد المساعدين المدينة في ٣ نيسان/أبريل ٢٠٠٤. وبحسب المشتاق:

> تطوّعت من جهتي للذهاب إلى الفلوجة كمصوّر، وقد سئلنا [المقصود محررو الجزيرة] عمن يرغب في الذهاب إلى الفلوجة، فانبريت لذلك لأنني حريص على النقل والإفادة والتصوير الفوتوغرافي والتلفزيوني.

صوّر المشتاق ومنصور أكثر من ٥٥ ساعة من الفيديو في الفلوجة – الصور الحية الوحيدة التي التُقطت من داخل المدينة خلال الأيام الأولى على الحصار. واستذكر المشتاق:

> لم يمكننا في اليوم الأول للحصار – بل بالأحرى في اليومين الأولين – الذهاب حتى إلى الحمام، لأن الحمامات في مدينة الفلوجة الواقعة

---

(١) Complex Environments: Battle of Falluja I, April 2004," pp 13–14.

> غرب العراق قائمة عادة خارج الغرف، وهكذا أخذنا كلما فتحنا الباب للذهاب إلى الحمام، نشاهد ضوء الليزر من بنادق القناصة مصوبًا إلينا ولا يفصلنا عنهم أكثر من خمسين مترًا[١].

كانت لفريق الجزيرة أسبابه الوجيهة للخوف على حياته. فقد مات حتى اليوم ٣٤١ عاملًا في حقل الإعلام في العراق – بمن فيهم عدد من موظفي الجزيرة. فقبل عام تقريبًا على حصار الفلوجة في ٢ نيسان/أبريل ٢٠٠٣، قُصفت مكاتب الجزيرة في البصرة، وكذلك أطلق الجنود الأميركيون في ٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٣ النار على سيارة تحمل شعارات الجزيرة. وشن الجيش الأميركي في اليوم التالي هجومًا يكاد يكون متزامنًا على مكاتب الجزيرة وتلفزيون أبو ظبي في بغداد. نجا مراسلو تلفزيون أبو ظبي من الإصابة بالأسلحة النارية الخفيفة، إلا أن غارة جوية قتلت مراسل الجزيرة طارق أيوب وجرحت موظفًا آخر. وفي وقت لاحق من النهار قتلت الغارات على فندق فلسطين في بغداد صحافيين آخرين: تاراس بروتسيوك من رويترز وخوسيه كاوسو من الشبكة الإسبانية «تيليسينو»[٢]. لم يتخاذل فريق الجزيرة في الفلوجة وانتقل في ٩ نيسان/أبريل ٢٠٠٤ إلى قلب المدينة. ويستذكر منصور أنهم بوصلوهم إلى هناك:

> وجدنا جميع من في الفلوجة – أطفالًا ونساء وعجزة ـ يرفعون جميعًا الرايات البيض ويغادرون المدينة سيرًا أو في سياراتهم. شكّل ذلك يومًا كارثيًا حقًا بالنسبة إلينا. لما بلغنا قلب المدينة عند المستشفى كدت أفقد عقلي نظرًا للرعب الذي شاهدته، أناس يذهبون في كل اتجاه.

---

(١) مقابلة مع أحمد منصور وليث المشتاق أجرتها إيمي غودمان: Ahmed Mansur and Laith Mushtaq (interviewed by Amy Goodman), Democracy Now!, February 22, 2006 <http://tinyurl.com/qys-vdd>.

(٢) Iraqi media professionals killed in Iraq under US-Occupation," Brussels Tribunal, August 6," 2008 <http://tinyurl.com/ycgt5fm>; "Is Killing Part of Pentagon Press Policy," FAIR, April 10, 2003 <http://tinyurl.com/pp8l2v>; Adrienne Kinne (interviewed by Amy Goodman), Democracy Now!, May 13, 2008 <http://tinyurl.com/6b9en9>.

رافقني ليث وزميل آخر، وشعرت كأننا نحتاج إلى ألف كاميرا لالتقاط تلك الصور الكارثية: الخوف، الرعب، الطائرات التي تقصف، سيارات الإسعاف التي تنقل الموتى. وأخذت أصيح وأصرخ لليث ولزميلي الآخر، «كاميرا! كاميرا!» لنتمكن من التقاط الصور هنا وهناك.

واستذكر المشتاق لاحقًا، بين ما لا يُحصى من البربرية التي شهد عليها وسجلها، مشهدًا واحدًا يستحيل نسيانه:

جلست، قليلًا، أدخن سيجارة، فرأيت سيدة طاعنة في السن تأتي مع أولادها، وتدخل شاحنة كبيرة لتغادرة الفلوجة أو لتحاول مغادرتها. وعادت بعد ربع ساعة أشلاء، حتى عندما فتح الناس باب سيارة الاسعاف، وكنت أصور الحدث، وما إن شاهد رجال الإسعاف الجثة حتى أبعدونا عن المشهد المروع. وأذكر أن أحدهم، وكان يقف في الجوار، قال باللهجة العراقية النموذجية: «كونوا شجعانًا. كونوا محترمين. تخيلوا أنها والدتكم، فهل كنتم لتدعوها وشأنها؟ هل تتخلون عنها؟» فأخذها الناس بالتالي وحاولوا دفنها[1].

أثار بث الجزيرة من الفلوجة حنق مسؤولي البنتاغون. فاقترح الجنرال كيميت في ١١ نيسان/أبريل ٢٠٠٤ على العراقيين الذين شاهدوا التقارير التلفزيونية عن عمليات القتل الأميركية في الفلوجة «إبدال القناة إلى محطة ثقة صادقة إخبارية شرعية. فالمحطات التي تُظهر الأميركيين يتعمدون قتل النساء والأولاد ليست مصادر إخبارية مشروعة. تلك دعاية، وتلك أكاذيب». وأضاف المتحدث باسم السلطة الائتلافية الموقتة دان سينور في ١٣ نيسان/أبريل: «لدينا أسباب للاعتقاد أن مؤسسات إخبارية عدة لا تنخرط في التغطية الصادقة. وهذه في الواقع ليست تغطية إخبارية»[2]. وهتف رامفسلد في ١٥ نيسان/أبريل:

---

(١) مقابلة أجرتها إيمي غودمان مع منصور والمشتاق في «ديموكراسي ناو!»

(٢) "CNN to Al Jazeera: Why Report Civilian Deaths?," FAIR, April 15, 2004 <http://tinyurl.com/davlk>.

> في وسعي قطعًا القول إن ما تفعله الجزيرة آثم، غير دقيق، ولا يُغتفر... تعرفون ما تفعله قواتنا؛ فجنودنا لا يجولون في المكان يقتلون مئات المدنيين. هذا ليس إلا هراء فاضحًا. ما تفعله المحطة شائن[١].

وجاء في مذكّرة بريطانية حصلت عليها الديلي ميرور أن جورج و. بوش التقى في اليوم التالي توني بلير ليناقشا تقارير الجزيرة، بين أمور أخرى. وأراد بوش، بحسب الميرور «قصف الجزيرة في قطر وغيرها... [لكن] بلير أجاب أن ذلك سيتسبب بمشكلة كبيرة». وأضافت الميرور: «ما من شك في ما أراد بوش القيام به – وما من شك في أن بلير لم يرده أن يفعل ذلك»[٢].

لم ينفرد مسؤولو البنتاغون والسياسيون في غضبهم من الجزيرة – بل إن وسائل الإعلام الأميركية انتقدتها أيضًا. وعندما أجرت مذيعة السي.أن.أن. دارين كاغان في ١٢ نيسان/أبريل ٢٠٠٤، مقابلة مع رئيس تحرير الجزيرة أحمد الشيخ، انتقدته على تغطية محطته الإصابات المدنية في الفلوجة. واستشهدت بمسؤولين في البنتاغون لتسأل الشيخ هل يوافق «على أن الصور والتقارير التي تبثها الجزيرة على الهواء تضيف إلى الشعور بالخيبة وبالغضب وتُفاقم من مشكلات العراق بدلًا من المساعدة في حلّها». ودافع الشيخ عن تغطية محطته ووصفها بـ«الدقيقة» لأنها تعكس «ما يحدث على الأرض». لم ترض كاغان فتابعت ضغطها: «أوليس الموضوع مع ذلك أكبر من مجرد أرقام، مع كل الاحترام الواجب للمدنيين الذين فقدوا حياتهم؟» فعلى الموضوع، بحسب كاغان، أن يركّز على «ما يفعله المتمردون العراقيون إضافة إلى ماهية الرد العسكري الأميركي». وغاصت «فير»، المؤسسة التي تراقب وسائل الإعلام، في النقاش وقالت: «عندما تصف تقارير الميدان مئات المدنيين الذين تقتلهم القوات الأميركية [في الفلوجة] فعلى السي.أن.أن. أن تنظر في أفلام الجزيرة

(١) Jeremy Scahill, “Did Bush Really Want to Bomb Al Jazeera?”, Nation, November 23, 2005 <http://tinyurl.com/7jw74>.

(٢) Kevin Maguire and Andy Lines, “Exclusive: Bush Plot to Bomb his Arab Ally,” Daily Mirror, November 22, 2005 <http://tinyurl.com/78paj>.

لترى هل تعزّز هذه الحسابات – وليس الإلحاح بالسؤال على رئيس تحريرها ـ سبب عدم إخفاء هذه الصور»[1].

وتوافرت على الإنترنت وقائع تعزز الروايات عن المذابح في الفلوجة، فيما تجاهلت وسائل الإعلام الأميركية السائدة تقارير الجزيرة بل وانتقدتها. وجميل ضاهر دليل سابق في جبال ألاسكا تزايدت خيبته من تغطية الإعلام الأميركي للحرب إلى حد أنه سافر إلى العراق عام ٢٠٠٣ لتقديم تقارير على الإنترنت عن الوضع هناك. التقى جميل ورفيقاه في التدوين الإلكتروني راهول ماهاجان وجو ويلدينغ في العراق وقرروا دخول الفلوجة في ١٠ نيسان/أبريل ٢٠٠٤ لجلب المساعدة الطبية والمساعدة في إخلاء الناجين والتغطية من ساحة الحدث. إنتقل الثلاثة، لبلوغ المدينة، عبر طرق خلفية غادرة لا يحرسها المارينز. وما إن أصبحوا في داخلها حتى وجد جميل والآخران عيادة صغيرة تستقبل المرضى. واستذكر جميل:

> جُلبت إلى العيادة الضحية تلو الأخرى من ضحايا العدوان العسكري الأميركي، والجميع تقريبًا من النساء والأولاد. فمن لم تصبهم قنابل الغارات الجوية الأميركية أطلقت عليهم نيران القناصة الأميركيين. توقّفت سيارة الاسعاف العاملة الوحيدة التي بقيت لهذه العيادة في الخارج وقد نخرت ثقوب الرصاص جوانبها، وكذلك تُشاهد مجموعة صغيرة من آثار الرصاص على الزجاج الأمامي لجهة السائق. ورفض السائق، وقد ضُمّد رأسه بعدما مسته رصاصة أحد القناصة، نقل المزيد من القتلى والجرحى.

وشرح مكّي، مدير العيادة، لجميل:

> أطلقوا [الجنود الأميركيون] النار على سيارة الاسعاف وعلى السائق بعدما فتشوا سيارته ودققوا فيها وعرفوا أنه لا ينقل شيئًا. ثم أطلقوا عليه النار. وبعد ذلك أطلقوا النار على سيارة الاسعاف. وصرت الآن من دون سيارة إسعاف لنقل أكثر من عشرين جريحًا. لا أعرف من يفعل هذا أو

(١) CNN to Al Jazeera: Why Report Civilian Deaths?," FAIR.

لماذا يفعله. وهذا أمر رهيب لم يسبق أن حدث قبلًا. ولا أعرف بمن أتَّصِل، إذ يبدو أن ما من أحد يسمع[١].

وكتبت جو ويلدينغ في مدونتها ما شاهدته مع جميل في العيادة. فأشارت إلى أن المكان كناية

> عن عيادة جراحية خاصة بأحد الأطباء تعالج الناس مجانًا، مُذ دمرت الغارات الجوية المستشفى الرئيس في المدينة. وقد ارتُجلت عيادة أخرى في أحد مرائب السيارات. البنج مفقود، وأكياس الدم موضوعة في براد للشرب يسخنها الطبيب تحت صنبور المياه الساخنة في حمّام غير صحي.
>
> تأتي النساء الصارخات مصلّيات، وهن يلطمن صدورهن ووجوههن. تصرخ إحداهن: «يا أمي». أمسكتُ بها إلى أن جاء بي مكّي، المستشار ومدير العيادة بالوكالة، إلى سرير يتمدد عليه ولد يناهز العاشرة من عمره، ورأسه مصاب برصاصة. ويُعالج من إصابة مماثلة في السرير المجاور ولد أصغر منه سنًّا. أصابهما قناص أميركي وجدّتهما وهم يغادرون المنزل للهرب من الفلوجة.
>
> إنطفأت الأنوار، وتوقفت المراوح الهوائية وأشعل أحدهم، في الهدوء المفاجئ، ولاعة السجائر وحملها ليواصل الطبيب العمل على ضوء شعلتها. فقد قُطعت الكهرباء منذ أيام وعليهم، عندما يفرغ المولّد من المازوت، تدبّر أمرهم إلى أن يعود إلى العمل من جديد... لن تُكتب الحياة للولدين[٢].

أوصل راهول ماهاجان معلومات من الفلوجة على مدونته الإلكترونية، «أمباير نوتس» Empire Notes، وكتب لاحقًا مقالة عن تجربته في مجلة «كاونتربانش» Counterpunch نُشرت في تشرين الثاني/نفمبر ٢٠٠٤ – في وقت وضعت الولايات

(١) Dahr Jamail, Beyond the Green Zone, pp. 131–2, 138–9.

(٢) Jo Wilding, "Thawra," wildfirejo, April 30, 2004 <http://tinyurl.com/oz7dms>.

المتحدة المدينة تحت حصار قاتل آخر[1]. وكتب ماهاجان في ١٠ نيسان/أبريل ٢٠٠٤ مستذكرًا تجربته في العيادة:

> أخذ القناصة، على جاري العادة، يطلقون النار من دون تمييز على كل ما يتحرك. ولم يكن بين الأشخاص العشرين الذي جاءوا إلى العيادة التي راقبتها بضع ساعات سوى خمسة «من الذكور ممن هم في سن حمل السلاح». شاهدت نساء ورجالًا متقدمين في السن، وولدًا في العاشرة أصيب في رأسه؛ وأبلغني الأطباء أن حاله ميؤوس منها، على رغم أن إنقاذه كان ممكنًا في بغداد. وأحد الأمور التي ميّزها القناصة جدًّا هو سيارات الاسعاف وقد شاهدتها كلها وهي تحمل آثار الرصاص في هيكلها. وحملت اثنتان تفحصتهما دليلًا واضحًا إلى قنص محدد ومقصود[2].

حضر جميل وماهاجان، بعودتهما إلى بغداد في ١٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٤، مؤتمرًا صحافيًّا لخضير عباس، وزير الصحة في العراق آنذاك. وكان كاتبا المدونات الصحافيين الغربيين الوحيدين الحاضرين. وبحسب مهاجان:

> أكّد عبّاس أن القوات الأميركية أطلقت النار على سيارات الاسعاف ليس في الفلوجة وأطرافها وحسب بل أيضًا في مدينة الصدر. ووافق على وصف هذه الأعمال بالإجرامية، وقال إنه طلب تفسيرًا من «مجلس

---

(١) لرواية أكمل عن الحصار الوحشي الثاني للفلوجة، العملية التي عدَّها الجيش الأميركي أكثر «نجاحًا» من هجوم نيسان/أبريل، أنظر Noam Chomsky, “Returning to the Scene of the Crime,” TomDispatch, April 4, 2006 <http://tinyurl.com/r8sbkz>; Michael Shwartz, “Falluja: City Without a Future?,” TomDispatch, January 14, 2005 <http://tinyurl.com/ojlrc9>; John Plunkett, “Western Journalists Quit Falluja,” Guardian, November 9, 2004 <http://tinyurl.com/pbmfsb>; Mahmood Mamdani (interviewed by Amy Goodman), Democracy Now!, November 18, 2004 <http://tinyurl.com/omxq26>; and “Media Coverage Fails on Iraq: Fallujah and the Civilian Deathtoll,” Project Censored, 2006 <http://tinyurl.com/quhymg>.

(٢) Rahul Mahajan, “Fallujah and the Reality of War,” Counterpunch, November 6, 2004 <http://tinyurl.com/4uw2m>.

القيادة» ومن بريمير. وهذا تأكيد مثير، لكنك لن تراه منقولًا في أي من صحف الديار[١].

فيما أكد كاتبو المدونات، بل وحتى وزارة الصحة العراقية، صحة تقارير الجزيرة، أصر البنتاغون على أن مثل هذه التقارير معيبة. بل إن العدائية حيال الجزيرة بلغت حدًّا عظيمًا حتى أن منصور اعتقد أن الجنود الأميركيين تلقوا في النهاية أمرًا بقتله وفريقه. وبحسب منصور:

> جاء الجنرال كيميت ليلًا وقال إن «أحمد منصور ينشر الأكاذيب». ثم أطلقت علينا النار. أعتقد أنهم عرفوا تمامًا على ماذا تطلق دباباتهم النار. فليس ذلك بالأمر المجهول أو الخاطئ، بل كان مباشرًا. وبقينا أحياء لأن حياتنا لم تنته بعد.

بعدما بدا أن البنتاغون فشل في قتل منصور، عرض على سكان الفلوجة وقفًا للنار مشروطًا بخروجه منها. وقال منصور: «أُبلغنا أن مغادرة منصور المدينة هو الشرط الأول لوقف النار». وقرر المغادرة بعدما ناقش الأمر مع فريقه في الفلوجة ومع رؤساء التحرير في قطر. وقال: «إذا كان رحيلنا سيجلب السلام فسأغادر على الفور»[٢].

تعلّم البنتاغون أمثولات عدة من حصار نيسان/أبريل ٢٠٠٤. واستشهد التقرير السري بالعدد القليل نسبيًا من المراسلين «المُلحقين بوحدات المارينز التي تقاتل في الفلوجة»، واستنتج أن «العدو تحكّم بوجود الإعلام في ساحة القتال؛ وصاغ، نتيجة ذلك، معظم الأخبار التي شاهدها العالم إبان القتال». وأضاف التقرير أن الصحافيين الغربيين ينقلون «دليلًا منظورًا موازنًا تعرضه السلطات العسكرية». واستنتج أن الجزيرة، في غيابهم، «صاغت فهم العالم للفلوجة»[٣].

كان مراسل الراديو الوطني العام إريك نيلر بين الحفنة الصغيرة من الصحافيين

(١) Rahul Mahajan, Empire Notes, 18 April, 2004 <http://tinyurl.com/r6ax9s>.

(٢) مقابلة أجرتها إيمي غودمان مع منصور والمشتاق في «ديموكراسي ناوا!».

(٣) Complex Environments: Battle of Falluja I, April 2004," p. 14.

الغربيين الملحقين بالمارينز الذين يهاجمون الفلوجة. وتعطي أعماله مثالًا صارخًا عن نوعية التغطية المؤاتية التي يثمنّها البنتاغون جدًّا. وفي ٥ نيسان/ابريل ٢٠٠٤ قدّمت ميشال نوريس مذيعة الراديو، ملاحظاتها عن حصار الفلوجة إلى المستمعين وحاورت نيلر، كالآتي:

> تقدم المارينز، بمعية الجنود العراقيين، إلى مدينة الفلوجة العراقية المتمردة. شرعوا للتو في حملتهم على المتمردين الذين يُلقى باللوم عليهم في قتل أربعة مقاولين أمنيين أميركيين الأسبوع الماضي والتمثيل بجثثهم. ينتقل المراسل إريك نيلر، من الإذاعة الرديفة «كي.بي.بي. أس.» في سان دييغو، مع الكتيبة الخامسة من فرقة المارينز الأولى. وقد دخلوا هذا المساء المدينة حيث تدور الآن معارك بالنيران.

ما إن أصبح نيلر على الخط حتى سألته نوريس عن المشهد الراهن في الفلوجة. أجاب:

> نعم، يُسَجَّل هنا إطلاق للنار، وقد تقدّمنا من الأطراف إلى داخل المدينة. وأنا مع الوحدة التي استولت على منشأة كبرى لصناعة المواد الغذائية. أسمع تقارير عن إطلاق نار من أسلحة خفيفة في مكان ليس بعيدًا جدًّا عن موقعي. وهناك أيضًا طائرة كبرى من طراز «إي.سي-١٣٥» تسمى المدمّرة الشبح. وما أتت به إلى المدينة هو الكثير من قوة النار الجوية. ويحي، المكان كله مضاء الآن.

وسألته نوريس، «ما هو الهدف [من الهجوم]؟ وردّ نيلر «السيطرة على المدينة وإعادة النظام إليها. تلك هي الرسالة من المصادر العليا – من القيادة هنا». فسألته نوريس كيف هي الرحلة إلى داخل الفلوجة. هتف نيلر:

> قُتل أربعة من المارينز من ضمن قوة الحملة الأولى في انفجار عبوة ناسفة وجرح اثنان آخران، إصاباتهما خطيرة. وقد حدث ذلك منذ ساعات في حادث منفصل في مكان ليس بعيدًا جدًّا – ربما على بعد عشرة أميال من هنا.

وبعدما أخبر عن الجنود القتلى، عاد بالحديث إلى المسألة الراهنة:

> غير أن الناس أمضوا النهار كله في الاستعداد. شُنَّت هجمات بالهواوين. وعكف الناس على الاستعداد، يفعلون ما عليهم فعله لأنهم عرفوا أن الليلة ستكون ليلة كبرى. وقد اتجهت اندفاعتنا الأولى إلى واحد من أهدافنا، والأمور سارت في سلاسة حتى الآن[١].

وقد راق استخدام نيلر المصطلحات العسكرية، على الأرجح، لمخططي البنتاغون. وبدلًا من أن يناقش وضع الأطفال القتلى والعيادات المزدحمة، وصف نيلر معركة كان فيها المارينز وحسب «يضيئون» «المكان كله» خلال «الليالي الكبرى» و«الحملات» التي تجرى «في سلاسة» «لإعادة فرض النظام.» وكان الملحقون ذوي قيمة بالنسبة إلى الرسائل التي يقوم البنتاغون بتوجيهها من خلالهم، غير أن قلة مثل نيلر كانوا موجودين في هجوم نيسان/أبريل – وهذا خطأ سرعان ما صحّحه البنتاغون. وفي حصار الفلوجة في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤ وُجد ٩١ ملحقًا يمثلون ٦٠ وسيلة إعلامية. وبحسب البنتاغون: «أطلقت وسائل الإعلام العربية، في الحملتين، مزاعم كاذبة عن سقوط ضحايا من غير المقاتلين، غير أن المراسلين الغربيين الملحقين فنّدوا ذلك في الحال الثانية». و«حاول» نيلر، وله الفضل في ذلك، عدَّ الضحايا من المدنيين في برقيته من الفلوجة في ٥ نيسان/ابريل ٢٠٠٤. لكن محاولته تظهر المشكلات البنيوية للتقرير المُلحق أكثر مما تكشف عن الإصابات المدنية في حد ذاتها:

> لا أملك أي فكرة عن الإصابات في صفوف العراقيين. ولا يمكن أن أنكر أن الأمر يشكّل منظورًا من جانب واحد لأنني أتنقل مع المارينز، وهم القوة المهاجمة في المدينة، ولا يمكنني أن أقول أي شيء، في الوقت الراهن، عن الإصابات العراقية[٢].

---

(١) مقابلة أجرتها ميشال نوريس مع إريك نيلر .All Things Considered," NPR, April 5, 2004

(٢) Complex Environments: Battle of Falluja I, April 2004," p. 14; Niiler (interviewed by Norris)," "All Things Considered.

٤
الجثث لا تُحتسب

اتسمت الرسالة التي وجهها جورج دبليو بوش قبل الحرب إلى صدام حسين بالوضوح: الأميركيون الموتى يُحتسبون، أما العراقيون الموتى فلا. وحذّر بوش في خطابه أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة، خلال التمهيد لاجتياح العام ٢٠٠٣، من أن «إذا أراد النظام العراقي السلام، فعليه أن يُطلق جميع أفراد حرب الخليج المجهولي المصير أو يقدّم حسابًا عنهم. وعليه أن يعيد رفات من توفي منهم...»[1] وينبع هذا المطلب من مواثيق جنيف التي صدّق عليها الكونغرس الأميركي في الثاني من آب/أغسطس ١٩٥٥، والتي تجبر جميع الموقعين عليها أن يقدّموا حسابًا بجميع قتلى الحرب. وتطلب المادة الـ١٥ من ميثاق جنيف الأول من الدول «البحث عن جثث الموتى ومنع سلبها»؛ وتوعز المادة الـ١٦ إلى جميع أطراف النزاع بأن «يسجّلوا في أسرع ما يمكن، البيانات التي تساعد على التحقق من هوية الجرحى والمرضى والموتى الذين يقعون في قبضتها»؛ وتدعو المادة الـ١٧ الدول إلى أن «يتحقق أطراف النزاع من أن دفن الجثث أو حرقها يجرى، في كل حال، على حدة، بمقدار ما تسمح به الظروف، ويسبقه فحص الجثة في دقة، وفحص طبي إذا أمكن،

(١) Bush's UN speech" (transcript), BBC, September 13, 2002 <http://tinyurl.com/ry3jcz>.

بقصد التأكد من حال الوفاة والتحقق من هوية المتوفى والتمكن من وضع تقرير»[1]. غير أن البنتاغون والمدافعين عنه سعوا، على رغم هذه الضمانات، إلى تقويض جهود إحصاء الموتى في العراق. ففي كل مرة تظهر إحصاءات بالإصابات تجريها منظمات غير حكومية أو وسائل إعلامية أو علماء أوبئة، تُرفض منهجيتها وتُهاجم صفة مؤلفيها وتوضع تقارير مضادة لها. وما من جديد في هذا، فمنذ فيتنام – النزاع الأميركي الرئيس الأول الذي تغطيه مواثيق جنيف ظاهريًا – والولايات المتحدة تتوقع من أعدائها إحصاء الموتى، لكنها فشلت، في استمرار، في القيام بذلك بنفسها.

لا الوقت ولا الرغبة

أجمل كريس آبي مؤلف «الوطنيون: حرب فيتنام كما يتذكّرها جميع الأطراف» Patriots: The Vietnam War Remembered From All Sides، في إيجاز، عدم اكتراث الجيش الأميركي بإحصاء عدد المدنيين الفيتناميين القتلى – في مقابل احتسابه وجوهًا أكثر عادية من أوجه الحرب:

> أحصى الجيش الأميركي خلال حرب فيتنام كل شيء تقريبًا. والأكثر خزيًا هو أنه جعل من «إحصاء الجثث» مقياسه الأساس لـ«التقدم» الأميركي. لكنه أحصى أيضًا الطلعات الجوية، والقنابل الملقاة، والأنفاق المدمَّرة، ومناشير الدعاية المنثورة، وفراشي الأسنان الموزعة. بل ويمكن أن تجد في حنايا المحفوظات الوطنية عدد الصور بالأشعة (٨١,٧٠٠) التي التقطت عام ١٩٦٧ في مستشفى الاخلاء الثالث والتسعين التابع للجيش. ولكن لا يسعك أن تجد في سجل المحفوظات السوريالي والمخيف هذا أيًا من أكثر الإحصاءات بداهة وهو عدد القتلى المدنيين. وأُنكرت روتينيًا الإصابات في صفوف المدنيين، وتم تجاهلها أو وُضعت

(١) ميثاق جنيف الأول لتحسين وضع جرحى القوات المسلحة ومرضاها في الميدان، ٧١ آب/أغسطس ١٩٦٦.

في الفئة نفسها مع مقاتلي الأعداء؛ ومن هنا قول الجنود الأميركيين الشائن: إذا كان فيتناميًّا ومدنيًّا فهو فيات كونغ[١].

طُرح، في وقت مبكر من الحرب، حلّ بسيط لمراقبة ما يلحق بالمدنيين من أذى، غير أن البنتاغون تجاهله. وقد ذكر مراسل النيويورك تايمز تشارلز موهر عام ١٩٦٦:

> عملاء الاستخبارات المدفوع لهم أنفسهم من سكان الريف الذين يستدعون الغارات الجوية، يرفعون التقارير أيضًا إلى الفيتناميين وبالتالي إلى قيادة سلاح الجو الأميركي عن عدد الفيتناميين القتلى. وقال مصدر أميركي إن الكثير من مثل هذه التقارير يتضمن إشارة إلى المدنيين القتلى، لكنها لا تُمرر إلى سايغون[٢].

وبحسب مسؤولين أميركيين في سايغون عام ١٩٦٦ يظهر «من غير العملي جمع الإحصاءات عن الإصابات في صفوف المدنيين»[٣]. وأضاف الصحافي والمؤلف الفائز بجائزة بوليتزر نيل شيهان أن ليس لدى مسؤولي الولايات المتحدة وفيتنام الجنوبية «لا الوقت ولا الرغبة» في إجراء تقويم كامل للتكاليف البشرية في هذا الوقت[٤].

وأوحت ندرة أرقام المدنيين القتلى لسيناتور أميركي بالتحرك. فقاد السيناتور عن ماساتشوستس إدوارد م. كنيدي، وهو من أشد منتقدي الحرب، الجهد الحكومي القوي الوحيد لتحديد أعداد الإصابات المدنية في فيتنام[٥]. وقامت لجنة مجلس

(١) آبي كما استشهد به توم إنغلهارت، Tom Engelhardt, "Tomgram: Mike Davis on Bombshell Art," TomDispatch, September 18, 2003 <http://tinyurl.com/p26nwo>.

(٢) Charles Mohr, "US Acts to Curb Civilian Casualties in Vietnam," New York Times, August 17, 1966.

(٣) المصدر السابق.

(٤) Neil Sheehan, "Vietnam Peasants Are Victims of War," New York Times, February 15, 1966.

(٥) في ١٩٦٧، نشرت الوكالة الأميركية للتنمية الدولية، في شكل مستقل، بيانات مجتزأة عن الإصابات المدنية في المستشفيات في تحرّك أثار استياء البيت الأبيض في عهد جونسون. أنظر Jonathan Randal, "Toll of Civilians Rising in Vietnam," New York Times, April 21, 1967; and Neil Sheehan, "Kennedy Puts Vietnam Civilian Dead at 25,000 in 1970," New York Times, March 15, 1971.

الشيوخ الفرعية في شأن اللاجئين التي ترأسها كنيدي من العام ١٩٦٧ إلى العام ١٩٧٥ بإحصاء الإصابات المدنية من خلال التنقيب في سجلات المستشفيات الفيتنامية وإجراء المقابلات مع الأطباء وغيرهم من الفرق الطبية في الميدان في فيتنام الجنوبية. وقدّر كنيدي أن واحدًا من أصل ثلاثة مدنيين جرحى لم يبلغ قط المراكز الطبية – وهو إحصاء أدخله عاملًا في مجموع الإصابات. وبحلول العام ١٩٧٢، قدّرت لجنة كنيدي الفرعية وقوع ما لا يقل عن ١,١ مليون إصابة مدنية منذ العام ١٩٦٥ في فيتنام الجنوبية – بما في ذلك ما يزيد على ٣٢٥ ألف حال وفاة. ولم تصل لجنته إلى تقدير بالنسبة إلى فيتنام الشمالية لكنها خلصت، «بعكس وجهات النظر الأميركية الرسمية»، إلى أن «نتيجة القصف الأميركي في الشمال كانت تسجيل أكثر من مليون لاجئ وأوقعت «ضررًا هائلًا في المنشآت الطبية والمدارس والمنازل والكنائس والمراكز الثقافية في مختلف أنحاء البلاد»[١].

وكثيرًا ما سيطرت الحماوة على جلسات الاستماع التي عقدها السيناتور كنيدي في تلة الكابيتول. ففي ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٧٢ سأل كنيدي الجنرال جون و. باولي، نائب مدير عمليات هيئة الأركان المشتركة، هل تُجمع التقارير عن «الأضرار الجانبية» وترفع إلى «أعلى مستوى» في واشنطن؟ أجاب باولي، «كلا، يا سيدي، ليس كتقرير محدّد»، مضيفًا: «تقضي سياستنا بقصف الأهداف العسكرية فحسب، وبالتخفيف من الإصابات في صفوف المدنيين». وردّ كنيدي غاضبًا:

> يبدو من السجلات أن ليس هناك في قمة مستويات حكومتنا – حيث تتخذ قرارات القصف الهائل على فيتنام الشمالية – منهاج منتظم لمراقبة الضرر الذي يلحق بالمناطق المأهولة بالمدنيين، ورصده. يمكن المتحدث باسم الحكومة أن يتحدث، في دقة، عن عدد الجسور ومستودعات المؤن

(١) Neil Sheehan, "Edward Kennedy Finds Vietnam Toll of Civilians High," New York Times, May 8, 1967; Sheehan, "Kennedy Puts Vietnam Civilian Dead at 25,000 in 1970"; Neil Sheehan, "Kennedy Group Reports A Big Civilian War Toll," New York Times, May 25, 1972; Anthony Lewis, "The Death of the Heart," New York Times, February 7, 1974.

التي تُدَمَّر، ولكن لا تتوافر في الغالب معلومات عن الأضرار التي تلحق بالمدارس والمستشفيات والمنازل والمنشآت المدنية، حتى في جلسات السلطة التشريعية... يبدو أن [مسؤولي البنتاغون] يعملون على افتراض أننا لا نضرب المناطق الآهلة – إلا عرضًا – لأن هذه ليست سياسة حكومتنا ولا قصدها[1].

ومن شأن جدولة الموتى أن تشكّل طريقة مفيدة لتعيين دقيق، ومن ثم تصحيح للأساليب التي أدت إلى أذية المدنيين في شكل غير متناسب. وإذا كانت تقنيات الإحصاء التي استخدمها السيناتور كنيدي لا تُنتج أرقاما دقيقة فإنها تولّد صورة عن التكاليف الإنسانية التي تتصل اتصالًا خاصًا بالحملات العسكرية الهادفة إلى الفوز بـ«القلوب والعقول». غير أن البنتاغون سيستمر، في النزاعات اللاحقة، في إبعاد المسؤولية عنه وفي التقليل من أهمية إحصاء الإصابات المدنية وإمكان تحقيقها.

قد لا نعرف أبدًا

شدد مسؤولو البنتاغون إبان الاجتياح الأميركي لغرانادا على أن الجنود يمارسون «العناية الجراحية» ويستخدمون «القوة المحدودة» – كلمتان طنانتان لا تزالان تستخدمان اليوم. ولكن وبعد نحو أسبوع على نزول المارينز على الجزيرة الكاريبية الصغيرة، نشر البنتاغون بيانًا مقتضبًا لمعالجة تقارير صحافية عن القصف الأميركي لأحد مستشفيات الأمراض النفسية، وقد خلف ضحايا. وأفادت البرقية بالتأكد من مقتل ١٢ مريضًا على الأقل، متوقعة أن يستخرج موظفو المستشفى «أربعة أو خمسة آخرين» من المبنى المنهار. وبحسب البنتاغون «لم يعرف المارينز أن المستشفى أصيب ولم يزوروا الموقع بما أنهم لم يواجهوا أي مقاومة من جهته». وسئل المتحدث باسم البنتاغون لاري سبيكس لماذا استغرق الأمر أكثر من أسبوع للإعلان رسميًا

---

(١) Tad Szulc, “Aide Says Pentagon Does Not Receive Reports on Civilian Damage in North,” New York Times, October 9, 1972.

عن الغارة – وكان البنتاغون نفى حينذاك أي معرفة له بوقوع ضحايا مدنية – فتهرّب من الإجابة ملاحظًا أن العادة في غرانادا التي تقضي «بأن يدفنوا موتاهم باكرًا» قد تكون أحد العوامل. وزعم مسؤول في البنتاغون بما لا يقبل الاحتمال أن بعض المرضى العقليين قد يكونون أعضاء في الجيش الشعبي الثوري، وهو الميليشيا الماركسية التي سعت الولايات المتحدة إلى إطاحتها. وقال المسؤول: «ربما وُجد عناصر من الجيش الشعبي الثوري مدفونين هناك. لكنني لا أعتقد أننا سننبش جثثًا للتأكد من ذلك»[1].

استمر التشويش المحيط بإحصاء الإصابات المدنية خلال الغزو الأميركي لبنما. فوزير الدفاع حينذاك ديك تشيني وصف العملية التي شُنت في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٩ لاطاحة مانويل نورييغا بأنها «جراحية»، تميّز فيها الجنود الأميركيون الـ٢٤ ألفًا «بحرصهم الشديد وانتقائيتهم». ورفض البنتاغون في البداية توفير أرقام عن الإصابات في صفوف المدنيين في بنما ثم عاد وأعطى تقديرات متناقضة. وحمل المدعي العام الأميركي السابق وإحدى الشخصيات الأميركية الرائدة المناهضة للحرب رامسي كلارك، على ذلك بقوله:

> سُجّل فشل في معالجة المسألة في شكل صريح. ثمة دافع قوي واضح لعدم إحصاء الحكومة الجثث. ولكن يجب الانتباه إلى الأمر. فالتاريخ يطالب بأن يعرف، والإنسانية تطالب بأن تعرف، والمستقبل يطالب بأن يعرف عدد الذين قتلوا.

أوفدت منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان، ومركزها في بوسطن، فريقًا من الأطباء لتوثيق حصيلة الغزو على المدنيين. أحصى فريق تحقيق المنظمة القتلى ماديًا، واستنتج مقتل ما لا يقل عن ٣٠٢ من المدنيين البنميين، فيما نشد أكثر من ثلاثة آلاف آخرين العناية في المستشفى – وهي أرقام أعلى بكثير من تقديرات

---

(١) "The Situation in Grenada" (38/7), United Nations, November 2, 1983 <http://tinyurl.com/ol-lutj>; B. Drummond Ayres Jr., "US Concedes Bombing Hospital in Grenada, Killing at least 12," New York Times, November 1, 1983.

البنتاغون الأولى عن سقوط مئتين وقتيلين و١٥٠٨ جرحى. وعلاوة على ذلك، وجد محققو الفريق أن الولايات المتحدة لم تتحمّل المسؤولية الكاملة إلا عن أقل من ثلاثة آلاف من بين الـ١٨ ألفًا الذين هجّرهم الهجوم. ورفض متحدث باسم القيادة الجنوبية النتائج التي توصّلوا إليها على أنها «غير متناسبة». وعلّق متحدث باسم وزارة الخارجية على النقص في المساعدة الأميركية للاجئين البنميين، وأضاف: «ليست المسألة في أننا لا نريد مساعدة هؤلاء الناس، بل في أنهم لم يطلبوا منا ذلك»(١).

ورفض البنتاغون مرة أخرى إحصاء القتلى في حرب الخليج الأولى. ومنذ البداية أوضح البيت الأبيض والبنتاغون جيّدًا أن ليس هناك محاولة لقياس عدد القتلى المدنيين والعسكريين العراقيين. وقال القائد الأميركي نورمان شوارزكوف في أول مؤتمر صحافي بعد الشروع في الحرب: «لا فكرة لدي على الإطلاق عن الإصابات في صفوف العراقيين. وأقول لك، في حال كان لدي ما أقوله في شأن ذلك، إننا لن نخرط أبدًا في مسألة إحصاء الجثث. فالأمر في أفضل الحالات ليس أكثر من تقديرات تقريبية جامحة، ومن السخف القيام بذلك». وبحسب متحدث باسم القيادة المركزية الأميركية في الرياض: «لا نحصي الجثث ولا ندفن الموتى». وأضاف أن التخلص من الجثث يقع على عاتق السعوديين(٢).

(١) Phillip Bennett and Walter V. Robinson, "US Steps Up Drive to Gain Control of Noriega," Boston Globe, December 26, 1989; UPI, "US Lowers Estimate of Civilian Casualties to 202, Plans to Release 100 POWs," Los Angeles Times, January 13, 1990; Clark quoted in "US 'Hiding Real Toll' in Panama," Advertiser, January 8, 1990; Larry Rohter, "Panama and US Strive to Settle on Death Toll," New York Times, April 1, 1990; Douglas Jehl, "Panama's Civilian Toll Put Too Low, Investigators Say," Los Angeles Times, March 15, 1990; Douglas Jehl, "Panama's Troop Toll Cut: 314 to 50," Los Angeles Times, March 27, 1990.

(٢) John H. Cushman, "Pentagon Seems Vague on the Iraqis' Death Toll," New York Times, February 3, 1991; Holly Burkhalter, "Some Bodies Don't Count" (op-ed), Los Angeles Times, March 12, 1991.

بات يصعب على البنتاغون تجاهل مسألة إحصاء الجثث بعد القصف الجوي لملجأ في العامرية، وهو الهجوم الذي – على ما رأينا في الفصل الأول – قتل أكثر من مئتي امرأة وطفل. ولم يجد تحقيق أجرته «هيومان رايتس ووتش» أي دليل إلى وجود مسؤولين عراقيين كبار في الموقع الذي حُدد، في وضوح، على أنه ملجأ دفاعي للمدنيين، غير أن ديك تشيني ألقى باللوم الكلّي في سقوط القتلى على صدام حسين. وقال إن حسين «برهن تكرارًا استعداده لاستخدام شعبه ومنتوجاته الثقافية درعًا لحماية تجهيزاته العسكرية». وأصدر البيت الأبيض بيانا مُلطّفًا على أثر أنباء الهجوم:

> تشكل خسارة الأرواح المدنية في زمن الحرب عاقبة مأسوية فعلًا. ومن المحزن للجميع معرفة أن أناسًا أبرياء قد يكونون قُتلوا في سياق النزاع العسكري. فأميركا تعامل الحياة الإنسانية بصفة كونها إحدى أثمن قيمنا. ونحن لهذا السبب لا نستهدف المنشآت المدنية، حتى خلال هذا النزاع العسكري حيث تتعرض حياة جنودنا وجندياتنا للخطر. سنواصل وحسب ضرب الأهداف العسكرية [تشديد مضاف][١].

كتب جون كوشمان في النيويورك تايمز شارحًا الحسابات من وراء صمت الحكومة عن إحصاء جثث القتلى في العراق:

> قد تؤدي معرفة عدد القتلى العراقيين إلى إشعال الرأي العام العربي في الأردن وفي الأراضي المحتلة من إسرائيل حيث لصدام حسين مؤيدون كثر. ويمكن أرقام الإصابات أن تؤدي أيضًا إلى تفسّخ تضامن التحالف بإفقاد الحرب شعبيتها في بلدان مثل مصر وسوريا انضمت إلى الائتلاف.

(١) Times Staff Writers, “Raid Kills Hundreds, Iraq Says,” Los Angeles Times, February 14, 1991; “Needless Deaths in the Gulf War: Civilian Casualties During the Air Campaign and Violations of the Laws of War,” Human Rights Watch, 1991 <http://tinyurl.com/qzmzl7>; Associated Press, “Fitzwater’s Remarks: ‘Loss of Civilian Lives is Truly Tragic,’” Los Angeles Times, February 14, 1991.

ويمكن تصاعد عدد القتلى أيضًا أن يثير استفظاع الكثيرين في الولايات المتحدة ممن يعارضون الحرب على أسس أخلاقية.(١)

وعندما قدّر وزير الأوقاف العراقي عبدالله فاضل أن الاجتياح أدى إلى مقتل الآلاف من العراقيين بدخول الحرب أسبوعها الخامس، ندد جورج بوش بـ«آلة الدعاية العراقية المتحيّزة التي تنتج الكثير من الأساطير والأكاذيب». وأضاف تشيني: «لا نملك أي وسيلة لنعرف عدد الإصابات الواقعة بالضبط... وقد لا نعرف ذلك أبدًا»(٢).

كان الصمت الأميركي على مقتل المدنيين العراقيين في حرب الخليج الأولى مُطلقًا، إذ أعقبت ذلك فضيحة عندما نشرت باحثة حكومية أفضل تقديراتها عن التكاليف البشرية. عملت بيث أوزبورن دابونتي عام ١٩٩١، وكان عمرها ٢٩ عامًا، في قسم الأبحاث في مكتب الاحصاءات الدولية، وهو مكتب مكلّف تقدير عدد سكان البلدان الأخرى. وكُلفت حينذاك تقدير عدد سكان العراق، العمل الذي تطلّب منها تقدير عدد العراقيين الذي ماتوا نتيجةً للحرب وما أعقبها. إتّبعت الصيغ القياسية لمكتب الاحصاء وقدّرت الفارق بين أرقام توقعات الوفيات السابقة للحرب بين مختلف الجماعات الديمغرافية العراقية ومعدلات الوفيات الفعلية في ما بعد الحرب. وحددت دابونتي، باستخدامها هذه المنهجية، أن ١٣ ألف مدني تعرّضوا للقتل المباشر على أيدي القوات الأميركية وقوات الائتلاف وأن حوالى ٧٠ ألفًا ماتوا عقب الحرب من جراء سوء الحالات الصحية التي تسبب بها التدمير المقصود للبنى التحتية العراقية(٣).

أطلعت دابونتي أوائل العام ١٩٩٢ روبرت بورنز، وكان يومذاك مراسلًا

---

(١) Cushman, "Pentagon Seems Vague on the Iraqis' Death Toll.

(٢) James Gerstenzang and Norman Kempster, "Bush Assails Iraqi 'Myths and Falsehoods,'" Los Angeles Times, February 13, 1991; Barton Gellman, "Census Worker Who Calculated '91 Iraqi Death Toll Is Told She Will Be Fired," Washington Post, March 6, 1992.

(٣) Jack Kelly, "Estimates of Deaths in First War Still in Dispute," Post-Gazette, February 16, 2003 <http://tinyurl.com/5h68m>.

للأسوشيتدبرس، على بيانات الإصابات. وشرحت «أتلقى معاشي من دولارات الضرائب. وفكّرت في أن من حق الجمهور معرفة ما الذي توصلنا إليه». فطُردت دابونتي على الفور عندما ظهرت أرقامها على الملأ. كانت بابرا بويل تورّي يومذاك رئيستها في مكتب الاحصاء وكتبت في مذكّرة تسريحها أن النتائج التي توصلت إليها بدت «غير ذات ثقة». وأضافت أن استخدامها «المعلومات الكاذبة» يشكل انتهاكاً كبيرًا للثقة، وبالتالي فإن تسريحها يشكّل العقاب الفاعل الوحيد. وأعاد رؤساؤها بعد ذلك كتابة ما توصّلت إليه من نتائج عن الإصابات، مخفضين أعداد الموتى المدنيين في زمن الحرب من ١٣ ألفًا إلى خمسة آلاف وأزالوا من تقريرها النهائي رسمًا بيانيًّا يقسّم الأرقام بين الرجال والنساء والأولاد. ولما ذكرت وسائل الإعلام لاحقًا خبر تسريح دابونتي، نفى متحدث باسم مكتب الإحصاء أن تكون طُردت بسبب محتوى تقريرها. وزعم المكتب، بدلًا من ذلك، أن الاجراء اتخذ لأن المعلومات «نُشرت قبل أوانها». وأبلغ جوزف سيللرز، وهو من لجنة محامي الحقوق المدنية في واشنطن، الواشنطن بوست في ذلك الوقت أن طردها «ينم إما عن انتقام وإما عن ظاهرة كشف المستور أي عندما يكشف شخص ما أمرًا تفضّل المؤسسة ألا يُنشر علنًا». تضافر اتحاد الحريات المدنية الأميركي ومؤسسة محاماة محلية، لدى العلم بقضيتها، ليدافعا عنها، فيما تحدّثت جمعية الإحصاءات الأميركية انتصارًا لمنهجيتها. فأعادها مكتب الاحصاء إلى وظيفتها، لكن دابونتي التي خاب أملها غادرت بعد ذلك بوقت قصير لتتسلم منصبًا أكاديميًّا في جامعة كارنيغي ميلون في بيتسبرغ. وقالت لاحقًا: «أعتقد أنه أمر مخيف بالأحرى أن ينشر موظف ما معلومات عامة على الملأ لأنه قد يُطرد لهذا السبب». وتحل اليوم أرقامها عن حرب الخليج الأولى في النطاق المتوسط لتقديرات القتلى المدنيين العراقيين[١].

إكتسبت تجربة دابونتي، بعد ذلك بعقد، اهتمامًا متجددًا وسط رفض البنتاغون

(١) Gellman, "Census Worker Who Calculated '91 Iraqi Death Toll Is Told She Will Be Fired"; Paul Magnusson, "Toting the Casualties of War," Business Week, February 6, 2003 <http://tinyurl.com/5hvl>.

إحصاء القتلى في أفغانستان. وقال كبير الجنرالات الأميركيين تومي فرانكس في آذار/مارس ٢٠٠٢: «تعرفون أننا لا نحصي الجثث».[١] وقد التزم البنتاغون الصمت على أرقام القتلى المدنيين في أفغانستان، غير أن مختلف الصحافيين والمنظمات غير الحكومية وضعوا حجم القتلى المدنيين الأفغان في ما بين آلاف عدة وأكثر من عشرين ألفًا، محتسبين آثار الحرب الثانوية على الصحة العامة.[٢] وشددت دابونتي، في مقابلة عام ٢٠٠٣ مع البوسطن غلوب، على أهمية احتساب الإصابات المدنية. وقالت «إن فكرة سقوط القتلى وسط قرع طبول الحرب غائبة وحسب»، في إشارة منها إلى الضربة الوشيكة للعراق. «وهي لا تشكل جزءًا من خطاب أي من الطرفين. ويبدو الأمر، كلما قلّ الكلام عليه، كأنه افتراض بعدم سقوط قتلى على الإطلاق». ولكن لم يمكن، حتى لدابونتي، توقع ما سيتكشّف من جدال يحيط بمسألة إحصاء القتلى المدنيين في الحرب التي ستلي.

إحصاءات متضاربة

حافظ البنتاغون، في المراحل الأولى من الحرب على العراق، على سياسة «اللاأدرية في شأن الإصابات» – واضعًا للقضية إطارًا كما لو ان لا سبيل على الاطلاق لمعرفة الأرقام. واستعاد وزير الدفاع دونالد رامسفلد أواخر العام ٢٠٠٣ صدى ملاحظات فرانكس على إحصاء الجثث، ملاحظًا: «أننا لا نحصي جثث الأناس الآخرين». ولا توجد، بحسب المتحدث العسكري الأميركي العقيد غي شيلدز، «طريقة دقيقة» لاحتساب القتلى المدنيين. وقال في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣

(١) Edward Epstein, "Success in Afghan War Hard to Gauge," San Francisco Chronicle, March 23, 2002 <http://tinyurl.com/r8x562>.

(٢) لنظرة شاملة إلى احصاءات القتلى المدنيين في أفغانستان، أنظر "Afghanistan: Civilian Deaths from Airstrikes," Human Rights Watch, September 7, 2008 <http://tinyurl.com/76yyop>; Jonathan Steele, "Forgotten Victims," Guardian, May 20, 2002 <http://tinyurl.com/ov2ftb>; and Eliza Szabo, "Civilian Casualties in Afghanistan: Fatal Neglect," Counterpunch, July 20, 2007 <http://tinyurl.com/qe3yhj>.

«لا نمتلك، بتعبير إحصائي، أي تقدير حاسم للإصابات المدنية لمدة الحملة كلها. ومن غير المسؤول إعطاء تقديرات قوية نظرًا إلى الحيّز الواسع من المتغيرات».[١] غير أن البنتاغون، وبعكس هذه البيانات، أخذ في الواقع يحصي القتلى في العراق. وقام، أواخر العام ٢٠٠٦ – وسط تداعيات تقرير مؤذ عن الإصابات في صفوف المدنيين صدر في مجلة «ذي لانست» الطبية البريطانية المرموقة، برفع السرّية عن الأولى من بين رسومات بيانية عدة تتقفى الإصابات المدنية. وبعد ذلك بأشهر، وفي جهد لدعم الصورة الناجحة لزيادة القوات، نشر البنتاغون إحصاءات عن القتلى المدنيين. وفي الحالين لم ينشر البنتاغون سوى معطيات محدودة، ولم يفعل ذلك إلا عندما كان ذلك مناسبًا سياسيًّا.

غابت الأرقام الرسمية في المراحل الأولى من الحرب، فنشأت مجموعات منوّعة من المنظمات ومبادرات البحوث لاحتساب الإصابات في صفوف المدنيين العراقيين. وقدّرت «إحصاء جثث العراق»، وهي أول منظمة تتقفى سقوط القتلى المدنيين العراقيين، أن ٧٠٨٨ مدنيًّا قتلوا ما بين ٢٠ آذار/مارس والأول من أيار/مايو ٢٠٠٣. وتوجد بينها ٦٨٨٢ حال وفاة نتجت مباشرة عن القوات التي تقودها الولايات المتحدة، فيما قَتَلَ الذين تبقوا متمردون ومجرمون أو بسبب عوامل مجهولة. ومع أواخر العام ٢٠٠٣ بلغت حصيلة القتلى المدنيين العراقيين خلاله بحسب «إحصاء جثث العراق» ١٢,٠٤٩. ووصل العدد، نهاية العام ٢٠٠٤، إلى ٢٢,٨٠٠ قتيل، وإلى ٣٧,٦٤٩ عام ٢٠٠٥، ليقفز عام ٢٠٠٦ إلى ٦٥,٣٤٤ ومع نهاية العام ٢٠٠٧ أصبحت الحصيلة ٨٩,٨٧٨ وفي نهاية العام ٢٠٠٨ سجلت ٩٩,١٠٣، وصولاً إلى ١٠٣,٤١١ مع ختام العام ٢٠٠٩[٢]. استمدت «إحصاء جثث العراق» أرقامها أساسًا من التقارير

---

(١) مقابلة أجراها توني سنو مع دونالد رامسفلد على فوكس نيوز في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣ <http:// tinyurl.com/qhh3mr>; "Hearts and Minds; Statistical Analysis of Civilian Dead," Human Rights Watch, October 2003 <http://tinyurl.com/ol6ym6>.

(٢) هذه الأرقام ـ التي تم الحصول عليها في ١٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨ – تتغير في استمرار مع المزيد من أعمال البحث. للمزيد من أوامر الوصول إلى المعطيات، راجع "Documented Civilian Deaths from Violence: Monthly Table," Iraq Body Count <http://tinyurl.com/3xrgsz>.

الصحافية الصادرة باللغة الإنكليزية عن القتلى المدنيين في العراق. والإحصاء، بالنسبة إلى موقع المنظمة على الإنترنت:

> يتضمن سقوط القتلى المدنيين من جراء الأعمال العسكرية لقوات الائتلاف ومن الردود العسكرية أو شبه العسكرية على وجود الائتلاف (مثل هجمات المتمردين والإرهابيين). وتضمّن أيضًا زيادة في الوفيات بين المدنيين نتيجة أعمال إجرامية ناتجة عن انهيار القانون والنظام الذي أعقب اجتياح الائتلاف.

وجد المنتقدون، في الطيف السياسي، منهج الإحصاء هذا مثيرًا للجدل. وكتب المعلق المحافظ في التايمز (اللندنية) ستيفن بولارد منددًا: «صُممت منهجية (احصاء جثث العراق) للوصول إلى أكبر حصيلة ممكنة». وتابع «أن المنظمة تكتفي وحسب بإضافة كل التقارير عن الإصابات بغض النظر عن مصدرها أو مهما كان الدليل واهيًا». ولم تسجّل «إحصاء جثث العراق» في ذلك الوقت إلا القتلى العراقيين الذين تفيد عنهم مؤسسة إعلامية أو أكثر. ولم تكن المنظمة، من وجهة نظر بولارد، مصدر ثقة لأنها استقت معطياتها من مصادر سائدة مثل البي.بي.سي. التي يعتقد بولارد أنها منحازة إلى اليسار. وأعلن أن «البي.بي.سي. نفسها تنقل دعايتها بصفة كونها وقائع»، موحيًا بالتالي أن تعداد «إحصاء جثث العراق» يشكل أيضًا «دعاية»[١].

وعاب الكثيرون من اليساريين أيضًا على «إحصاء جثث العراق» منهجيتها. وقاد الحملة محررو «ميديا لانس»، وهي منظمة تراقب الإعلام ومركزها في المملكة المتحدة. وكتبوا على موقعهم الإلكتروني «أن منهجية إحصاء جثث العراق ليست أساسًا إحصاء لجثث العراق، وهي ليست حتى إحصاء إعلاميًا عراقيًا للجثث، بل

---

(١) A Dossier of Civilian Casualties: 2003-2005, The Killers: Fact Sheet 2," Iraq Body Count, July" 2005, p. 13 <http://tinyurl.com/o2foon>; Jomana Karadsheh, "Study: War Blamed for 655,000 Iraqi Deaths," CNN, October 11, 2006 <http://tinyurl.com/r5nsc>; Stephen Pollard, "How Not to Count Bodies," The Times (London), July 21, 2005 <http://tinyurl.com/pexjqs>.

هي إحصاء إعلامي غربي للجثث في العراق»[1]. ولاحظ الصحافي المستقل جميل ضاهر أن «من شبه المؤكد» أن «إحصاء جثث العراق» «تقلل من الإبلاغ عن مقتل المدنيين العراقيين الذي تتسبب به طائرات الائتلاف». وكتب جميل في رسالة إلكترونية إلى «ميديا لانس»:

> إنها، وبسبب مصادرها وغياب المصادر الإعلامية العربية عنها (وهي تقوم بعمل أفضل بكثير في نقل عدد الإصابات المدنية العراقية)، منحازة جدًّا إلى وسائل الإعلام الغربية التي قامت منذ البداية بعمل كئيب (في أفضل الحالات) في نقل الحرب عبر الأثير مع ما ينتج عنها من إصابات مدنية[2].

أبرز ستيفن سولدز، من «سايكي ساينس أند سوسايتي» Psyche, Science and Society، عيوبًا مماثلة. وكتب سولدز، مشيرًا إلى أن الأسوشيتدبرس ووكالة الصحافة الفرنسية ورويترز وفّرت معًا نحو ثلث معطيات «إحصاء جثث العراق» كلها:

> هل لبضع الوكالات هذه فعلًا ما يكفي من المراسلين العراقيين أو المندوبين لتغطية البلاد؟ وهل في وسع هؤلاء المراسلين فعلًا أن يغطوا، في شكل شامل، حالات الموت في المناطق التي يسيطر عليها المتمردون في العراق؟ ما احتمال أن يوجد مراسلان من مؤسستين إعلاميتين مختلفتين في موقع ما عند حدوث الوفيات؟ كم مرة حقق أي مراسل، غربيًّا كان أم عراقيًّا، في عملية من آلاف عمليات القصف الأميركية؟ ليست هذه الأسئلة إلا للتشديد، في بساطة، على الطبيعة المجزّأة للتغطية الواقعة وبالتالي محدودية قاعدة بيانات «إحصاء جثث العراق»[3].

---

(١) "Iraq Body Count Refuses to Respond," Media Lens, March 14, 2006 <http://tinyurl.com/2cxu6z>.

(٢) "Paved with Good Intentions–Iraq Body Count–Part 2," Media Lens January 26, 2006 <http://tinyurl.com/qqk44>.

(٣) Stephen Soldz, "When Promoting the Truth Obscures the Truth," Zmag, February 5, 2006 <http://tinyurl.com/qc7vgk>.

دافعت «إحصاء جثث العراق» عن مناهجها، وأقرّت رسالة على موقعها على الإنترنت بأن «من المؤكد أن مجموع أرقامنا هو تخفيف من التقدير الحقيقي للوضع بسبب الفجوات في التغطية أو في التسجيل». ويتضمن الموقع اليوم، علاوة على ذلك، في قاعدة بياناته أحداثًا أحادية المصدر، ويدرج في جداوله أكثر من مئة مصدر من مصادر الأخبار باللغة الانكليزية، بما في ذلك عشرات المصادر باللغة الإنكليزية في الشرق الأوسط، ومنها الجزيرة وعرب تايمز والعراق. وبحسب الموقع:

يعتمد المشروع الدقّة المهنية لوكالات الأنباء المعتمدة. ويُفترض بأي وكالة بلغت مكانة دولية محترمة أن تعتمد تدقيقها الصارم قبل نشر المواضيع (بما في ذلك، حيث أمكن، شهود العيان والمصادر السرّية)[1].

ولكن، وحتى مع المحدوديات الكامنة للمصادر الإنكليزية فحسب، بلغت بيانات «إحصاء جثث العراق» لمرحلة الاجتياح (٧٠٨٨ قتيلًا بين آذار/مارس وأيار/مايو ٢٠٠٣) ضعفي غيرها من التقديرات المرفوعة. فعلى سبيل المثال وفي المدة نفسها، تحدّث جهد رعته «الحملة من أجل المدنيين الأبرياء في النزاع» (سيفيك)، ومركزها واشنطن العاصمة، وعاينت مستشفيات مختلفة في أنحاء العراق، عن سقوط ١٩٩٥ قتيلًا و٤٩٥٩ جريحًا. وحدّد مدير المسح، رائد جرار، المدني بأنه «كل من يُقتل خارج ساحة القتال حتى لو كانت وظيفته الأساسية عسكرية (الجندي الذي يُقتل في منزله هو مدني)» فيما العسكري هو «كل من يُقتل وهو يحارب في معركة ولو كانت وظيفته الأساسية مدنية (مثلًا المهندس الذي يُقتل وهو يحارب كفدائي)». واستند مسح أجرته الأسوشيتدبرس في ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٣ إلى سجلات ٦٠ من أصل مستشفيات العراق الـ١٢٤، بين ٢٠ آذار/مارس و٢٠ نيسان/أبريل ٢٠٠٣. ووجد المسح أن ما لا يقل عن ٣٢٤٠ مدنيًا ماتوا خلال هذه المدة. غير أن واضع التقرير نيكو برايس لاحظ أن «الإحصاء لا يزال مجتزأ، ومن المؤكد أن الحصيلة

(١) Sources Used by Iraq Body Count," Iraq Body Count, August 31, 2007 <http://tinyurl.com/ryp-wut>; "Paved With Good Intentions–Iraq Body Count–Part 1," Media Lens, January 25, 2006 <http://tinyurl.com/povn9>.

الكاملة – هذا إذا حُصيت – ستكون أكبر جدًّا». وشرح أن «الأسوشيتدبرس استثنت كل الإحصاءات التي قامت بها مستشفيات لم تفرّق سجلاتها المكتوبة بين الموتى المدنيين والعسكريين، مما يعني أن المجموع لا يعكس المئات، وربما الآلاف، من الضحايا في المدن الكبرى وفي المعارك الأكثر حماوة». وطلع «معهد الكومنولث لمشروع البدائل الدفاعية» بتقديراته الخاصة. واستقت دراسة المعهد من مصادر مختلفة بما فيها الإحصاءات الصحافية ومسح المستشفيات ومواقع الدفن والمدافن والتقارير العسكرية من طرفي النزاع. وقدّر المؤلفون ان ما يراوح بين ١٠,٨٠٠ عراقي و١٥,١٠٠ قتلوا في سياق الحرب من آذار/مارس إلى أيار/مايو ٢٠٠٣. وعلى غرار تقرير الأسوشيتدبرس وجد المعهد أن ما بين ٣٢٠٠ و٤٣٠٠ فقط من القتلى هم من غير المقاتلين – أولئك الذين لا يُعتقد أنهم من الجنود العراقيين أو من أعضاء حزب البعث أو غير ذلك من الميليشيات[١].

إستغل المعلقون المحافظون تلك التقديرات السابقة كدليل إلى لا دموية الحرب. فعلى سبيل المثال، وفي مقالة تحت عنوان «إبقاء إصابات الحرب في حدها الأدنى»، لاحظ نيل غريفز من النيويورك بوست أن «إحصاء الجثث بقي متدنيًا، إذ تمكنت الولايات المتحدة من إنجاز معظم أجزاء النزاع في ٤٣ يومًا فقط». واستشهد غريفز بإحصاءات معهد الكومنولث وبوجهات نظر أحد مسؤولي البنتاغون الذي قال غريفز إنه «أعطى جيشنا المحترف الفضل في الخسائر المتدنية في حياة المدنيين الأبرياء». وبحسب هذا المسؤول، «تبدو الإصابات في صفوف المدنيين أقل من أي نزاع في التاريخ الحديث، وهي شهادة على احتراف جيشنا وشجاعته وانضباطه وتعاطفه»[٢].

(١) Raed Jarrar, "A Note From the Director of the Survey," Iraqi Civilian War Casualties <http:// tinyurl.com/y8pl3ae>; Niko Price, "AP Tallies 3240 Civilian Deaths in Iraq," Associated Press, June 10, 2003.
http://tinyurl.com/o9pxf7>; Carl Conetta, "The Wages of War: Iraqi Combatant and Noncomba-> tant Fatalities in the 2003 Conflict," Project on Defense Alternatives, Research Monograph no. 8, October 20, 2003 <http://tinyurl.com/44gq5

(٢) .Neil Graves, "Casualties of War Kept at Minimum," New York Post, March 19, 2004, p. 20.

ويعكس إحصاء معهد الكومنولث «المتدني» ظاهريًّا جوهر الصعوبات التي يواجهها غير العسكريين في استقصاء الإصابات المدنية خلال النزاعات، أكثر مما يعكس «تعاطف» الجيش. فالبنتاغون يمتلك التكنولوجيا والموازنة والمصادر البشرية لتقويم أفضل لخسائر المعركة من وكالات الأنباء والمؤسسات الاستشارية والمنظمات غير الحكومية. وتميّز إحصاء الجثث الذي ارتكز على سجلات بيوت الموتى والمستشفيات – مثل إحصاءات معهد الكومنولث والأسوشيتدبرس و«سيفيك» – بأنه محدود لأن الكثيرين من الموتى والجرحى لم يصلوا قط إلى المستشفيات والعيادات أو المشارح. فضلًا عن ذلك، قد تقل دقة حفظ السجلات في هذه المنشآت خلال فورات العنف والاضطراب نظرًا إلى سهولة تضرر الوثائق المكتوبة بخط اليد، وإتلافها أو وضعها في غير مكانها. ووجد الباحثون، كمعدل، أن مناهج الاحتساب التي تستند إلى السجلات المكتوبة تسجّل عشرين في المئة أقل من عدد القتلى الفعلي خلال النزاعات. وما يزيد في هذه المشكلة هو أن ضغوط الحرب قد تُحدث تأثيرات مسيئة إلى نوعية التغطية الإعلامية. وقد وجدت دراسة أجريت عام ١٩٩٩ عن عمليات القتل السياسي في غواتيمالا بين العامين ١٩٦٠ و١٩٩٠، أن الصحافة أفادت في شكل صحيح عما يربو على ٥٠ في المئة من الوفيات، ولكن عندما تصاعد العنف أفادت الصحف عن أقل من خمسة في المئة من مجموعها[1]. كذلك كانت أرقام «إحصاء جثث العراق» غير حصينة أمام فورات العنف وانعدام الأمن. وفي النهاية، فإن إحصاءات «إحصاء جثث العراق» و«معهد الكومنولث» والأسوشيتدبرس و«سيفيك» لا تحتسب وفيات ما بعد النزاع. فلا يزال أطفال فيتنام إلى اليوم يموتون من جراء الألغام الأميركية وتأثيرات «العامل البرتقالي» السامة التي تؤدي إلى تجريد الأشجار من أوراقها، فيما لا يزال المدنيون

(١) Gilbert Burnham, Riyadh Lafta, Shannon Doocy, and Les Roberts, “Mortality After the 2003 Invasion of Iraq: A Cross-Sectional Cluster Sample Survey,” Lancet, vol. 368, October 21, 2006, p. 1426; Patrick Ball, Paul Kobrak, and Herbert F Spirer, “State Violence in Guatemala, 1960-1996: A Quantative Reflection” <http://tinyurl.com/reagol. cited in Patrick McElwee and Robert Naiman, “Is the US Responsible for a Million Iraqi Deaths?,” Just Foreign Policy, September 11, 2007 <http://tinyurl.com/ojagjo

العراقيون يعانون تأثيرات أسلحة اليورانيوم المنضب التي استُخدمت عام ١٩٩١ – وأيضًا عام ٢٠٠٣ [1]. واستقصاء وفيات ما بعد النزاع هذه هو الأصعب لأنها قد تحدث بأشكال مختلفة بعد عقود على انتهاء الحرب نفسها.

يدرك علماء الأوبئة، وهم الباحثون الذين يدرسون تواتر المرض والموت وتوزّعهما في أوساط السكان البشريين، إدراكاً حادًّا للمحدوديات التي تم إيجازها أعلاه. وطرح هذا المجال، لتعويضهم، أساليب جديدة لتقدير الإصابات – أساليب تعتمد العينات والمسح ثم استقراء الأرقام بالنسبة إلى النطاق الأوسع من السكان استنادًا إلى الوفيات والإصابات في داخل العائلات الفردية. وأدت عمليات المسح الوبائية إلى أكثر الاحصاءات ثقة للقتلى العراقيين – ولكن أيضًا، ويا للمفارقة، إلى أكثرها إثارة للجدل.

نزاع الأرقام الستة

عام ٢٠٠٠، استخدمت لجنة الانقاذ الدولية عالم الأوبئة المخضرم لس روبرتس، وكان يومذاك في جامعة جونز هوبكنز، لتحديد عدد إجمالي الوفيات الناتجة عن الحرب الأهلية في الكونغو. وللقيام بذلك، انتشر روبرتس وفريق من الباحثين الكونغوليين عبر شرق الكونغو وأجروا مقابلات مع ١٠١١ عائلة. وسأل الباحثون هل مات أي من أفراد العائلة منذ العام ١٩٩٨، وفي هذه الحال كيف حدثت الوفاة. ووجد روبرتس باستخدامه هذه الطريقة أن ١/٧ حال «إفراط في الوفاة» حدثت منذ العام ١٩٩٨ في الكونغو من جراء الحرب الأهلية. ويتضمن «الإفراط في الوفيات» جميع من قتلهم العنف المباشر – نحو ٢٠٠ ألف في المجمل – إضافة إلى أكثر من مليون وفاة بسبب الملاريا والإسهال والتهابات الجهاز التنفسي التي أمكن معالجتها

(١) استخدم الجنود الأميركيون والبريطانيون مرة أخرى عام ٢٠٠٣ ما يصل إلى ١٧٠٠ طن من اليورانيوم المنضب. أنظر "Iraq: The DU Dust Settles," Jane's Defence Weekly, April 2, 2004 <http://tinyurl.com/2xjza>.

لو لم تقع الحرب. ووجد روبرتس أن مناطق الكونغو الأكثر عنفًا هي التي أنتجت أكبر أرقام الوفيات. ولاحظ في تقريره أن «من غير الممكن الفصل بين الموت العنيف والموت 'غير العنيف'». وخلص إلى أن:

> كلما ارتفع عدد ضحايا الموت العنيف، في المناطق التي مُسحت، ارتفع عدد ضحايا الأمراض المعدية وسوء التغذية. فالوصول إلى أي نوع من أنواع الخدمة الصحية محدود في شكل قاس في المناطق التي تشهد مستوى مرتفعًا من العنف أو بالنسبة إلى السكان الذين يجبرون على الهرب من الاضطرابات[١].

تلقى مسؤولو الحكومة الأميركية ووسائل الإعلام السائدة في شكل جيد معطيات روبرتس. واستشهد كولن باول بالأرقام من دون أن ينسبها إلى أحد، وأدلى روبرتس بشهادته عن النتائج التي توصل إليها أمام الكونغرس، وسرعان ما أعلن البيت الأبيض بعد ذلك مساعدة إضافية للكونغو بقيمة عشرة ملايين دولار[٢]. ولم تكتف السي. أن.أن. بتغطية ما توصل إليه روبرتس من نتائج بل أنشأت موقعًا متعمّقًا خاصًّا على الإنترنت عنوانه «إحصاء الموتى في الكونغو،» وتضمن سبعة أفلام فيديو ونصوص المقابلات ومقالة لروبرتس من ٤٢٠٠ كلمة[٣]. واستشهدت النيويورك تايمز بأرقام روبرتس من دون أن تنسبها إلى أحد ونشرت تصريحًا لروبرتس في زاوية «قول اليوم» المرغوبة في الصحيفة. وحتى الواشنطن تايمز، المحافظة الجديدة، نقلت تقديرات روبرتس على أنها حقيقة. وطرحت مقابلة أجرتها الصحيفة معه أسئلة ودّية مثل:

---

(١) Mortality Study, Eastern D.R. Congo (April–May 2000),” International Rescue Committee, 2000” <http://tinyurl.com/pse3oz>.

(٢) Suffering and Despair: Humanitarian Crisis in the Congo,” Hearing before the Subcommittee on International Operations and Human Rights, 107th Congress, 1st Session, May 17, 2001 <http://tinyurl.com/5nrfzj>; Lila Guterman, “Lost Count,” Chronicle of Higher Education, February 4, 2005 <http://tinyurl.com/p4bx8w>

(٣) في الموقع - website—http://www.cnn.com/SPECIALS/2000/congo/index.html – عاملا حتى أواخر ٢٠٠٨.

«كيف يمكن مقارنة حجم هذه الكارثة ومداها مع غيرها من الأزمات الأفريقية؟»، و«ما الذي يمكن فعله؟»[١]

بعد ذلك بأربع سنوات وجه روبرتس اهتمامه نحو العراق. وتسلل وفريقه أوائل أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤ إلى البلاد من الأردن، في صندوق سيارة ذات دفع رباعي. وانتشروا في العراق، على رغم الخطر، لإجراء مقابلات مع العائلات. تحدّث الباحثون إلى نحو ألف عائلة – أي نحو ثمانية آلاف شخص تقريبًا ـ في ٣٣ من الأحياء العراقية التي اختيرت عشوائيًّا. وطُرحت على جميع المجيبين أسئلة تتعلق بتكوين العائلة قبل الحرب وبعدها. وأنجز، بحلول أواخر أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤، مهمته في العراق. وجاءت النتائج صادمة: أكثر من ١٠٠ ألف وفاة عراقية «مفرطة»[٢].

نُشر تقرير روبرتس في «لانست» قبل خمسة أيام على انتخابات ٢٠٠٤ الرئاسية الأميركية. ووجد التقرير الذي وضعه محررو «لانست» على «الخط السريع» ليتمكنوا من نشره في المهلة المحددة، أن الأسباب الرئيسة للوفيات قبل الحرب كانت الذبحة القلبية، والسكتة الدماغية، وغير ذلك من العلل المزمنة. غير أن العنف المرتبط مباشرة بأعمال قوات الائتلاف العسكرية شكّل السبب الرئيس للوفيات بعد الحرب في العراق. ووجد تقرير «لانست» أن خطر الموت من العنف أعلى بعد الحرب بـ٥٨ مرة منه قبلها. ويمكن في الواقع ردّ ٩٥ في المئة من حالات الموت العنيف إلى الغارات الجوية أو إلى نيران رشاشات الهيليكوبتر. وأكثر من نصف قتلى الموت العنيف هم من النساء والأولاد. وبلغ القلق الذي أثارته معطيات الفلوجة حدًّا شوّهت معه التقرير فتوجب استبعادها. وشهدت الفلوجة، خصوصًا، معدّلًا كبيرًا من الوفيات العنيفة – ٥٣ وفاة من أصل ٣٠ عائلة تمت معاينتها في المدينة. أما في الأحياء

(١) "Glimmerings of a Congo Peace" (editorial), New York Times, March 5, 2001 <http://tinyurl.com/qhv82s>; Les Roberts, "Quotation of the Day," New York Times, June 9, 2000, p. 1A; Didi Schanche, "War Deaths on 'Horrifying' Rise, IRC Says," Washington Times, May 10, 2001.

(٢) Les Roberts, Riyadh Lafta, Richard Garfield, Jamal Khudhairi, and Gilbert Burnham, "Mortality Before and After the 2003 Invasion of Iraq: Cluster Sample Survey," Lancet, vol. 364, pp. 1857–64.

الـ٣٢ الأخرى التي جمع منها الباحثون المعطيات فلم يتم إحصاء إلا ٨٩ حال وفاة. إستبعدت الدراسة الفلوجة، وخلصت – مستخدمة العبارات النموذجية لعلم الأوبئة – إلى إمكان بنسبة ٩٥ في المئة في أن تقع الأرقام في متوسط حيّز يراوح بين ثمانية آلاف حال وفاة و١٩٤ ألفًا. وقال التقرير: «نعتقد، من خلال افتراضات محافظة، أن نحو ١٠٠ ألف حال وفاة مفرطة أو أكثر سجلت منذ اجتياح العراق عام ٢٠٠٣. وقد تسبب العنف بمعظم حالات الوفاة المفرطة، وغارات قوات الائتلاف الجوية بمعظم وفيات العنف»[١].

وعلى رغم أن روبرتس استخدم منهجية مماثلة في تقريره عن الكونغو، أتى الرد على المسح الذي أجري في العراق مختلفًا في شكل ملحوظ. وجاء في افتتاحية للواشنطن تايمز التي كانت متعاطفة في السابق، أن «منهج هذه الدراسة – النظر إلى أرقام السكان ومعاينة بضعة آلاف من العراقيين لسؤالهم عن عدد حالات الوفيات التي سمعوا بها – حوّلت المسألة تجريدًا وتحاشت العمل الشاق القاضي بتوثيق فعلي للوفيات». وأضافت الافتتاحية أن توقيت نشر التقرير في «لانست»، قبل خمسة أيام على انتخابات العام ٢٠٠٤، شكّل «تسييسًا فاضحًا لما يفترض أنها صحيفة موضوعية وعلمية»[٢]. وأبلغ مارك غارلاسكو المسؤول السابق في البنتاغون عن تحديد الأهداف في العراق، الواشنطن بوست أن «الأرقام تبدو مُضخّمة» – وهي تعليقات كُررت وضُخمت في مكان آخر. (سحب غارلاسكو لاحقًا تصريحه ملاحظًا أنه لم يقرأ تقرير «لانست» قبل التعليق عليه). امتنعت النيويورك تايمز في البداية عن أي انتقاد، غير أن موضوعًا لاحقًا استشهد بمايكل أوهانلون من معهد بوركينغز الذي زعم أن معطيات «إحصاء جثث العراق» عكست «عملًا أكثر جدية من تقرير 'لانست'». حتى أن باحثين في «إحصاء جثث العراق» انضموا إلى المعمعة. وشدد بيان صحافي صادر عن «إحصاء جثث العراق» على أن «كل قيد في قاعدة بيانات

(١) Les Roberts, et al., "Mortality Before and After the 2003 Invasion of Iraq: Cluster Sample Survey.

(٢) Edward Ericson Jr., "100,000: A Controversial Report From Johns Hopkins Researchers Estimate Iraq Civilian Death Toll," Baltimore City Paper, November 17, 2004 <http://tinyurl.com/pxy-mam>; "The Lancet's Politics" (editorial), Washington Times, June 23, 2005, p. A20.

إحصاء جثث العراق يشكل حال وفاة سجلها الشهود المناسبون فعلًا – وهي ليست حالات وفاة (ممكنة) أو (مُحتَملة)». وأضاف البيان «أن 'إحصاء جثث العراق' تُدرج التقارير فحسب، حين تتوافر مناهج مجدية للتفريق بين الوفيات العسكرية والمدنية... وتعدادنا هو تعداد مدني محض»[١].

استهدف انتقاد «إحصاء جثث العراق» نقطة ضعف جوهرية في دراسة «لانست»، هي الفشل في التميز بين المدنيين والمقاتلين. حدث تشويش واضح في هذا الشأن حتى من فريق «لانست». وعندما صدر التقرير للمرة الأولى، أعلنت صفحة «لانست» على الإنترنت: «١٠٠ ألف من الوفيات المفرطة في صفوف المدنيين بعد اجتياح العراق.» وحذت عشرات الصحف حذوها. وأعلنت النيويورك تايمز، على سبيل المثال، في أحد عناوينها: «دراسة تضع أرقام وفيات المدنيين العراقيين عند ١٠٠ ألف». وكررت الجملة الأولى من المقالة هذا الزعم ملاحظة أن «ما يُقدّر بمئة ألف مدني ماتوا في العراق كنتيجة مباشرة أو غير مباشرة لاجتياح آذار/مارس ٢٠٠٣ بقيادة الولايات المتحدة...»[٢] وهذه الادعاءات غير صحيحة. فقد أفاد لس روبرتس ومساعدوه في كتابة التقرير: نظرًا إلى أن ٤٦ في المئة من الذين سجّل موتهم كانوا من الذكور في سن الجندية تراوح أعمارهم بين ١٥ عامًا و٦٠، فإن «الكثيرين من العراقيين الذي أعلن مقتلهم على أيدي القوات الأميركية قد يكونون من المقاتلين». وفيما يمكن تفهّم ذلك نظرًا إلى تقلّب الوضع في العراق، يثبت واقع أن فريق روبرتس لم يفرق بين المدنيين والمقاتلين، أنه الانتقاد الوحيد الصالح لتقرير صيغَ، في ما عدا ذلك، على نحو جيّد.

كانت الانتقادات الأخرى مُضللة. فمثلًا، صرف الكثيرون من المعلقين النظر عن

(١) Hassan M Fattah, "Civilian Toll is Placed at Nearly 25,000," New York Times, July 20, 2005 <http://tinyurl.com/ooe684>; "IBC Response to the Lancet Study Estimating '100,000' Iraqi Deaths" (press release), Iraq Body Count, November 7, 2004 <http://tinyurl.com/qxp33n>.

(٢) IBC Response to the Lancet Study Estimating '100,000' Iraqi Deaths" (press release); Elisabeth" Rosenthal, "Study Puts Iraqi Deaths of Civilians at 100,000," New York Times, October 29, 2004 <http://tinyurl.com/6uj6t>.

التقرير بسبب التصريح – النموذجي في عمليات المسح في مجال علوم الأوبئة – أن واضعيه متأكدون ٩٥ في المئة أن ما توصلوا إليه يقع في الوسط ما بين ثمانية آلاف حال وفاة و١٩٤ ألفًا. ولاحظت ليلا غوترمان في «كولومبيا جورناليسم ريفيو»: «ثمانية آلاف، و١٩٤ ألفًا؟ ما الذي يمكن المراسل أن يفعله بمثل هذا الحيّز الواسع؟ فالرقم الأدنى يتطابق جيّدًا مع تقديرات سابقة غير علمية، لكن التقديرات الوسطى والعليا تبدو صارخة». أصيب الكثيرون من الصحافيين بالارتباك الواضح. ففي «سلايت» على سبيل المثال، انتقد فريد كابلان «الحيز الواسع الذي ينافي المنطق» لنتائج التقرير. وتهكّم أن «هذا ليس بالتقدير بل هو لوحة الأسهم التي تُرشق باليد dart board». غير أن غوترمان استفهمت من عشرة خبراء في الإحصاءات الحيوية ومعدّل الوفيات عن هذا الحيّز الواسع. وبحسب غوترمان:

> لم يثر أي منهم مشكلة حيال مناهج الدراسة واستنتاجاتها. وأبلغني العلماء أن في حال وُجدت مشكلة فهي في أن واضعي التقرير كانوا حذرين في تقديراتهم. ولوجد المراسلون، في اتصال سريع مع علماء الاحصاء، أن الاحتمال يشكل تقويسة على شكل جرس – والإمكان ضعيف جدًّا في أن يقدر عدد الموتى لدى أي من طرفي الحيّز. وهناك إمكان كبير جدًّا في أن يقع العدد في الوسط[1].

وحظي تقرير «لانست»، على عكس الولايات المتحدة، بعرض جيد وبالتنويه في الصحافة البريطانية. وأُجبر مقر الحكومة البريطانية في داونينغ ستريت، بدوره، على التعليق على نتائجه. وبحسب المتحدث باسم توني بلير: «ارتكزت النتائج على الاستقراء وعلى التعامل مع العراق كما لو ان كل أمكنته هي نفسها في ما يتعلق بمستوى النزاع. وهذه ليست الحال». وأبلغ مسؤول بريطاني آخر في وزارة

(١) Lila Guterman, “Dead Iraqis: Why An Estimate Was Ignored,” Columbia Journalism Review, March/April 2005 <http://tinyurl.com/y9394vp>; Fred Kaplan, “100,000 Dead–or 8000?,” Slate, October 29, 2004 <http://tinyurl.com/8ylcf>.

الدفاع الغارديان: «سيشكل الأمر بالنسبة إلينا تخمينًا إذا حاولنا إعطاء حصيلة أعداد الإصابات. وتعتقد الحكومة بعدم وجود رقم يمكن الركون إليه». وردّ البروفسور كليم ماكفرسون الأستاذ الزائر في علم الأوبئة والصحة العامة في جامعة أوكسفورد، في مقالة في «بريتيش ميديكال جورنال»:

> إن وسائل إحصاء الموتى في مثل هذه الظروف راسخة جدًّا ولا يمكنها أن تعتمد تقارير ظرفية أو تقديرات في مشارح المستشفيات وحسب. وهي تتطلب تشريحات شفهية من مصادرها التي يجب الحصول عليها ليصبح استقراء السكان ممكنًا على غرار ما فعله روبرتس ورفاقه... وينبغي للحكومة البريطانية التي تعمل بالنيابة عنّا، أن تقدّم انتقادًا محكمًا للتقديرات الموجودة. وعليها أن تزاول مسؤولياتها المتعلقة بالصحة العامة في إحصاء الإصابات باستخدام الوسائل الحديثة. فالديمقراطية تتطلب هذا كما تتطلبه المسؤولية الملائمة بموجب مواثيق جنيف.

وحازت وجهات نظر ماكفرسون التأييد في رسالة مفتوحة إلى «بريتيش ميديكال جورنال» من مجموعة من ٢٤ خبيرًا في الصحة من بلدان تضم المملكة المتحدة والولايات المتحدة وأستراليا وكندا واسبانيا وأيطاليا. وقد دعوا الحكومتين الأميركية والبريطانية إلى القيام بتحقيق مستقل في شأن الإصابات المدنية. وجاء في البيان أن «الرد الواضح لإزالة ما تبقى من عدم اليقين هو في التفويض بالقيام بدراسة أوسع مع الدعم والمساعدة الرسميين الكاملين مع المحافظة على الاستقلالية العلمية»[1]. ولم تلق هذه الدعوات استجابة.

(١) Patrick Wintour and Richard Norton-Taylor, "No 10 Challenges Civilian Death Toll," Guardian, October 30, 2004 <http://tinyurl.com/q9v59x>; Klim McPherson, "Counting the Dead in Iraq" (editorial), British Medical Journal, vol. 330, March 12, 2005, pp. 550–1; Klim McPherson, et al., "Global Public Health Experts Say Failure to Count Iraqi Casualties is Irresponsible" (open letter), March 11, 2005 <http://tinyurl.com/yba98hq>.

أهون الشرّين؟

كانت الحصيلة الثانوية المثيرة للاهتمام للنقاش الذي دار أواخر العام ٢٠٠٤ وأوائل العام ٢٠٠٥ في شأن الإصابات التي تحدّثت عنها «لانست» هي المحاباة الجديدة التي حصلت عليها «إحصاء جثث العراق» في أوساط المسؤولين الحكوميين والنقاد المحافظين. وفي رد، على سبيل المثال، على المسح الذي أجرته «لانست»، قال وزير الخارجية البريطانية جاك سترو للغارديان إن رقم المئة ألف «مرتفع جدًا، وإن موقع إحصاء جثث العراق وضع حصيلة الوفيات عند ١٦ ألفًا». وفي الولايات المتحدة بدّل كاتب الافتتاحية جون ليو وجهات نظره الخاصة في شأن «إحصاء جثث العراق». ففي مقالة رأي عام ٢٠٠٣ تحت عنوان «تضليل الناس في شأن الوفيات المدنية»، رفض ليو المناهج «المريبة والمؤدلجة» لمحللي «إحصاء جثث العراق». لكن ليون، وبعد نشر تقرير «لانست»، أخذ يصبح متعاطفًا مع الأرقام الأدنى لـ«إحصاء جثث العراق». وفي مقالة في آب/أغسطس ٢٠٠٥، استشهد ليون بوجهات نظر منتقد «لانست» مايكل أوهانلون الذي قال (كما استشهدنا به آنفًا) إن معطيات «إحصاء جثث العراق» تشكل انعكاسًا «لعمل أكثر جدية». ولاحظت «ميديا لانس» لاحقًا:

> هناك عدد من السياسيين والصحافيين، وبخاصة الفئة الموالية للحرب، ممن قفزوا بالتحديد على أرقام «إحصاء جثث العراق» للتقليل من شأن حصيلة مأساة وفيات المدنيين. وهم يستخدمون أدنى الأرقام التي يمكنهم العثور عليها ليوحوا، مثلًا، أن نتائج الاجتياح هي أقل قسوة من نتائج إبقاء صدام حسين في السلطة.

ووجدت ساره سيوال، مديرة مركز «كار» لسياسة حقوق الإنسان، هي أيضًا أن هذا صحيح. وقالت للراديو الوطني العام: «أذكر تمامًا بعض المؤتمرات المختلفة مع مسؤولين عسكريين أخذ فيها كل واحد يشكك في منهج مقاربة إحصاء جثث العراق،

وفي دوافعها. ولكن، ومع صدور المسح الذي قامت به «لانست» أخذ الجميع يقولون: آه، يا إلهي، إن إحصاء جثث العراق موضع ثقة أكثر بكثير»[١].

ومذذاك أصبح مكتب المفتش الخاص لإعادة بناء العراق يذكر أرقام إحصاء جثث العراق، بل واستشهد بها جورج دبليو بوش أيضًا. ففي مؤتمر صحافي في فيلادلفيا في ١٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٥، سأل أحد الصحافيين بوش في حدة: «أودّ أن أعرف، منذ بداية حرب العراق، العدد التقريبي للعراقيين الذين قُتلوا. وأعني بالعراقيين المدنيين والعسكريين والشرطة والمتمردين والمترجمين». وردّ بوش:

> ما هو عدد العراقيين الذين ماتوا في هذه الحرب؟ سأقول إن ثلاثين ألفًا، أكثر أو أقل، ماتوا نتيجة التوغّل الرئيس والعنف المستمر ضد العراقيين. وقد خسرنا نحو ٢,١٤٠ من جنودنا في العراق.

احتل هذا التنافر الوجيز العناوين الرئيسة في الولايات المتحدة ودفع بالمكتب الصحافي في البيت الأبيض إلى إصدار توضيح. وذكّر المتحدث باسم البيت الأبيض سكوت ماكليلان المراسلين أن ليس هناك «أي تقدير حكومي رسمي» للموتى العراقيين وأن بوش «أورد تقديرات عامة». وكانت «إحصاء جثث العراق» قدّرت في ذلك الوقت عدد الموتى المدنيين العراقيين بما بين ٢٧,٣٨٣ و٣٠,٨٩٢[٢].

---

(١) Wintour and Norton-Taylor, “No 10 Challenges Civilian Death Toll”; John Leo, “Misleading Public on Civilian Deaths” (editorial), San Diego Union-Tribune, March 24, 2003, p. B6; John Leo, “Fun With Numbers,” US News and World Reports, vol. 139, no. 4, August 1, 2005, p. 62; “Iraq Body Count–A Shame Becoming Shameful,” Media Lens, April 10, 2006 <http://tinyurl.com/qy8sxh>; Sarah Sewall (interviewed by Neal Conan), “Talk of the Nation,” NPR, January 10, 2008 <http://tinyurl.com/ovq2fe>.

(٢) Hard Lessons: The Iraq Reconstruction Experience,” Special Inspector General for Iraq Recon-” struction, January 22, 2009, pp. 65, 135, 162, 226, 294, 319 <http://tinyurl.com/bucsmt>; Les Roberts (interviewed by Amy Goodman), Democracy Now!, December 14, 2005 <http://tinyurl.com/oekrj8>; Oren Dorell, “Bush Puts Deaths of Iraqis at 30,000,” USA Today, December 12, 2005 <http://tinyurl.com/p9qtcb>.

لا يزال العدّ مستمرًا

على الرغم من الاشكالية حيال تقرير «لانست» صرفت الانتباه بعيدًا عن نتائجه المهمة، فإنها أسهمت في دفع مسألة الإصابات المدنية العراقية إلى دائرة الاهتمام العام. وعلى أثر نشر التقرير أجريت تحقيقات أخرى في الوفيات المدنية العراقية. وقدّر برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة حدوث ٢٤ ألف حال وفاة «ذات صلة بالحرب»، ما بين آذار/مارس ٢٠٠٣ ونيسان/أبريل ٢٠٠٤؛ واعتمدت بعثة مساعدة العراق التابعة للأمم المتحدة رقم ٣٤,٤٥٢ حال وفاة، بين كانون الثاني/يناير وكانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦؛ وقدّرت وزارة الصحة العراقية مقتل ١٥٠ ألف مدني ما بين آذار/مارس ٢٠٠٣ وتشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦؛ كذلك قدّرت منظمة الصحة العالمية حدوث ١٥١ ألف حال وفاة عراقية عنيفة ما بين آذار/مارس ٢٠٠٣ وحزيران/يونيو ٢٠٠٦[١].

غير أن كل هذه الأرقام تنحسر مقارنة بالأرقام التي طرحتها الدراسة المتابعة التي أجرتها «لانست» والتقديرات التي طرحتها لاحقًا شركة الاستطلاع البريطانية المحترمة «أوبينيون ريسرتش بيزنس» Opinion Research Business.

وصل باحثو جونز هوبكينز (هذه المرة بقيادة جيلبرت بورنهام المدير الرديف لمركز اللاجئين والاستجابة للكوارث في جونز هوبكينز) في دراستهم الثانية الرئيسة عن الوفيات المفرطة في العراق منذ العام ٢٠٠٣ إلى النتيجة التالية:

> بين ١٨ آذار/مارس ٢٠٠٣ وحزيران/يونيو ٢٠٠٦ نقدر موت ٦٥٤,٩٦٥ شخصًا (٣٩٢,٩٧٩-٩٤٢,٦٣٦) إضافيًا عما كان مُتوقّعًا على أساس معدّل الوفيات الخام الذي تم توقعه قبل اجتياح الائتلاف. وقدّرنا، بين

(١) للنقاش المتعلق بمختلف المناهج المستخدمة في هذه الدراسة، راجع "Other Mortality Estimates,"" Iraq Analysis, 2007 <http://tinyurl.com/or3w8z>; and Iraq Family Health Survey Study Group, "Violence-Related Mortality in Iraq from 2002–2006," New England Journal of Medicine, vol. 358, no. 5, January 31, 2008, pp. 484–93>.

هذه الوفيات، أن العنف تسبب بـ٦٠١,٠٢٧ (٤٢٦,٣٦٩-٧٩٣,٦٦٣) منها.

وجمع فريق جونز هوبكينز معطيات هذه الدراسة من ٤٧ حيًّا اختيرت عشوائيًّا وضم كل منها ٤٠ عائلة – بمجموع عام بلغ ١٢,٨٠١ شخصًا. ووجد الفريق بمقارنته معدلات الوفيات ما قبل الاجتياح وما بعده أن ٢/٥ في المئة تقريبًا من الشعب العراقي ماتوا عقب الاجتياح. ولاحظ التقرير، عاكسًا الارتفاع في الصراع الطائفي، «أن نسبة الوفيات التي تُعزى إلى قوات الائتلاف انخفضت عام ٢٠٠٦ [من ٣٩ في المئة إلى ٢٦ في المئة]. على الرغم من العدد الفعلي ازداد من سنة إلى أخرى». «ولا يزال إطلاق النار هو السبب الأكثر شيوعًا للموت، على رغم الازدياد في الوفيات الناتجة عن السيارات الملغومة»[1].

حاز المسح الثاني الذي أجرته «لانست» اهتمامًا واسعًا في صحف العالم. وكشف بحث سريع في قاعدة بيانات «ليكسيس نيكسيس» LexisNexis أكثر من ٧٠٠ إشارة في تشرين الأول/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر وحدهما إلى التقرير الجديد في صحف ومجلات تصدر باللغة الانكليزية. وأعلنت الإيكونوميست – وهي ربما أكثر داعم مرموق للتقرير ـ أن الدراسة « تشكل محاولة صالحة إحصائيًّا لاحتساب الأمور المروعة التي حدثت وتستمر في الحدوث». وعلى رغم أن بعض الصحف تعاطف مع النتائج الجديدة، وصف معظمها الدارسة بأنها «مثيرة للجدل». وجاء النقد اللاذع من المشتبه بهم المعتادين. وكرست الواشنطن تايمز في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦ افتتاحية كاملة – الأولى من افتتاحيات عدة – لنتائج «لانست» الجديدة. وأزبدت الصحيفة:

> عليكم أن تقروا للعلماء صانعي الخبر في جونز هوبكينز بهذا: إنهم يدركون الفرصة السياسية عندما يرون واحدة. فقد نُشر هذا التقدير الأخير لوفيات الحرب في العراق – ٦٥٥,٠٠٠، أي أربعة أضعاف أي تقدير آخر

(١) Gilbert Burnham, et al., “Mortality After the 2003 Invasion of Iraq,” pp. 1421–9.

– قبل أسابيع قليلة على انتخابات العام ٢٠٠٦، تمامًا على غرار دراستهم الأخيرة في «لانست» التي ظهرت تمامًا قبل انتخابات العام ٢٠٠٤.
وها نحن من جديد نراقب العلم وهو يلتقي مع السياسات المناهضة للحرب[١].

ووُجد المزيد من النقد لدراسة «لانست» عام ٢٠٠٦ في موضوع غلاف «ناشونال جورنال» وقد كتبه نيل مونرو وكارل م. كانون تحت عنوان «قنبلة المعطيات». هاجمت المقالة الدراسة على انحيازها السياسي المفترض، متحدثة عن منحة بقيمة ٤٦ ألف دولار من مؤسسة «أوبن سوسايتي إنستيتيوت» Open Society Institute التابعة لجورج سوروس. ولاحظ مونرو وكانون أن سوروس ترشح ضد جورج دبليو بوش في انتخابات العام ٢٠٠٤ الرئاسية وقد انتقد حرب الخليج. ولكن، على ما أشارت إليه «ميديا لانس»، تم الحصول على المنحة بعد وقت على التكليف بالدراسة ولم يكن لها تأثير مباشر في مشروعها أو نتيجتها المحتملة. وفنّدت «ميديا لانس»، علاوة على ذلك، موضوع «ناشونال جورنال» ووجدت أن مونرو وكانون «استخدما التكهنات والتلميحات والكثير من الإشارة إلى «نقاد» لم يسمّيا معظمهم بهدف تقويض دراسة لانست»[٢].

واختزنت الدراسة أيضًا الكثير من التعليقات القاسية من المراتب العليا في الحكومات العراقية والأميركية والبريطانية. وقال أحد المتحدثين باسم الحكومة العراقية علي دباغ، حينذاك، إن تقرير «لانست» «يقدّم أرقامًا مبالغًا فيها تتناقض مع أبسط قواعد الدقة والتحقيق». وأعلن متحدث باسم توني بلير أن الدراسة «استقرأت

(١) Diane Farsetta, “Jousting with the Lancet: More Data, More Debate Over Iraqi Deaths,” Center for Media and Democracy, February 26, 2008 <http://tinyurl.com/qr57b4>; “Calculating Casualties: The Human Cost of War in Iraq,” The Economist, October 14, 2006; “Political Science” (editorial), Washington Times, October 12, 2006, p. A20.

(٢) Neil Munro and Carl M. Cannon, “Data Bomb,” National Journal, January 4, 2008 <http://tinyurl.com/yox4pd>; “All Smoke, No Fire–The National Journal Smears the Lancet,” Media Lens, January 22, 2008 <http://tinyurl.com/r27fk9>.

عينة غير تمثيلية للسكان»، فيما لاحظت وزيرة الخارجية البريطانية مارغريت بيكيت أن الأرقام شكّلت «قفزة كبيرة عن غيرها من الأرقام». وهاجم جورج دبليو بوش شخصيًا المسح الجديد وأعلن في مؤتمر صحافي في البيت الأبيض:

> لا أعده تقريرًا ذا صدقية، وكذلك يفعل الجنرال كايسي وكبار المسؤولين العراقيين. أعرف أن الكثيرين من المدنيين العراقيين الأبرياء ماتوا وهو ما يصيبني بالاضطراب والحزن... وما من شك في أنه أمر عنيف، لكن تم الشكيك الكبير في منهجية هذا التقرير – وقد أشير إلى ذلك التشكيك الكبير من قبل. فقد الكثيرون من الأبرياء أرواحهم – لكن [رقم] ٦٠٠ ألف أو مهما تكهنوا بأنه الرقم، ليس قابلًا للتصديق وحسب[١].

واتبع فريق جونز هوبكينز، على غرار ما فعلوه عام ٢٠٠٤، القواعد النموذجية للتحقيق المعتمدة في علم الأوبئة، وهي المنهجية التي تدعمها الحكومة الأميركية في سياقات أخرى. فعلى سبيل المثال، اعتُمدت مناهج مسح متطابقة لدى سعي الحكومة الأميركية إلى تقدير عدد المدنيين الذين ماتوا في حرب كوسوفو. وقد مولت الحكومة الأميركية في عهد جورج دبليو بوش «مبادرة سمارت»، وهي كناية عن مُقرر صُمم لتعليم المنظمات غير الحكومية طريقة التخطيط لمثل هذا المسح وتنفيذه، وهو يعتمد العينات الفرعية لمعدلات الوفيات[٢].

كشفت البي.بي.سي. أوائل العام ٢٠٠٧ عن وثائق بريطانية داخلية تظهر أن كبار أعضاء فريق توني بلير نظروا في الحقيقة إلى تقرير «لانست» الثاني نظرة عالية. ولاحظ أحد المسؤولين، الذي حُذف اسمه، أن «من غير الممكن تسخيف منهجية

---

(١) Karadsheh, "Study: War Blamed for 655,000 Iraqi Deaths"; Associated Press, "Iraq Death Toll Survey 'Robust,'" Australian, March 27, 2007 <http://tinyurl.com/qjhzgg>; "Beckett Comments on Lancet Iraq Report," UK Foreign and Commonwealth Office, October 11, 2006 <http://tinyurl.com/qj2wyw>; George W. Bush (press conference), White House Rose Garden, October 11, 2006 <http://tinyurl.com/q9rvvk>.

(٢) مقابلة مع لس روبرتس أجراها ماثيو شافيز New Mexico Daily Lobo, January 30, 2008 <http://tinyurl.com/yd8c79x>.

المسح المُستخدمة هنا، فهي طريقة مُجرّبة ومُختبرة لقياس معدلات الوفيات في مناطق النزاع». وفي مذكرة أخرى، لاحظ كبير المستشارين العلميين في وزارة الدفاع السير روي أندرسون أن منهجية «لانست» «متينة وتستخدم وسائل تُعَدُّ الأقرب إلى أفضل ممارسة في هذا المجال نظرًا إلى صعوبة جمع المعطيات والتدقيق فيها في ظل الظروف الراهنة في العراق». وأثنى مهنيو الصحة العامة في مختلف أنحاء الأرض على وجهات النظر هذه. ففي أستراليا، على سبيل المثال، كتب ٢٧ أكاديميًا طليعيًا في علوم الصحة رسالة دعم مفتوحة في صحيفة «إيج» Age (ميلبورن). وحاججوا بأن:

> القيام بمثل هذه الدراسة الدقيقة، التي تستحق الثناء، خطر وصعب في ظل التضييق الذي يفرضه الوضع الأمني في العراق. ولم يتناهَ إلى مسمعنا أي سبب شرعي لرفض نتائجها. والجدير ذكره أن المنهجية نفسها استُخدمت في عمليات مسح حديثة للوفيات في دارفور وفي جمهورية الكونغو الديمقراطية، ولكن لم يصدر أي انتقاد لعمليات المسح هذه... ونحن نحثّ على نقاش صريح وبناء بدلًا من الانتقاد الذي يستند إلى معلومات مغلوطة عن مناهج علمية سليمة أو نتائجها[١].

واجتذب تقرير «لانست» الثاني أيضًا سياسيين مناهضين للحرب في الولايات المتحدة. وعقد النائبان الجمهوري رون بول من تكساس والديمقراطي دنيس كوتسينيتش من أوهايو جلسة استماع في ١١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦ في تلة الكابيتول في شأن استنتاجات «لانست». واستُمع إلى جيلبرت بورنهام ولس روبرتس والمعلّق المتخصص في شؤون العراق خوان كول. دافع بورنهام وروبرتس عن منهجيتهما وشرحاها، فيما أيد كول أرقام «لانست» ووضع إطارا للعنف في العراق. وسجّلت جلسة الاستماع، من نواحٍ عدة، لحظة حادة من الانشقاق عن

(١) Owen Bennett-Jones, "Iraqi Deaths Survey 'Was Robust,'" BBC, March 26, 2007 <http://tinyurl.com/2lto6z>; "The Iraq Deaths Study was Valid and Correct" (open letter), The Age, October 21, 2006 <http://tinyurl.com/yhmexa>.

سياسة البنتاغون المتعلقة بالإصابات في صفوف المدنيين. وطرح كوتسينيتش، في ملاحظاته الافتتاحية، عددًا من الأسئلة الموجهة مباشرة إلى إدارة بوش:

> أي ثقة لنا بالأجوبة التي تقدمها الإدارة عن عدد الوفيات العراقية؟ فمن يقتل من، ولماذا؟ ما هو تأثير هذا العنف في احتمالات السلام في العراق؟ ما هي آثار هذا العدد الضخم من الوفيات في المجتمع المدني العراقي على المديين القصير والطويل؟ هل يمكن ملايين الأطفال العراقيين الذي فقدوا أحد والديهم أن يغفروا لبلدنا إشعاله هذا العنف؟ كيف نصنع السلام مع أجيال العراقيين التي تأذوا أشد الأذى من خلال خيار الحرب غير الضروري هذا؟[١]

وعولج بعض هذه الأسئلة الحيوية، ولو في شكل غير مباشر، عندما رفع البنتاغون، بعد ذلك بأيام، السرّية عن بعض المسائل. فيوم الاثنين ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦ - بعد ستة أيام فقط على جلسة الاستماع إلى «لانست» في واشنطن وفي اليوم نفسه لتنحّي دونالد رامسفلد عن وزارة الدفاع - رفع البنتاغون السرية عن المجموعة الأولى من المعطيات عن الإصابات في صفوف المدنيين العراقيين[٢]. وبعد عقود من «اللاأدرية في شأن الإصابات»، نشر البنتاغون الأرقام في خطوة بدا أنها تهدف إلى تقويض الانتقاد الذي ولده تقرير «لانست» الثاني.

فتح الخزنة

نُشرت معطيات البنتاغون عن الإصابات المدنية في تقرير فصلي حمل اسم «قياس الاستقرار والأمن في العراق». شرعت وزارة الدفاع منذ العام ٢٠٠٥ في

(١) Kucinich-Paul Congressional Hearing on Civilian Casualties in Iraq," Rayburn House Office" Building, Washington DC, December 11, 2006 <http://tinyurl.com/psdwwe>.

(٢) David Shelby, "Pentagon Report Sees Progress in Iraq," USINFO/US Department of State, December 19, 2006 <http://tinyurl.com/odtm6z>.

وضع هذه التقارير (كما ينص على ذلك قانون أصدره الكونغرس في تلك السنة)، لكن عدد تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦ الذي رفعت عنه السرّية في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦، هو الأول الذي حمل رسمًا بيانيًا عن الإصابات المدنية العراقية، وكان تقريران سابقان اكتفيا بجمع الجيش العراقي والشرطة والمدنيين في فئة واحدة عامة – لم يسبق قط أن أعطي المدنيون عمودهم الإحصائي الخاص بهم. وكشفت الأعمدة، وقد أصبحت الآن متميزة عن باقي الفئات، أن معدلات الإصابات المدنية تضاعفت ثلاث مرات من الأول من نيسان/أبريل وحتى ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦. ولاحظ التقرير أن «هذا الارتفاع في الإصابات المدنية يكاد يكون بكليته نتيجة لجرائم القتل والإعدام». وخلال الأشهر الواحد والثلاثين التي يعكسها الرسم البياني، وقعت ٤٤ ألف إصابة في صفوف المدنيين (قتلى وجرحى)[1].

ويكشف تضمين هذه المعطيات نشرة تشرين الثاني من «قياس الاستقرار والأمن في العراق» أمرين مهمين. الأول هو أنه يُظهر أن البنتاغون قام سرًّا بتعداد القتلى المدنيين العراقيين والجرحى أقله منذ الأول من نيسان/أبريل ٢٠٠٤ – التاريخ الأقدم المذكور في الرسم البياني. والثاني هو أن تعليق التقرير في شأن «جرائم القتل والإعدام» يكشف أن البنتاغون سجّل تفاصيل محددة عن وفاة أفراد. وتناقض كلتا الحقيقتين مزاعم البنتاغون حيال إحصاء الجثث. يبقى أن رقم الإصابات المتمثل في رسم البنتاغون البياني – نحو ٤٤ ألف قتيل وجريح – متدن في صورة غير محتملة. وتسجِّل «إحصاء جثث العراق» ثلاثة جرحى لكل قتيل في العراق. ولو ان المرء قسم تعداد القتلى والجرحى على أربعة لتبيان عدد المدنيين القتلى، لحصل على رقم ١١ ألف قتيل. ويبهت هذا الرقم بالمقارنة مع تقديرات «لانست»

(١) الرجاء الملاحظة أن على المرء، للوصول إلى رقم الإصابات الـ٤٤ ألفًا، أن يحتسب الإصابات بحسب المدة ثم جمع كل مدة مع الأخرى للوصول إلى المجموع. وعلى سبيل المثال فإن مرحلة «ما قبل السيادة» من الأول من نيسان/أبريل إلى ٢٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٤ تتضمن ٨٩ يومًا. ويجب بالتالي ضرب هذا الرقم مع القيمة المقابلة على المحور «س» في الرسم البياني. وفي مرحلة ما قبل السيادة سقطت ٦ إصابات تقريبًا في اليوم الواحد، وبالتالي سجل البنتاغون في تلك المرحلة ٥٣٤ إصابة مدنية (٨٩X٦). انظر ".Measuring Stability and Security in Iraq," Department of Defense, November 30, 2006, pp. 21, 22 <http://tinyurl.com/yaja6m>

ومع الرقم المقابل لـ«إحصاء جثث العراق» وهو ٤٥,١٦٣ قتيلًا لما بين الأول من نيسان/أبريل ٢٠٠٤ والأول من تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦. ويشرح توضيح موضوع تحت الرسم البياني لنشرة «قياس الاستقرار والأمن في العراق» هذا التفاوت. وبحسب ما طبع بالحرف الصغير فإن أرقام البنتاغون للإصابات «مُستمدّة من تقارير أولية لم يتم التحقق منها رفعها عناصر من الائتلاف كانوا يستجيبون حادثًا ما؛ ولأن الأرقام غير حاسمة، استُخدمت لغرض المقارنة». وهذه التقارير التي لم يتم التحقق منها مُستمدة من قاعدة بيانات البنتاغون «سيغاكت» SIGACT – وهي مجموعة من البيانات ذات نطاق محدود جدًا. وكما لاحظت الواشنطن بوست فإن تقارير «سيغكات» هي «دائمًا غير مكتملة» إذ «إن وحدات الائتلاف لا تحقق، عادة، في الحوادث الصغيرة مثل الإعدامات وعمليات القتل العشوائية»[1]. إلا أن تقارير «قياس الأمن والاستقرار في العراق» الصادرة في آذار/مارس وحزيران/يونيو وأيلول/سبتمبر ٢٠٠٧ استخدمت هذه المعلومات على رغم الطبيعة المحدودة لمعطيات «سيغاكت». وبجمع الأرقام معًا، بلغت حصيلة إحصاء الإصابات المدنية التي وفّرها البنتاغون من الأول من نيسان/أبريل ٢٠٠٤ إلى ٣٠ آب/أغسطس ٢٠٠٧ ما يقارب ٧٢ ألفًا – وهو رقم يتعارض في شكل كبير مع معطيات «لانسيت» و«إحصاء جثث العراق».

شكّلت نشرة أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧ من «قياس الاستقرار والأمن في العراق» آخر تقرير للبنتاغون عن معدلات إصابات المدنيين يتضمن الجمع في رقم واحد بين القتلى والجرحى. وقد اشتملت كل النشرات التالية على معدلات للوفيات المدنية مستقلة عن الجرحى، وتضمنت معطيات نشرها للمرة الأولى على الملأ الجنرال ديفيد بترايوس خلال جلسات استماع في الكونغرس عام ٢٠٠٧ عن زيادة عدد القوات – أي النشر المثير للجدل لعشرين ألف جندي أميركي إضافي في العراق.

---

(١) Adding Indifference to Injury: Three Times as Many Injuries as Deaths Have Been Reported,'" Iraq Body Count, August 2003 <http://tinyurl.com/pzergc>; Michael Dobbs, "Counting Civilian Deaths in Iraq," Washington Post, October 1, 2007 <http://tinyurl.com/2yqa4m>.

وأبلغ بترايوس الكونغرس، في ١٠ و١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧، تأثير الزيادة في الأمن داخل العراق. وقد عارض معظم الأميركيين الذين تم استطلاع رأيهم عام ٢٠٠٧ إرسال المزيد من القوات إلى العراق، وانتقد الكثيرون من الديمقراطيين البارزين هذه المبادرة في قوة. وحرص بترايوس على إبراز أي تطور إيجابي، فساق تشكيلة من «المؤشرات الإيجابية،» بما في ذلك رسم بياني يورد تراجعًا في معدلات وفيات المدنيين. وبحسب الرسم البياني وعنوانه «القتلى المدنيون في العراق» مات ما يقارب ٣٨ ألف مدني ما بين كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦ وآب/أغسطس ٢٠٠٧. وشدد بترايوس على أن الاتجاه المتراجع في حصيلة معدلات الوفيات المدنية، على رغم كونه كالح السواد، بدأ في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧ – أي شهر بدأت زيادة القوات. وفاجأت المعطيات المنشورة الكثيرين. ولاحظ مايكل دوبس في الواشنطن بوست «أن الجيش الأميركي تخلى، على ما يبدو، نهائيًا عن عقيدة تومي فرانكس في شأن إحصاءات الإصابات المدنية». وكان على دوبس أن يضيف أن هذه العقيدة لا يتم التخلي عنها، إلا عندما يكون ذلك مناسبًا سياسيًا. وحذّر لاحقًا كبير الاحصائيين العسكريين في بغداد العقيد ديفيد ر. لاريفي، من أنه لا «يريد لأحد أن يفتش كثيرًا عن الدقة» في بيانات الوفيات التي قدمها بترايوس إلى الكونغرس، لكنه شدد على أن «المنحى يسير في الاتجاه الصحيح»[1].

وإمعانًا في تعكير المياه، نشرت شركة استطلاع الرأي «أوبينيون ريسيرتش بيزنس» Opinion Research Business ومركزها بريطانيا، عام ٢٠٠٧، تقديرها الخاص للوفيات. وبحسب بيان صحافي للشركة:

في الأسبوع الذي أفاد فيه بترايوس الكونغرس عن التأثير الذي أحدثته

---

(١) Dana Blanton, "FOX News Poll: Most Think Troop Surge is Bush's Last Chance in Iraq," Fox News, January 18, 2007 <http://tinyurl.com/24vgb8>; "Charts to Accompany the Testimony of Gen David H. Petraeus," Multi-National Force–Iraq, September 10–11, 2007, p. 3 <http://tinyurl.com/q3kqne>; Steven A. Boylan, "Statement to the Fact Checker," Washington Post, September 22, 2007 <http://tinyurl.com/y9826ss>; Michael Dobbs, "Iraqi Civilian Deaths, Part II," Washington Post, October 19, 2007 <http://tinyurl.com/qz7uq5>.

> «زيادة القوات» الأخيرة في العراق، كشف استطلاع جديد للرأي أن أكثر من مئة ألف مواطن عراقي قُتلوا منذ حدوث الاجتياح عام ٢٠٠٣[١].

استخدمت «أوبينيون ريسيرتش بيزنس» منهجية ترتكز على العينات الفرعية مماثلة لمنهجية فريق جونز هوبكينز لتسأل ١,٤٩٩ بالغًا اختيروا عشوائيًا في مختلف أنحاء العراق عن عدد الوفيات المسجلة في عائلاتهم نتيجة العنف منذ العام ٢٠٠٣، وكيف حدثت الوفاة. أجاب ٧٨ في المئة من المستطلعين صفرًا، وأفاد ١٦ في المئة أن عضوًا واحدًا من العائلة توفي، و٥ في المئة عن وفاة اثنين، وواحد في المئة أجابوا ثلاثة، فيما افاد ٠,٠٠٢ في المئة عن وفاة أربعة أو أكثر من عائلاتهم. ولاحظت الشركة: «وفق إحصاء العام ٢٠٠٥، يوجد ٤,٠٥٠,٥٩٧ مسكنًا، وعليه توحي هذه المعطيات بحدوث ١,٢٢٠,٥٨٠ حال وفاة منذ الاجتياح عام ٢٠٠٣». وأضافت الشركة أن ما يقارب ٥٠ في المئة من الوفيات نتجت عن جروح تسبب بها إطلاق النار.

وعلى عكس ما كشفته «لانست»، أحدثت معطيات «أوبينيون ريسيرتش بيزنس» بالكاد نقطة في الأوساط الإخبارية السائدة. وفي ما عدا إبرازها في بيان صحافي لدنيس كوسينيتش والإشارة إليها في إيجاز في موضوع ماكارثي في وكالة الانباء والسخرية منها في افتتاحية في «بلاين ديلر» Plain Dealer لم يُنقل الكثير في الولايات المتحدة عن النتائج الدراماتيكية التي توصلت إليها «أوبينيون ريسرتش بيزنس». وعلّق لس روبرتس، وهو من واضعي تقرير «لانست»، لاحقًا على النقص في الاهتمام الذي حصل عليه مسح «أوبينيون ريسرتش بيزنس» والقصف الذي تعرّض له عمله:

> عندما تنظر إلى الهجمات التي تعرضت لها «أوبينيون ريسرتش بيزنس» والهجمات التي طاولتنا نتيجة لنشر هذه المعلومات تدرك فجأة لماذا لا

(١) "More than 1,000,000 Iraqis murdered" (press release), Opinion Research Business, September 2007 <http://tinyurl.com/2xlygm>.

تريد السي.أن.أن. والواشنطن بوست أن تشكلا الحقيقة التي تقول إن من ماتوا في العراق يشكلون ضعفي من ماتوا في دارفور. لأن هذا أمر لن يؤدي وحسب إلى إكسابك الكثيرين من الأصدقاء(١).

وأجري، بحلول العام ٢٠٠٩، ما لا يقل عن ١٣ إحصاء مختلفًا للوفيات العراقية على أيدي تشكيلة من الباحثين الذين استخدموا منهجيات متنوعة(٢). وأجرت «أوبينيون ريسرتش بيزنس»، على سبيل المثال، متابعة لمسحها عام ٢٠٠٨ تضمّن ٦٠٠ عائلة في المجتمعات العراقية الريفية. وأنتجت العينة الأوسع تعدادًا منقّحًا للوفيات: ١,٠٣٣,٠٠٠ وفاة بين آذار/مارس ٢٠٠٣ وآب/أغسطس ٢٠٠٧. وقدّمت آخر نشرات «قياس الاستقرار والأمن في العراق» الصادرة عن البنتاغون تعدادًا أكثر انخفاضًا بكثير: ما يقارب ٥٧,٥٠٠ وفاة ما بين كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦ وأيار/مايو ٢٠٠٩، بحسب التقارير المدمجة الصادرة عن حكومتي الولايات المتحدة والعراق(٣). ويمكن التفتيش بين مختلف الإحصاءات - أو ربما الاكتفاء وحسب بالقراءة عنها - أن يكون محبطًا. ويكشف إحصاء الجثث، بصفة كونه تجريدًا تجريبيًا يُتنازع في شأنه لأهداف الاعتراف بشرعيته، التعسف في استخدام السلطة أكثر مما يكشف المعاناة الإنسانية. لكن وراء كل فاصلة وصفر وكل «١»، و«١٠»، و«١٠٠»، توجد حياة إنسانية حقيقية كما أنت حقيقي وصديقك المفضل ووالدتك أو والدك. وسواء سحقت تحت ركام القنابل الأميركية «الذكية»، أو علقت بين

(١) Kucinich: New Study Shows 1.2 Million Iraqi Civilians Died In War; Resolution Will Ask House" To Investigate, Prefer Criminal Charges If Necessary" (press release), kucinich.us, September 2007 <http://tinyurl.com/oa9tw8>; Leila Fadel, "Iraqi Death Toll: Number's Elusive, But People's Fears are Inescapable," The Sacramento Bee, September 23, 2007; Ted Diadiun, "Printing Poll on Iraqi Deaths Would Be Irresponsible," The Plain Dealer, September 23, 2007; Farsetta, "Jousting with the Lancet".

(٢) نوقشت نظرة عامة إلى الإحصاءات الـ١٣ في Christine Tapp, et al., "Iraq War Mortality Estimates: A ",Systematic Review Conflict and Health, vol. 2, no. 1, March 7, 2008 <http://tinyurl.com/ps2rcz

(3) Measuring Stability and Security in Iraq," Department of Defense, July 24, 2009, p. 24 <http://" tinyurl.com/y89hz87>.

نيران المليشيات المتصارعة، أو فارقت الحياة، في صمت، في عيادة مكتظة، فإن هذه الوفيات العراقية حقيقية – ويجب أن تُحتسب.

٥

إبادة المجتمع العراقي

قالت شلما عشية الاجتياح الأميركي عام ٢٠٠٣، وكانت في الخامسة من عمرها وحسب: «يأتون من فوق، من الجو، وسيقتلوننا ويدمروننا. أستطيع أن أشرح لك أننا نخشى هذا كل نهار وكل ليلة.» وأضاف عاصم، خائفًا، وكان في الخامسة أيضًا: «لديهم مدافع وقنابل وسيصبح الهواء باردًا وحارًّا وسنحترق كثيرًا»[١]. فماذا يحمل المستقبل اليوم لعاصم وشلما بعد مرور سبع سنوات – فيما القوات الأميركية تنسحب في بطء من بلدهما؟ ما الذي تتركه الولايات المتحدة وراءها في العراق؟ تتنبأ المقابلات التي أجريناها مع عراقيين إضافة إلى ريبورتاجات منظمات حقوق الإنسان وأصحاب المدونات الإلكترونية والصحافيين المغامرين بطريق غامضة إلى الأمام. فلا تزال نساء العراق وأطفاله – الأكثر ضعفًا دومًا في زمن الاضطرابات – عرضة للخطر، فيما لا يزال مثليو الجنس وأقليات البلاد الإثنية والدينية في مواجهة الموت العنيف في العراق الجديد. أضف إلى ذلك استمرار بيع البقايا الهالكة من إرث العراق الثقافي الغني – الذي احتُفظ به سابقًا في المتاحف والمكتبات والمواقع الأثرية المأمونة – لمن يدفع أكثر في الخارج. ويبدو أن أسوأ ما في عنف

(١) شلما وعاصم كما تم الاستشهاد بهما في "Measuring Stability and Security in Iraq," Department of Defense, July 24, 2009, p. 24 <http://tinyurl.com/y89hz87>.

ما بعد الاجتياح همد، فيما يستمر إرث إبادة المجتمع، وهو الهجوم الشامل على حياة العراقيين وثقافتهم وهويتهم الوطنية.

الطفولة المفقودة

يؤكد ميثاق الأمم المتحدة في شأن حقوق الطفل، الذي وقعته الولايات المتحدة والعراق على السواء، أن «لكل طفل حقًّا أصيلًا في الحياة» ويُلزم الدول الأطراف أن «تكفل إلى أقصى حد ممكن بقاء الطفل ونموّه»[1]. ولكن لا يتم العمل بهذه الضمانات في العراق. ووجدت اليونيسيف، كما ناقشناه في الفصل الأول، أن ما بين العامين ١٩٩٠ و١٩٩٨ توفى ما يصل إلى خمسمئة ألف عراقي تحت سن الخامسة بسبب الحرب والعقوبات وإفلاس منظومة العناية الصحية العراقية. وأدى اجتياح العام ٢٠٠٣ إلى مزيد من مفاقمة ظروف الأولاد العراقيين. ووجدت لجنة الانقاذ الدولية في حزيران/يونيو ٢٠٠٣ – بعد أشهر فحسب على حملة «الصدمة والترويع» الأولى – أن:

> سوء التغذية والأمراض، مثل الإسهال الذي تتسبب به إمدادات المياه الملوثة، هي مشكلات عامة. ويتشوه الأولاد ويصابون يوميًّا بجروح من الذخائر غير المنفجرة، وأدى انهيار الإدارة السابقة إلى ازدياد الضغوط الاجتماعية والاقتصادية على العائلات والأطفال[2].

وجدت اليونيسيف، مع انحسار العنف بعد ذلك بأكثر من أربع سنوات، أن ما يصل إلى مليوني طفل عراقي يواجهون سوء التغذية والمرض والانقطاع عن التعليم. وبحلول كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧ بات أكثر من ٧٦٩ ألف ولد عراقي

(١) ميثاق الأمم المتحدة لحقوق الطفل الذي تبنته الجمعية العمومية في القرار الرقم ٢٥/٤٤ في ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٩ وعرضته للتوقيع عليه واقراره والانضمام إليه. <http://tinyurl.com/lomele>

(٢) Matt Welch, "The Politics of Dead Children," Reason, March 2002 <http://tinyurl.com/yh7kx-en>; "Survey on Iraqi Children Launched," International Rescue Committee, June 1, 2003 <http://tinyurl.com/o6vj2u>.

خارج المدرسة الابتدائية فيما لم يتقدم إلا ٢٨ في المئة ممن بلغوا السابعة عشرة من الامتحانات النهائية، صيف تلك السنة. ولم يحصل إلا ٤٠ في المئة من هؤلاء على درجة مقبول. ووجدت اليونيسيف أيضًا أن العنف أو التهديد في ذروة الاضطرابات الطائفية التي أعقبت انفجارات العام ٢٠٠٦ في سامراء أدى إلى تهجير ما معدله ٢٥ ألف ولد في الشهر، فيما قُتل الآلاف أو جرحوا أو خطفوا. وأصبحت الحال الصحية في مختلف أنحاء العراق مفجعة: إذ لا وصول لـ٢٠ في المئة من الأطفال المقيمين خارج بغداد إلى المياه النظيفة أو المجاري العاملة، ولا وصول لأي منهم تقريبًا إلى الخدمات الصحية الحكومية. وخلص الممثل الخاص لليونيسيف في العراق روجر رايت إلى «أن أطفال العراق يدفعون ثمنًا مرتفعًا جدًّا»[١].

كثيرًا ما تأملت ريفرباند في تأثيرات العنف في أطفال العراق – وبخاصة الـ٤,٧ ملايين ممن هم دون الخامسة. ومن وجهة نظرها، فإن:

> الكثيرين من الأولاد خسروا طفولتهم في هذين الحرب والاحتلال. شاهد الأولاد أمورًا لا يجدر بأي طفل أن يراها – جثث في الشوارع، دبابات أجنبية، رمي مواطنيهم على الأرض أو اعتقالهم عند حواجز التفتيش من دون أي سبب – وهذا بالنسبة إلى الطفل العادي... أما الأولاد الآخرون فرأوا أهاليهم يُقتلون أمام أعينهم... أو فقدوا أذرعًا أو سيقانًا أو أعينًا في انفجار ما أو نتيجة إطلاق النار... أو خطفوا... وشهد آلاف الأطفال على غارات على منازل كانت في السابق مقدسة وترمز إلى الأمن والملجأ. ويعرف الكثيرون من الأولاد العراقيين عن السياسة والدين – فقد باتوا يدركون الفارق بين السنة والشيعة والأكراد – وهي اختلافات لم يكن يتم التشديد عليها قبل الحرب[٢].

(١) Little Respite for Iraq's Children in 2007," UNICEF, December 21, 2007 <http://tinyurl.com/" qh76f9>.

(٢) مقابلة مع ريفربند أجرتها «بازفلاش»، "Riverbend Is a Blogger, 'Embedded' in the Real Baghdad, Telling It Like It Is, Helping Us See With New Eyes," Buzzflash, April 15, 2005 <http://tinyurl. com/r2ews9>.

وهناك كاتبة مدونة إلكترونية أخرى، وهي فتاة من الموصل تسمي نفسها «صنشاين»، كتبت عن الحياة في العراق مذ كانت في الرابعة عشرة من العمر. وتوفر مدوناتها، نظرًا إلى عمرها، عدسة يمكن القراء من خلالها أن يراقبوا عن كثب حياة الأطفال العراقيين في الحرب. وأشارت في مدونتها الأولى، في ٢٠ نيسان/أبريل ٢٠٠٥، إلى العنف في الموصل:

> مرحى، أنا مراهقة من الموصل في العراق. أنا جيدة جدًّا في المدرسة على رغم أننا نواجه صعوبات مثل انقطاع الكهرباء معظم اليوم، أو عدم تمكني أحيانًا من الوصول إلى المدرسة بسبب إطلاق النار على طريقي أو لأن الجسر مقفل. وهاجم الإرهابيون مرات كثيرة مخفر الشرطة بالقرب من منزلي، وهو أمر مخيف جدًّا ويحصل فجأة. وهكذا يمكنكم أن تروا أنني لا أشعر الأمان، ويصعب علي التركيز أحيانًا، لكنني نجحت، نجحت بعلامات مرتفعة جدًّا. وأقول لنفسي، كل مرة أشعر اليأس: يمكنني القيام بذلك، لن استسلم[١].

شكل الذهاب من المدرسة وإليها – وهو في الظاهر عمل بسيط – ممارسة يومية خطرة. ومع تزايد العنف عام ٢٠٠٦ في الموصل عندما تنافست ميليشيات الأكراد والشيعة والسنة المتحاربة على النفوذ في المدينة الشمالية الغنية بالنفط، استخدم والدا صنشاين – وكلاهما من أصحاب المهن الحرة الأغنياء – سائقًا لنقل ابنتهما إلى المدرسة. وحلت المأساة في أحد أيام كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦ قبل موعد المدرسة:

> كنت في المرأب أنتظر السائق، وجاء أحد جيراني، «هـ»، لإلقاء التحية. كان يقف إلى جانبي ويحادث جدتي عندما أمسك بساقه فجأة وقال

(١) Sunshine, “introduction,” Days of My Life, April 20, 2005 <http://tinyurl.com/oteb9p>. الرجاء ملاحظة مدونات والدة صنشاين من الموصل تحت اسم «ماما». وقد أشرنا إلى مدونتها «انفعالات» Emotions في الفصل الثاني. ويمكن الولوج إلى المدونة عبر <http://youngmammy.blogspot.com/>

«آخخخخ،» واعتقدت جدتي أنه أصيب بتقلص عضلي أو ما شابه، لكنني أدركت أن الأمر أكثر من ذلك. وصاح، «إنها رصاصة».

اخترقت رصاصة ساقه وهوى على الأرض. دخلت جدتي المنزل للاتصال بعائلته. كان الشارع خاليًا، فجزعتُ وشرعت في البكاء وفي الارتجاف في شكل هستيري. ركضتُ وجلبت محارم شرعت في وضعها على ساقه. كان ينزف، وجاء السائق ليقلني إلى المدرسة. طلبت منه الانتظار. وضعت حقيبتي في السيارة وركضت عائدة إلى جاري الجريح. مضيت لآتي بأمي، وانقطع نفسي، ولم يعد في وسعي الكلام. ارتعت: «كنت، رجل، رصاصة، سيارة، دماء، جار، ضمادة، قطن، تعالي أرجوك»، لم أتمكن من تركيب جملة. لم تفهم لكنها جاءت وجلبت معها القطن الطبي والضمادات، ركضت وهي مرتدية بيجامتها! وقامت، على أي حال، بربط رجله، في قوة، لوقف النزف. واستمررت في البكاء وأنا أرتجف وأنشر الكثير من المحارم الورقية على الأرض لتغطية الدماء من دون أن أعرف لماذا!

ثم هرعت زوجته وأولاده وأشقاؤه وشقيقاته وانسباؤه وأولادهم راكضين صوب منزلنا، ونقله أحد اقربائه بسيارته إلى المستشفى. ذهبتُ إلى المدرسة وأنا أبكي طول الطريق، ولما وصلت كنت ارتجف جدًّا إلى حد أن معلماتي أصابهن القلق في شأني. اتصلت والدتي بالمديرة وأخبرتها بما حدث. وبوصولي إلى المدرسة طلبت مني المديرة الجلوس في غرفتها. أحاطت بي المعلمات يحاولن تهدئتي. وتوقفتُ بعد ساعة عن الرجفان، لكنني استمررت في البكاء وفوّتتُ حصتين. أجريت امتحانًا سيئًا جدًّا في الجغرافيا، فكتبت «الرياح الراكضة»، وارتكبت أخطاء سخيفة جدًّا...

تابعت صنشاين روايتها، وكلماتها تعبّر عن هول نزاع حصد حياة الملايين من العراقيين:

جاءت أعز صديقة لي «ر» وأنا في غرفة المديرة، وهي تبكي وترتجف أيضًا. فقد انفجر لغم أمام سيارة كانت تقلها!!! تحطم زجاج السيارة، ثم شرع الجنود الأميركيون في إطلاق النار على السيارة! ثم جاءت صديقتنا، «ش»، وهي تبكي لأنها عرفت في شأني وشأن «ر». بعد ذلك جاءت مدرّستنا السيدة «إي» إلى المديرة والدموع في عينيها لأن عمتها توفّيت.

ثم جاءت السيدة «س» وهي مدرّسة أخرى وقالت في سرعة «عذرًا، ولكن علي الذهاب، فقد قُتل ثلاثة من جيراني».

وفي النهاية جاءت السيدة «أ» وقالت: «هل عرفتم في شأن مدرّسة اللغة العربية، لقد قُتل ابن شقيقها».

وفجأة سقطت المديرة. هرعنا إلى مكتبها لنرى ما حدث. لقد فقدت وعيها بسبب كل ما شهدته في غرفتها، ولأنها تعبة أيضًا من الاعتناء بوالدتها المريضة وقد بقيت مستيقظة طول الليل.

أحداث كثيرة، وأخبار سيئة كثيرة...

ذهبتُ، بعدما هدأت، إلى الصف، وأنا أحاول فهم ما حدث. أملت في أن يكون الأمر مجرد كابوس، لكنه، ويا للأسف صحيح، رهيب ولكنه صحيح، هذه هي حياتي[١].

يفصّل الكثير من مدونات صنشاين العنف الذي واجهه شقيقها وشقيقتها الأصغر منها في الموصل التي مزقتها الحرب. لما بدأت صنشاين بكتابة المدونات كانت شقيقتها في السابعة وعمر شقيقها ١١ شهرًا فقط. وركّزت في ١٠ أيار/مايو على اختبارات شقيقتها. وتصف مدونة تحت عنوان «يوم سيّئ في ذاكرتي،» حادثًا في مدرسة شقيقتها في الشهر السابق. بدأت المشكلات عندما «هاجم إرهابيون الجنود العراقيين والأميركيين وهربوا». وتتابع صنشاين:

(١) Sunshine, “It couldn’t happen to you..........,” Days of My Life, December 8, 2006 <http://tinyurl.com/qzu8wu>.

حاول الجنود مطاردتهم ودخلوا المدرسة لأخذ مواقع لهم على السطح وفي غرف الطبقة الأخيرة، وأطلقوا النار على الإرهابيين من المدرسة صوب الطريق. جلب الجنود رفاقهم الجرحى إلى باحة المدرسة ليقدموا إليهم الاسعافات الأولية.

أصيبت التلميذات جميعهن بالذعر، وأغمي على الكثيرات منهن.

وأسوأ ما حدث هو أنهم افلتوا التلميذات للذهاب إلى بيوتهن. وشقيقتي (ابنة السنوات السبع) لا تعرف طريق المنزل وحدها. فذهبت إلى منزل جارتنا القريب.

ولما عرفت والدتي بإطلاق النار على مقربة من مدرسة شقيقتي، اتصلت هاتفيًا بوالدي في مقر عمله وطلبت منه القيام بشيء ما.

لم يتمكن والدي من شق طريقه إلى المدرسة، فذهب إلى منزل عمه (المجاور للمدرسة) وانتظر.

إستبد القلق الشديد بوالدتي، لكن أصدقاءنا اتصلوا بعد ساعة هاتفيًا ليقولوا لنا إنها عندهم.

ولما أمكننا العودة بها إلى المنزل كانت مرعوبة وتبكي ومتسخة. اتصلنا بالطبيب الذي وصف لها المهدئ، واستحمّت وأخذتها أمي إلى السرير.

وهي مذذاك تخاف المدرسة. وتأخذها جدتي إليها وتعيدها منها سيرًا، وقد لاحقهما إطلاق النار مرات عدة وهما في الطريق مما جعلهما تركضان لدخول أي منزل على طريقهما[1].

ملأ الخوف والعنف أيضًا حياة شقيق صنشاين الطفل. وكتبت في ٢٤ أيار/ مايو ٢٠٠٨، كيف أن شقيقها لاحظ في أحد الأيام سيادة الهدوء – وهو إدراك

(١) Sunshine, “Bad day in my memory,” Days of My Life, May 10, 2005 <http://tinyurl.com/qk-kqjy>.

ذو مضامين عميقة في شأن الحياة «العادية» في العراق. وقال شقيقها: «ما من انفجارات اليوم». وأجابت:

صُدمتُ، وفكّرت أوّاه، أنَّ حتى طفلًا في الرابعة لاحظ ذلك!! آمل في أن يتحسن ويبدأ بالتحدّث جيّدًا من جديد (فقد منذ بضعة أشهر قدرته على النطق وتركيب جمل صحيحة بعدما انفجرت سيارة ملغومة على بعد ٣٠ مترًا من منزلنا. كان في الحمّام وحده وذعر، وهو مذذاك يتأتئ كثيرًا)[١].

يشكل الأولاد والمراهقون اليوم ٥٠ في المئة من سكان العراق – وخمسة ملايين منهم يتامى. وقالت آن فينيمان المديرة التنفيذية لليونيسيف «إنه لأمر صعب جدًّا على الأطفال الذين يضطرون إلى مشاهدة هذا النوع من فظاعات النزاع وهو ما يحرمهم فعلًا نشاط الطفولة الذي يجب أن يتمتعوا به». وتساءلت «هل إذا ما استمروا في التعرض لهذا النوع من العنف، يصبحون هذا النوع من البالغين المنتجين الذين يجب أن يصبحوا عليه للمشاركة فعلًا... في يوم من الأيام في عراق مسالم؟»[٢]

نساء معرّضات للخطر

النساء اللواتي ربيّن أولادًا في السياق القاتل لعراق ما بعد صدام اختبرن أيضًا حالات من نكد العيش فريدة من نوعها. عانت النساء أيضًا إلى جانب الرجال في ظل نظام صدام الوحشي، إلا أن العلمانية البعثية ضمنت حمايتهن في شكل كبير من العنف والطغيان المرتكزين على الفصل بين الجنسين. وامتلك معظم نساء المدن

(١) Sunshine, "Um Al-Rabeeain operation..," Days of My Life, May 24, 2008 <http://tinyurl.com/qdpm8z>.

(٢) John Tirman, "Iraq's Shocking Human Toll: About 1 Million Killed, 4.5 Million Displaced, 1–2 Million Widows, 5 Million Orphans," Nation, February 2, 2009 <http://tinyurl.com/an4ucl>; Veneman quoted in Suleiman Khalidi, "Plight of Iraqi Children Raises Concern," AlertNet, May 21, 2007 <http://tinyurl.com/omgfnc>.

الحرية في اختيار ما يردن ارتداءه من ثياب غربية أو عربية تقليدية، وتولّى بعضهن مراكز مرموقة في الحكومة العراقية وفي الصناعة. وبحسب «أوبن ديموكراسي» Open Democracy فإن العام ١٩٨٢ شهد «انتخاب ٢٧ امرأة في البرلمان العراقي المؤلف من ٢٥٠ مقعدًا – أي ١٠,٨ في المئة وهي نسبة أعلى من النسبة الموجودة في مجلس العموم البريطاني في ذلك الوقت، وهي ٤١ امرأة من أصل ٦٥٠ مقعدًا (٦,٣ في المئة)». وقبل ذلك بثلاثة أعوام فقط أصبح العراق طرفًا في ميثاق إلغاء كل أشكال التمييز ضد المرأة، وهو ما ألزمه «اتخاذ كل الاجراءات المناسبة لإلغاء التمييز ضد المرأة من قبل أي شخص أو منظمة أو مؤسسة»، ووضع حدًّا «للممارسات التي تسند إلى فكرة دونية أو فوقية لأي من الجنسين أو إلى الصورة النمطية عن أدوار الرجال والنساء» و«اتخاذ كل الاجراءات المناسبة، بما فيها التشريع، للقضاء على كل أشكال تجارة الرقيق الأبيض وكل أشكال استثمار دعارة النساء»[1]. وفي ضوء هذه الوعود تبدو معاناة النساء العراقيات في مرحلة ما بعد العام ٢٠٠٣ أكثر مأساوية بكثير.

ارتفعت طموحات النساء في ٢٠٠٣ – لكنها سرعان ما تحطمت بسبب الظروف التي أخذت في التغيّر سريعًا. وقالت سوسن المرأة العراقية التي أجرت السي.أن.أن. مقابلة معها في شباط/فبراير ٢٠٠٨: «اعتقدنا أننا سنحصل على الحرية والديمقراطية وتحصل النساء على حقوقهن. ولكن لم يتحقق أي مما وُعدنا به. ليس هناك سوى الخوف والرعب». إستغلت عصابات من الرجال الفوضى وانهيار القانون والنظام، فاختطفت نساء عراقيات واغتصبتهن، بل تم حتى بيع بعضهن من الخارج. وقال ضابط في شرطة بغداد في حزيران/يونيو ٢٠٠٣ لهيومان رايتس ووتش: «لا أمان، وهناك الكثير جدًّا من الجرائم وحالات كثيرة أكثر مما يمكن ملاحقته». وأضاف: «يتخصص بعض العصابات في اختطاف الفتيات وبيعهن من دول الخليج. وقد

(١) Lesley Abdela, "Iraq's War on Women," openDemocracy, July 17, 2005 <http://tinyurl.com/p68y8x>; ميثاق الأمم المتحدة لإلغاء كل أشكال التمييز ضد المرأة الذي تبنته الجمعية العمومية للأمم المتحدة في 1979. <http://tinyurl.com/y48lxe>

حدث هذا قبل الحرب أيضًا لكنه الآن أكثر سوءًا لأن في وسعهم إدخالهن وإخراجهن من دون جوازات سفر». وتتحمل الولايات المتحدة مسؤولية كبرى في اندفاعة الأصولية العنفية. وعلى ما شرحت الواشنطن بوست:

> منح المسؤولون الأميركيون، في سعيهم إلى الاستقرار في العراق، سلطات واسعة لزعماء القبائل والزعماء الدينيين، من السنة والشيعة، ممن رفضوا العلمانية التي حافظ عليها صدام في شكل واسع. وقد فرض هؤلاء الزعماء تفسيرًا متشددًا للإسلام وطبقوا القوانين القبلية التي تقول النساء النشطات إنها تحد من حريتهن وتشجع على العنف ضدهن[١].

يستخدم الزعماء الدينيون ومطاوعتهم العنف لإكراه النساء على ارتداء الحجاب والتزام المنزل والامتناع عن العمل والتعلّم معًا. وقالت هانية عبد الجبار، تلميذة الجامعة ابنة الثالثة والعشرين، في مقابلة أجرتها معها شبكة المعلومات الإقليمية المتكاملة [وهي بمثابة وكالة أنباء تابعة للأمم المتحدة] في تموز/يوليو ٢٠٠٥: «كنت أسير منذ شهر من معهدي إلى منزلي عندما اختطفني ثلاثة شبان في الشارع». وتابعت أن الرجال

> رموا وجهي وساقي بالحامض. قصّوا شعري وهم يضربونني على وجهي مرات عدة قائلين إن هذا ثمن عدم الانصياع لرغبة الله في استخدام الحجاب. وأنا لا استطيع الرؤية اليوم بإحدى عيني لأن الحامض أفقدني البصر. أخشى مغادرة منزلي. وها أنا قد أصبحت الآن مشوهة تمامًا ووجهي كوجه المسخ[٢].

---

(١) سوسن كما تم الاستشهاد بها في Arwa Damon, “Violations of ‘Islamic Teachings’ Take Deadly Toll on Iraqi Women,” CNN, February 8, 2008 <http://tinyurl.com/r4zoof>; “Climate of Fear: Sexual Violence and Abduction of Women and Girls in Baghdad,” Human Rights Watch, vol. 15, no. 7 (E), July 2003, p. 3 <http://tinyurl.com/ralbhq>; Sudarsan Raghavan, “Iraqi Women, Fighting for a Voice,” Washington Post, December 7, 2008 <http://tinyurl.com/qa8srd>.

(٢) “IRAQ: Acid Attacks on ‘Immodest’ Women on the Rise,” IRIN, July 4, 2005 <http://tinyurl.com/q2pxwr>.

وعلى غرار هانية، علّقت نساء كثيرات أخريات تعليمهن في وجه العنف والمضايقة. وقدّرت وزارة الإعلام عام ٢٠٠٧ أن أكثر من ٧٠ في المئة من النساء العراقيات والفتيات لم يلتحقن بالمدارس أو بالتعليم العالي. وقالت أم علي، وهي امرأة متزوجة في بعقوبة، لوكالة «انتربرس سرفيسز»: «نحن الآن نمضي وقتنا في المنزل وحسب». وأضافت:

> سافرت إلى خارج بعقوبة أكثر من أربع سنوات. والمكان الوحيد الذي يمكنني الذهاب إليه هو منزل أهلي. باتت حياتي كلها متوقفة على التدبير المنزلي وعلى أولادي؛ ليست لدي أهداف أحققها، ولا تعليم أنجزه. ولا يمكنني أحيانًا مغادرة المنزل على مدى أسابيع.

وقالت صافانا، وهي فنانة عراقية وأستاذة جامعية في الثلاثين من العمر، إن الخوف «يلازمنا دائمًا... ولا نعرف ممن نخاف. ربما هو صديق، أو تلميذ أعلّمه. لا توجد استراحة ولا أمن. ولا أعرف ما الذي يجب أن أخاف منه»[1].

ليست النساء في مأمن حتى في المنزل. فقد اشتد فجأة ما يُسمّى بجرائم الشرف – جرائم القتل التي يرتكبها أفراد من العائلة بالخنق أو الطعن أو الحرق. فالنساء اللواتي يُشك في ممارستهن الجنس خارج إطار الزوجية أو قبل الزواج، بل وحتى ضحايا الاغتصاب البريئات، يصبحن هدفًا لأشقائهن وآبائهن وأنسبائهن الآملين في استرجاع «شرف» العائلة و«غسل» العار. ففي كردستان سقطت ٢٠٦ نساء ضحية جرائم الشرف في النصف الأول من ٢٠٠٨ – بزيادة ٣٠ في المئة عن آخر ستة أشهر من العام ٢٠٠٧. وفي البصرة – ثانية أكبر المدن العراقية وواحدة من مناطق قليلة تحتفظ فيها السلطات بمثل هذه الإحصاءات – أفيد عام ٢٠٠٧ عن ٤٧ جريمة شرف. وبحسب التقرير العالمي لهيومان رايتس ووتش عن سنة ٢٠٠٩، تبقى جرائم الشرف «تهديدًا ماديًا سائدًا للنساء والفتيات العراقيات. ولم تنته إلا حالات قليلة

(١) أم علي كما استشهد بها جميل ضاهر Dahr Jamail, "Iraqi Women More Oppressed Than Ever," IPS, March 7, 2008 <http://tinyurl.com/2gh569>; هانية كما نقلت عنها عروى دامون Arwa Damon, "Violations of 'Islamic Teachings' Take Deadly Toll on Iraqi Women".

بالإدانة على رغم الإفادة عام ٢٠٠٨ عن العشرات منها. فالقانون العراقي يسمح بالتساهل مع مثل هذه الجرائم ونادرًا ما تقوم الشرطة بالتحقيق فيها خوفًا من التورط في السياسات العائلية. وقالت منى سعود، النشطة في مجال حقوق المرأة في البصرة، إن «الدين والقبلية يخنقان النساء». وأضافت أنهن «لا يزلن خائفات» على رغم تراجع العنف[١].

ويدافع بعض الزعماء الدينيين في العراق علنًا عن المعاملة القاسية للنساء. وقال صلاح علي، وهو مسؤول عراقي كبير: «هذا بلد إسلامي وأي هجوم على حشمة النساء هو بمثابة اعتداء على معتقداتنا الدينية». بل إن التقارير عن العنف ضد النساء صلّبت وجهات نظر بعض الزعماء الدينيين. وقال أحد أئمة بغداد صلاح مزيدين «إن حوادث الإساءة هذه تبرهن وحسب ما كنا نقوله منذ زمن بعيد، وهو أن من واجب النساء المسلمات ملازمة منازلهن ورعاية أولادهن وأزواجهن بدلًا من البحث عن عمل – وبخاصة في ظل الغياب الراهن للأمن في البلاد». وتتولى نساء مراكز في الحكومة العراقية، لكنهن لسن بالكثيرات. فمن بين اللجان الـ٢٥ في البرلمان العراقي ترأست امرأتان اثنتين منهما فقط عام ٢٠٠٨. وفيما ضمنت النسخ السابقة من قوانين الانتخابات العراقية ربع مجموع المقاعد للنساء، فإن لغة الكوتا اختفت من التشريع مع اقتراب انتخابات العام ٢٠٠٩. والنساء القليلات اللواتي يتولين اليوم مواقع انتخابية هن أعضاء في الأحزاب الأصولية الحاكمة. وقالت الناشطة منى سعود «إنها العباءات والنساء الموالي»[٢].

---

(١) Damon, "Violations of 'Islamic Teachings' Take Deadly Toll on Iraqi Women"; "World Report," Human Rights Watch, 2009, p. 469 <http://tinyurl.com/o3lpw7>; Saud quoted in Raghavan, "Iraqi Women, Fighting for a Voice".

(٢) علي ومزيدين كما نقلت عنهما روث روزن Ruth Rosen, "The Hidden War on Women in Iraq," TomDispatch, July 13, 2006 <http://tinyurl.com/4xlcoj>; Alissa J. Rubin and Sam Dagher, "Lack of Government Seats for Women Stokes Anger in Iraq," New York Times, January 4, 2009 <http://tinyurl.com/ydrz4g3>; سعود كما نقل عنها راغافان Raghavan, "Iraqi Women, Fighting for a Voice".

اكتشفت «المنظمة الدولية للنساء من أجل النساء» عام ٢٠٠٨ وجود تشاؤم بين النساء العراقيات. فقد وصف نحو ثلاثة أرباع النساء العراقيات الـ١٢٠٠ التي أجريت معهن مقابلات الوضع بأنه «سيّئ أو سيّئ جدًّا، فيما أعربت ٨٩ في المئة عن «قدر كبير من القلق من أنهن، أو من يقيم في منزلهن، سيصبحن ضحايا للعنف». وأعلنت ٦٤ في المئة من المجيبات أن «العنف ضد النساء يتزايد»، فيما اعتقدت ٦٨ في المئة أن «قدرتهن على السير في الشارع كما يحلو لهن أصبحت أكثر سوءًا منذ الاجتياح الأميركي». ولما سئلت المجيبات عن سبب ازدياد العنف أجبن: «لأن هناك احترامًا أقل من قبل لحقوق النساء، ولأن المرأة تُعدُّ ملكية، ولأن الاقتصاد ازداد سوءًا». وأخيرًا، لم يعرب سوى الربع عن «التفاؤل بالمستقبل، وقلن إنهن يعتقدن أن الوضع العام سيتحسن السنة المقبلة». ووجد تقرير العام ٢٠٠٩ للأوكسفام أن نحو ٦٠ في المئة من النساء الـ١٧٠٠ المستَطلعات قلن إن السلامة والأمن يشكلان همهن الأول، على رغم تراجع العنف. ولاحظت أوكسفام أن ٥٥ في المئة كن، منذ العام ٢٠٠٣، ضحايا للعنف و١٢ في المئة ضحايا للعنف المنزلي. وبحسب أوكسفام فإن «النساء خصوصًا أقل أمنًا اليوم من أي وقت من أوقات النزاع أو السنوات التي سبقته»(١).

وتم إجمال عدم الأمان في ما نشرته «نوروتيكا»، الأنثى العراقية صاحبة المدونة التي تعيش وتعمل في المنطقة الخضراء في بغداد. واستذكرت أنها في شباط/فبراير ٢٠٠٨، وفيما هي تنتظر لاستخدام أحد حمامات المنطقة الخضراء:

> أقحمت هذه الفتاة نفسها وهي ترتدي الأسود من رأسها إلى أخمص قدميها. وشاح الرأس أسود، النظارة سوداء، العباءة سوداء، كل شيء

(١) Stronger Women, Stronger Nations: 2008 Iraq Report,” Women for Women International, March” 3, 2008 <http://tinyurl.com/oedfwe>; “In Her Own Words: Iraqi Women Talk about their Greatest Concerns and Challenges,” Oxfam International, March 2009, pp. 2–3 <http://tinyurl.com/ag5s2l>.

أسود. تملكني الفضول لمعرفة من هي هذه المرأة. وما إن وقفت أمام المرآة الوحيدة غير المشغولة حتى شرعت في نزع نظارتها السوداء الهائلة الحجم ووشاح الرأس لتكشف عن شعر أشقر طبيعي طويل ينساب إلى ما تحت كتفيها في أمواج شقر ناعمة. ما هي إلا ساندي بيل (وهذا ليس اسمها الحقيقي، لكنها تبدو مثل ساندي بيل شخصية الرسوم المتحركة). إبتسمتُ وقلت: «يا إلهي يا ساندي، فأنا حتى لم أتعرّف إليك». نظرت إليّ عبر انعكاس المرآة بعينيها الزرقاوين الأخاذتين، وردت الابتسامة في لطف. نعم أعرف، قالت وهي تملس شعرها. أبدو مخيفة، أليس كذلك؟ هززت رأسي نافية، فهي ليست مخيفة في حد ذاتها، ولكن مختلفة. فقالت بنبرة حزينة: «ليس أمامي من خيار آخر يا نوروتيكا. فإما أن أتحجب وإما أن أُقتل... أصبحنا أهدافًا سهلة لهذه الحيوانات المتطرفة». وتحول الحزن في صوتها، في بطء، غضبًا. «صحيح أننا عانينا تحت نظام صدام، لكننا عرفنا على الأقل على من نلقي اللوم. ونحن الآن يا نوروتيكا، الآن، لا نعرف من ندل إليه بإصبعنا؟ ميليشيا الصدر؟ فيالق بدر؟ متطرفو القاعدة الوهابيون؟ على من نلقي اللوم يا نوروتيكا؟ فحتى القوات الأميركية مذنبة. لا أعرف حتى هل يشي بي جاري، أو صديقي. أو ذلك العجوز الذي أشتري منه الخضر. أو ذلك الصبي الصغير الجالس عند الزاوية يستعطي. لا أعرف من سيطلق علي النار أوّلًا. أهي الميليشيا؟ أم الشرطة؟ أم الأميركيون؟ أو ربما أحد مدمني المخدرات، أو أحد السكارى؟ من سيكون؟ ولولا والداي العجوزان لغادرت منذ زمن طويل»[1].

(١) Neurotica, “The Silently Grieving Black Veils...,” Neurotic Iraqi Wife, February 9, 2008 <http://tinyurl.com/r8j4e8>.

حياة مثليي الجنس وموتهم

أصاب أيضًا التعصّب الديني نفسه ومفاهيم الرضوخ و«الشرف» التي غذّت عنف ما بعد العام ٢٠٠٣ ضد النساء، مجتمع مثليي الجنس في العراق. ففي أواسط سنوات الثمانينات وأوائل التسعينات تساهلت السلطات العراقية مع الشذوذ الجنسي. جاب مثليو الجنس الرجال شارع أبو النواس في بغداد – وقد سمي على اسم شاعر القرن الثامن الذي اشتهر بغلمانياته – فيما أصبحت نوادٍ عدة لمثليي الجنس إضافة إلى ليلة مثليي الجنس الأسبوعية في فندق فلسطين، من الأمور الراسخة على الساحة العراقية. واستذكر علي حلّي، المنفي العراقي المثلي الجنس وهو الآن ناشط يقيم في لندن، أن « كثيرين من فتيان الكويت والسعودية وُجدوا في الشوارع وقد تبرّجوا»[1].

تدهورت الأحوال بالنسبة إلى مثليي الجنس بعد حرب الخليج عام ١٩٩١. إذ مدّ صدام حسين يده إلى الإسلاميين المحافظين باذلًا أقصى جهده لتثبيت سلطته وسط العقوبات والغارات الأميركية. فأُقفلت نوادي مثليي الجنس عام ١٩٩٣ تملّقًا للأئمة الأقوياء، ومع حلول العام ٢٠٠١ سُنّ قانون يجعل من الشذوذ الجنسي أمرًا غير مشروع. وقال حلّي: «أوقفت ثلاث مرات لأنني مثلي الجنس، وتعرّضت للتعذيب. وتمكنت أخيرًا، بعد محاولات عدة، من الفرار من البلاد وذهبت إلى أبو ظبي ثم إلى الأردن فسوريا لأصل أخيرًا إلى إنكلترا». وبحسب وزارة حقوق الإنسان العراقية، عذب نظام صدام حسين بين العامين ١٩٩١ و٢٠٠٣ أكثر من ثلاثة آلاف رجل للاشتباه بشذوذهم الجنسي. وعلى رغم سوء أوضاع مثليي الجنس العراقيين في ظل صدام، أصبحت حيواتهم أكثر عرضة للخطر بعد انهيار نظامه. وقال بيتر تاشيل، الداعية البارز لحقوق الإنسان في المملكة المتحدة، إن «لا دليل كبيرًا إلى الانتقال إلى الديمقراطية بالنسبة إلى المثليين العراقيين. فهم لا يختبرون أي احترام جديد

(١) حلي كما استُشهد به في Cara Buckley, “Gays Living in Shadows of New Iraq,” New York Times, December 18, 2007 <http://tinyurl.com/2o9ftu>.

لحقوق الإنسان. بل إن حياتهم أصبحت أسوأ مما كانت عليه في ظل الطاغية صدام حسين»[١].

وما إن تسلمت السلطة الموقتة للائتلاف السلطة حتى ألغت معظم قوانين حقبة البعث بما فيها القانون المناهض للشذوذ الجنسي، فيما أعلنت المادة الـ١٧ من الدستور العراقي الجديد حق كل فرد في حياته الخاصة، ما دامت لا تنتهك حقوق الآخرين أو الأخلاق العامة». غير أن المادة الـ١١١ من قانون الجزاء العراقي الجديد تلغي ضمانات المادة الـ١٧. وتنص على أن «كل من يمسك بزوجته أو أي من قريباته الإناث ترتكب الزنى أو أي قريب ذكر منخرط في اللواط ويقتل أو يجرح أحدهم يُعفى من أي عقوبة». وهذا القانون – الذي يُستخدم عادة لتبرير جرائم الشرف ضد الإناث شرعًا – ينطبق أيضًا على الشاذين جنسيًا. وأبو قصي الوالد العراقي الذي قتل ابنه بعد اكتشاف شذوذه الجنسي، فخور بجريمته. وقال والد قصي لشبكة المعلومات الإقليمية المتكاملة: «شنقته في منزلي أمام شقيقه ليكون عبرة للجميع فلا تخولهم نفسهم القيام بالأمر نفسه». وعلى رغم اتهامه بالقتل، أطلقته السلطات بعد ذلك بشهر بعد التحقق من ملابسات الجريمة[٢].

يُعتقد أن فيلق بدر – الميليشيا الشيعية التابعة للمجلس الإسلامي العراقي الأعلى المدعوم من إيران – مسؤول عن مقتل عشرات الشاذين جنسيًا. وقد بدأ جموح هؤلاء في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٥ بعدما أصدر آية الله العظمى علي السيستاني – أكثر زعماء الشيعة نفوذًا وقوة في العراق – فتوى على موقعه الإلكتروني يجيز فيها عقوبة «اللواط والسحاق». وهذه الأفعال، بحسب السيستاني، «محرمة ويعاقب عليها... وعلى المتورطين أن يُقتلوا بأسوأ الطرق الممكنة وأقساها». وأبلغ تحسين، وهو ناشط سرّي في بغداد ويعمل مع حلّي، صحيفة «غاي سيتي نيوز» Gay City

(١) حلي كما نقل عنه Doug Ireland, "Shia Death Squads Target Iraqi Gays," Gay City News, March 23, 2006 <http://tinyurl.com/f6ct6>; "IRAQ: Male Homosexuality Still a Taboo," IRIN, February 5, 2006 <http://tinyurl.com/r3atbx>; Peter Tatchell, "Sexual Cleansing in Iraq," Guardian, September 25, 2008 <http://tinyurl.com/3qto9e>.

(٢) "IRAQ: Male Homosexuality Still a Taboo," IRIN.

News في آذار/مارس ٢٠٠٦، أن «حياة مثليي الجنس، منذ فتوى السيستاني، لم تعد تساوي شيئًا هنا، وأن العنف والقتل أصبحا أكثر سوءًا بكثير». وأضاف تحسين: «الأسبوع الماضي وحسب وُجد أربعة من مثليي الجنس، نعرفهم، مقتولين. أخشى مغادرة غرفتي والخروج إلى الشارع لأنني سأُقتل. جميعنا يعيش في خوف». وقد اختفت الفتوى عن موقع السيستاني عام ٢٠٠٦ إلا أنه لم يتخلّ عنها رسميًّا قط، ويعمل فيلق بدر – الذي دُمج الآن في شكل كبير في قوى الأمن الوطنية العراقية – من دون كللٍ على تطبيق هذا المرسوم الديني[١].

أسس علي حلّي عام ٢٠٠٥ «مجموعة أبي نواس» – وأعيدت تسميتها لاحقًا بالإنكليزية LGBT (سحاقيات، لوطيون، مزدوجو الجنس، ومخنثون) – التي تدافع عن مثليي الجنس العراقيين وتموّل شبكة من المنازل الآمنة عبر العراق توفّر الحماية لنحو أربعين من مثليي الجنس الرجال. وفي المقابل، طور فيلق الصدر التابع للمجلس الإسلامي الأعلى في العراق حيلًا للعثور على الشاذين جنسيًّا العراقيين في المخبأ. وبحسب حلّي:

> يصطاد مسلحو بدر الرجال المثليي الجنس عبر غرف المحادثة على الإنترنت. يرتّبون لموعد، ثم يضربون الضحية ويقتلونها. ويوضع الرجال العازبون ممن هم بين ٣٠ سنة و٣٥ تحت المراقبة للشك في أنهم لوطيون، وكذلك المخنثون. يتم التحقيق في أمرهم ويُنذرون بوجوب الزواج.
>
> يمهلم جماعة بدر، عادة، شهرًا لتغيير سبلهم. وإذا لم يبدّلوا من سلوكهم، أو إذا فشلوا في إظهار الدليل إلى أنهم يخططون للزواج، فسيوقفون، ويختفون، ويُعثر عليهم في النهاية أمواتًا. وتكتشف الجثث، عادة،

(١) Peter Tatchell, "Sistani Removes 'Death to Gays' Fatwa," petertatchell.net, May 15, 2006 <http://tinyurl.com/r9es8q>; Tahseen quoted in Doug Ireland, "Shia Death Squads Target Iraqi Gays"; ,Olivia Ward
Why 2009 will be even tougher than 2008," Toronto Star, February 22, 2009 <http://tinyurl.com/" .<pcd2tv

> والأيدي موثوقة وراء الظهور، والأعين معصوبة مع جروح من جراء رصاصات في الرأس من الخلف[1].

تواصلت أعمال القتل على رغم تراجع العنف في أنحاء العراق. وكتبت النيوزويك في آب/أغسطس ٢٠٠٨: «الآن وقد همدت الحرب الطائفية انطلق الموسم المفتوح للشاذين جنسيًّا وغيرهم ممن يثيرون سخط المتشددين الدينيين». وأشار بيت تاتشل في الغارديان في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٨، إلى أن الشرطة العراقية قتلت خمسة من أفراد مجموعة حلّي السرية. وبحسب تاشل:

> يؤكد شهود عيان أنهم رأوا عناصر بلباس الشرطة يقتادون الرجال من أحد المنازل تحت تهديد السلاح. نعم، الشرطة العراقية! ولم يُعرف مذذاك شيء عن الضحايا الخمس. والأكثر ترجيحًا أن رجال الشرطة - أو فرق الموت الإسلامية التي تغلغلت في الشرطة العراقية مستخدمة البزات الرسمية لتنفيذ ما يُسمى بجرائم الشرف ضد مثليي الجنس والنساء الفاسقات والكثيرين غيرهم، أعدموا هؤلاء[2].

وتصرّ الحكومة العراقية على عدم وجود أي مشكلة على رغم الريبورتاجات الظرفية عن المسألة في النيوزويك ولوس أنجلس تايمز ونيويورك تايمز. واعترف علي دباغ المتحدث باسم رئيس الوزراء نوري المالكي بأن « ما من أحد يبالي بهذه المسألة. فهي ليس من عادات شعب العراق، وليس العراق وحسب بل المنطقة بأسرها». وعندما أصدرت بعثة مساعدة العراق التابعة للأمم المتحدة عام ٢٠٠٦ تقريرها الذي لاحظت فيه وجود «بيئة من الإفلات من العقاب ومن الفوضى» تتحمل فيها «المجموعات الإسلامية المسلحة والميليشيات» مسؤولية «عدد من الاغتيالات التي طاولت مثليي الجنس في العراق،» ندد دباغ بالبيان قائلًا:

---

(١) Ireland, “Shia Death Squads Target Iraqi Gays”.

(٢) Tatchell, “Sexual cleansing in Iraq».

توجد معلومات في التقرير لا يمكننا تقبّلها هنا في العراق. فالتقرير يتحدث مثلًا عن ظاهرة الشاذين جنسيًا ومنحهم حقوقهم. مثل هذه البيانات لا تتناسب مع المجتمع العراقي. وهذا مرفوض. عليهم [الأمم المتحدة] احترام قيمنا وتقاليدنا هنا في العراق(١).

وفي الولايات المتحدة، سعى مشرّعان أعلنا صراحة أنهما مثليا الجنس، وهما تامي بالدوين الديمقراطي عن ويسكنسون وبارني فرانك الديمقراطي من ماساتشوستس، إلى إلقاء الضوء على الحملة العنيفة. وحثا في رسالة مفتوحة في حزيران/يونيو ٢٠٠٧ وزيرة الخارجية كونوليزا رايس على «استخدام كل وسيلة دبلوماسية متوافرة للتدخل لدى رئيس الوزراء المالكي والرئيس الطالباني ودعوة الحكومة العراقية إلى القضاء على الاضطهاد المنهجي لمثليي الجنس في العراق». ولم يُعرف هل أثارت رايس الموضوع مع المالكي أو الطالباني – غير أن عمليات القتل مستمرة حتى اليوم. وفي اليوم نفسه الذي نشرت فيه الغارديان، في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٨، مقالة تاتشل عن اختطاف خمسة ناشطين من مثليي الجنس، نشر علي حلّي في مدونته الرسالة العاجلة التالية من تاتشل:

خبر اللحظة الأخيرة: حملت أخبار العراق هذا الصباح، بعد نشر هذه المقالة، أن منسق «سحاقيات، لوطيون، مزدوجو الجنس، ومخنثون» في بغداد، بشّار ابن السابعة والعشرين، اغتيل في صالون للحلاقة. اقتحم المسلحون المكان وأمطروه بالرصاص.

إن ما يُسمى الوضع الأمني المتحسن في العراق لا يفيد جميع العراقيين،

(١) Molly Hennessy-Fiske, "Since Invasion, Gays in Iraq Lead Lives of Constant Fear," Los Angeles Times, August 5, 2007 <http://tinyurl.com/qj9os6>; "Human Rights Report: 1 November–31 December 2006," UNAMI, p. 26 <http://tinyurl.com/2hlg7h>; Associated Press, "The New Iraqi Regime Slams UN Report on Casualties," Iraqi LGBT, January 18, 2007 <http://tinyurl.com/omjrlv>.

> وبالأخص مثليي الجنس بينهم. ففرق الموت الإسلامية منخرطة في حملة قتل كارهة للمثليين بتشجيع فاعل من رجال دين مسلمين بارزين[١]...

وبحلول نيسان/ابريل ٢٠٠٩ بلغ عدد الرجال المثليي الجنس، الذين قُتلوا في وحشية في العراق منذ الاجتياح، ٤٥٥ - ففي شباط/فبراير وآذار/مارس ٢٠٠٩ وحدهما عُثر على ٢٥ جثة في مدينة الصدر. وبحسب الناشط في مجال حقوق الإنسان في العراق محمد يينا، استنبطت الميليشيات المناهضة لمثليي الجنس، عام ٢٠٠٩، طريقة جديدة للقتل. وتقضي التقنية

> بإيلاج لاصق قوي في شرج [الضحية] وإحكام سدّه كليًّا. ويُعرف اللاصق باسم الصمغ الأميري؛ وهو غراء إيراني يلصق الجلد بعضه ببعض بطريقة لا يمكن معها إزالته إلا بجراحة. وبعد لصق شرج الضحية تُسقى شرابًا يتضمن مسهّلًا للأمعاء. وبما أن لا مخرج لهذا الإسهال، فقد يفضي إلى الموت. وقد تم تناقل حوادث كهذه في أفلام قصيرة على الهواتف النقالة في بغداد.

يواصل علي حلّي دعم المنازل الآمنة في العراق، ولكن يوجد شحّ في المال. وحث جماعة «سحاقيات، لوطيون، مزدوجو الجنس، ومخنثون» العالمية على «أن تهب في هذه الظروف القاسية لدعم حقوق المثليين العراقيين ومساندة ضحايا التطهير الجنسي في العراق»[٢].

---

(١) Two Members of US Congress Protest Persecution of Gay Iraqis," UKGayNews, June 14, 2007" <http://tinyurl.com/2wh3ee>; Peter Tatchell, "Sexual cleansing in Iraq," Iraqi LGBT, September 25, 2008 <http://tinyurl.com/q7kyqx>.

(٢) James Sanders, "Iraqi Man Faces Deportation Death," PinkPaper, February 4, 2009 <http://tinyurl.com/q62mae>; Timothy Williams and Tareq Maher, "Iraq's Newly Open Gays Face Scorn and Murder," New York Times, April 7, 2009 <http://tinyurl.com/r646v6>; Mohammad quoted in Katherine Ganly, "Iraq: Organised 'crackdown' on homosexuals," Global Voices, May 10, 2009 <http://tinyurl.com/pl2j9k>; Hili quoted in Doug Ireland, "New Iraqi Gay Slays Bared," Gay City News, July 19, 2007 <http://tinyurl.com/yvakm6>.

نهاية الإيمان

الأصولية المتفلتة نفسها التي أذت في شكل مريع جدًّا النساء ومثليي الجنس، نهشت أيضًا حياة الأقليات الدينية في العراق. ففي عهد صدام تمت السيطرة بالقوة على الطائفية الدينية وما يمكن أن ينتج عنها من عنف. ولكن، وبعد صدام، أُعلنت الحرب المفتوحة على الأديان التي يعدها الإسلام كافرة.

إستُهدف مسيحيو العراق بمختلف طوائفهم. ففي الأول من آب/أغسطس ٢٠٠٤، على سبيل المثال، فُجرت أربع كنائس في بغداد وواحدة في الموصل. وقُتل ما لا يقل عن ١١ شخصًا في الهجمات التي شُنَّت يوم الأحد، وجرح كثيرون آخرون. وبعد يوم على التفجير أعلنت مجموعة تطلق على نفسها اسم «لجنة التخطيط والمتابعة في العراق» مسؤوليتها من موقعها على الإنترنت. وأنذرت «جماعة الصليب» بأن:

> ثوبوا إلى رشدكم وتيقنوا من أن جند الله مستعدون لكم. أردتم حملة صليبية وهاكم النتائج. ألله اكبر والعزة لله ولرسوله. وقد أعذر من أنذر[1].

هرب، منذ العام ٢٠٠٣، ما يصل إلى ٥٠ في المئة من مسيحيي العراق البالغ عددهم ١/٥ مليون. وقد استهدف المدنيون ورجال الدين على السواء. وقُطع رأس الكاهن السرياني الأرثوذكسي بولس اسكندر في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦، فيما اختطف الأسقف جورج ياسيليو من الموصل في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥ ثم أُطلق. كذلك اختطف الأسقف الكلداني الكاثوليكي باولوس فرج رحّو في ٢٩ شباط/فبراير في الموصل - حيث تعيش أكبر مجموعات الكلدان المسيحيين وأقدمها. أُخذ رحّو من سيارته بعدما ترأس مراسم درب الصليب شرق المدينة. ويُعتقد أن النار أطلقت على ساق الأسقف في خلال الحصار، فيما قتل اثنان من حراسه وسائقه. وما إن تم الامساك به حتى طالب خاطفوه بفدية بقيمة ثلاثة ملايين دولار وبتحوّل

(١) Preti Taneja, "Assimilation, Exodus, Eradication: Iraq's Minority Communities Since 2003," Minority Rights Group International, 2007, p. 9 <http://tinyurl.com/r2w8ml>.

مسيحيي الموصل إلى الإسلام، أو بمغادرة منازلهم أو بدفع الجزية، وهي الضريبة على غير المسلمين. وتمكن رحّو وهو في صندوق سيارة الخاطفين من استخدام هاتفه المحمول للاتصال بمسؤولي الكنيسة وإبلاغهم بعدم دفع أي فدية. وقال مسؤول في الكنيسة للنيويورك تايمز: «اعتَقَدَ أن هذا المال لن يُستخدم للأعمال الصالحة بل سيُستخدم للقتل وللمزيد من أفعال الشر». وبعد ما يقارب الأسابيع الأربعة من الأسر اتصل الخاطفون بالمسؤولين ليطلعوهم على مكان الجثة. وقال رحّو في مقابلة صحافية أجريت معه قبل ثلاثة أشهر على موته: «نحن، مسيحيي بلاد ما بين النهرين، تعوّدنا على اضطهادات وضغوط ممن في أيديهم السلطة. فبعد قسطنطين لم يتوقف الاضطهاد إلا لمسيحي الغرب فيما استمرت التهديدات للشرق. ونحن، إلى اليوم حتى، نستمر في كوننا كنيسة الشهداء». ولم يبق في العراق اليوم سوى أقل من ٥٠٠ ألف من أتباع الطائفة الكلدانية – التي لا تزال الطائفة المسيحية الأكبر في العراق[1].

استبيحت كذلك الأقليات الدينية العراقية الأخرى. وعلى ما نوقش في مقدمة هذا الكتاب، استُهدف المندائيون – أتباع أقدم ديانة غنوصية (معرفية) متبقية حتى اليوم – بصفة كونهم من «الكفار». ويفتقر المندائيون إلى دعم شبكات واسعة خارج العراق بعكس المسيحيين الذي لهم ارتباطات قوية بكنائس أخرى ومؤسسات خيرية في مختلف أنحاء العالم. وينتشر المندائيون في شكل غير كثيف في أنحاء مختلفة من البلاد، وهم في غالبيتهم من الأثرياء ومن المتشددين في مسالمتهم. وتراجعت أعدادهم، لأنهم ضعفاء جدًّا، من نحو ٤٠ ألفًا عام ٢٠٠٣ إلى نحو خمسة آلاف اليوم. وقال كنزفرا ستّار، وهو أحد خمسة أساقفة مندائيين متبقين في العالم:

---

(١) Maria Mackay, "Iraq's Christian Population Halved Since 2003," Christian Today, August 8, 2006 <http://tinyurl.com/pnlt3b>; "Kidnappers of Mosul Bishop Raise the Ransom," AsiaNews, March 4, 2008 <http://tinyurl.com/oazvwt>; Erica Goode, "Kidnapped Iraqi Archbishop is Dead," New York Times, March 14, 2008 <http://tinyurl.com/p9kmco>; "Despite Being Left at the Mercy of Terrorists, Christians Continue to Hope, Says Bishop of Mosul," AsiaNews, November 26, 2007 <http://tinyurl.com/o485cr>.

«يعدُّوننا كفّارًا ويجوز بالتالي قتلنا». وتأمّل ستّار في شتاتهم العالمي المتفرّق، وأضاف: «ستتلاشى أقليتنا العرقية وديانتنا القديمة»[١].

وتعرّض اليزيديون – أتباع الديانة الموحّدة التي يُعتقد أنها متفرّعة من الزرادشتية – لضربة قوية أيضًا. وقال ميرزا دنايي المستشار اليزيدي لدى الحكومة العراقية: «أجد مستقبل العراق بائسًا، وسيصبح الأمر أكثر صعوبة بالنسبة إلى اليزيديين». فمنذ العام ٢٠٠٣ – عندما أعلن الإسلاميون أن يزيديي العراق الخمسمئة ألف جميعهم «أنجاس» – واليزيديون يعانون المستوى نفسه من الخطف والإعدام اللذين تعرضت لهما أقليات العراق الدينية الأخرى، إذا لم يكن أسوأ. ففي ١٤ آب/أغسطس ٢٠٠٧، حوالى الثامنة مساء، وقعت أربع هجمات انتحارية متزامنة في مدينتي القحطانية والجزيرة اليزيديتين القريبتين من الموصل. قُتل ما لا يقل عن ٥٠٠ شخص وجرح ١٥٠٠ – وهذه أكثر الهجمات الانتحارية العراقية خلَّفت قتلى في الحرب. سُويت، في بساطة، مساحات واسعة من المدينتين بالأرض – هدمت السيارات الثلاث وصهريج البنزين التي استخدمت في الهجوم عددًا لا يحصى من مباني الأجر والطين فاحتجز الآلاف من الضحايا تحت الركام. وقال وحيد موندو حامو، العضو في حركة الإصلاح والتقدّم اليزيدية في شباط/ فبراير ٢٠٠٩: «منذ وقت طويل جدًّا واليزيديون عرضة للجور. وستشاهدون المزيد والمزيد من ذلك»[٢].

---

(١) ستّار كما تم الاستشهاد به في Angus Crawford, "Iraq's Mandaeans 'Face Extinction,'" BBC, March 4, 2007 <http://tinyurl.com/32eqvs>.

(٢) دنايي كما استشهد به في Justin Huggler, "Hell's Angels," Independent, November 29, 2003, cited in Taneja, "Assimilation, Exodus, Eradication: Iraq's Minority Communities Since 2003," p. 13; Damien Cave and James Glanz, "Toll in Iraq Bombing is Raised to More Than 500," New York Times, August 22, 2007 <http://tinyurl.com/prv7yl>; حامو كما تم الاستشهاد به في Stephen Farrell and Alissa J. Rubin, "Under Tight Security, Iraqis Vote on Almost Violence-Free Election Day," New York Times, February 1, 2009 <http://tinyurl.com/oznvhv>.

دُفع بهم

وعلى غرار الأقليات الدينية، عانت الأقليات الإثنية في العراق كثيرًا. والشبك، المتميزون ثقافيًا عن الأكراد والعرب، هم في غالبيتهم من الشيعة وموجودون في الغالب في الموصل في سهول نينوى ما بين نهري دجلة والخزير. ويُذكر أنهم يتعرضون تكرارًا للمضايقة من الأكراد الذين يسعون إلى السيطرة على مناطقهم. وبحسب الدكتور حنين القدّو، الأمين العام لتجمع الشبك الديمقراطي،

> نشعر كشبك أننا غرباء في بلدنا. ينظر إلينا الناس كأننا لا نستحق الحياة. ويتعرض الشبك للقتل على أساس يومي... ولا يغطي الإعلام القبور والانتهاكات الكبرى في هذه المنطقة[1].

شهد العراقيون ـ الفلسطينيون أيضًا قمعًا قاسيًا، وهم في معظمهم من السنة ويعيشون، منذ العام ١٩٤٨، في شكل رئيس في بغداد والموصل والبصرة. وبات الفلسطينيون الـ١٥ ألفًا، الذين تلقوا في ما مضى معاملة خاصة من صدام حسين – أي توفير المنازل المدعومة لاستجلاب المشاعر العربية في العالم الإسلامي ـ يعانون الآن الهجمات الانتقامية القاسية. وعلى ما روته أم محمد، وكانت يومذاك في السادسة والخمسين، لشبكة المعلومات الإقليمية المتكاملة:

> [المليشيويون] متوحشون، قتلوا اثنين من أبنائي أمام منزلي وصاحوا لاحقًا بأننا نحن الفلسطينيين خنازير [لأننا] نعتمد على ما يمكن الناس أن يعطونا إياه. هذا ليس إنسانيًا؛ كانا الأمر الوحيد الجيّد الذي امتلكته في حياتي وها قد رحلا الآن تاركين وراءهما أولادهما السبعة لتهتم بهم أرملتاهما العاطلتان من العمل. شاهدت رأس ابني والرصاص يمزّقه ولم يمكنني أن أرى في أعين هؤلاء الجبناء سوى السعادة والإثارة لقيامهم بذلك. يجب إحلال العدالة ويجب أن نحصل على الحماية. فنحن بشر،

(١) القدّو كما تم الاستشهاد به في Taneja, "Assimilation, Exodus, Eradication: Iraq's Minority Communities Since 2003," p. 19.

ولكل إنسان الحق في الحياة. أُخطرنا بوجوب مغادرة منزلنا في غضون أسبوع لكنني أعتقد أن هذه ستكون آخر أيام حياتي لأنني لن أغادر هذا المنزل إلا في نعش[١].

قُتل مئات الفلسطينيين بعدما استهدفتهم في الغالب مجموعات الميليشيات الشيعية. وبحسب منظمة العفو الدولية:

اختطفتْ معظمَهم مجموعاتٌ مسلحة وعُثر على جثثهم بعد ذلك بأيام في المشارح، أو مرمية في الشارع، وقد تعرّضت في الغالب للتشويه وهي تحمل الآثار الواضحة للتعذيب. هرب الكثيرون من الفلسطينيين من منازلهم، في الغالب في بغداد، بعد تلقيهم تهديدات مكتوبة تنذرهم بمغادرة البلاد أو مواجهة الموت. يختبئ بعضهم في داخل العراق؛ وانقطعت السبل بآخرين في مخيمات مُرتجلة على مقربة من الحدود العراقية/السورية من دون أن يلوح في الأفق حل لبلواهم... ووُجدت في مناسبات عدة مناشير في الأحياء الفلسطينية تهدد بقتل العائلات الفلسطينية إذا لم تغادر العراق في غضون عشرة أيام. وتتهم هذه المناشير الفلسطينيين بأنهم «خونة»، «صدّاميون»، «بعثيون»، وبأنهم يساندون المتمردين السنة أو «الوهابيين»[٢].

يعاني نحو ٢٥٠٠ لاجئ فلسطيني الظروف المروعة في ثلاثة مخيمات عند طرف الحدود السورية ـ العراقية. ففي مخيم التنف – الموجود في «الأرض الحرام» بين النقطتين العراقية والسورية للتدقيق في الجوازات – يعيش نحو ٨٣٠ فلسطينيًّا في مآوٍ خطرة موقتة محشورة بين الطريق العامة وجدار من الطوب. ترتفع الحرارة في المخيم المغبّر صيفًا إلى خمسين درجة مئوية، وفي الشتاء تغمر الأمطار

(١) IRAQ: Hear Our Voices – 'From this house I will leave just in a coffin,'" IRIN, October 25, 2006" <http://tinyurl.com/oo6gbv>.

(٢) Iraq: Human Rights Abuses Against Palestinian Refugees," Amnesty International, October 2007" <http://tinyurl.com/yvgvyb>.

الجليدية خيام المقيمين. وتضايق الجرذان والأفاعي الفلسطينيين على مدار السنة، وقد قتلت الشاحنات المسرعة على الطريق العريضة المحاذية للمخيم ولدين. وفي مخيمي الحل والوليد المجاروين، يعاني آلاف آخرون الحرمان المشابه. ويعيش الفلسطينيون، وقد دُفع بهم إلى حدود العراق فيما هم يُستهدفون في داخله، حياة غير مستقرة في العراق الجديد. وقالت سلوى، وهي أم لثلاثة أولاد عالقة في التنف: «نحن [الفلسطينيين] مرفوضون أينما ذهبنا. لا يُدرك الناس أننا مثقفون وأننا سنلائم أي مكان إذا توافرت لنا الفرصة». وأضاف جمال، ابن الثالثة والخمسين: «لا يهمني أين. جل ما أريده هو أن أحيا بقية أيامي في سلام»[1].

النهب يحرّر

وسط معاناة التشريد في داخل العراق وعلى طول حدوده، توجد رواية أعمق للأذى. وأدى العنف إلى تدمير مستقبل الكثيرين من العراقيين، لكنه طاول أيضًا ماضيهم. فتدمير المُلكية العراقية الثقافية، أي المتاحف والمواقع الأثرية والمكتبات القديمة، يبقى واحدة من أكثر المآسي الخفية لاجتياح العام ٢٠٠٣. وعلى رغم المناشدات التي أطلقها الخبراء قبل الحرب للحفاظ على المواقع الثقافية، تركها الجنود الأميركيون من دون حراسة في أيام الفوضى التي أعقبت سقوط صدام. ولا تزال أكثر من تسعة آلاف قطعة من مجموعة المتحف العراقي، التي لا تقدّر بثمن، مفقودة فيما تم التعدي على آلاف المواقع الأثرية الهشة، وأُحرقت أعداد لا تُحصى من المخطوطات التي تعود إلى آلاف السنين أو دُمّرت. فهذه البلاد التي تُعد «مهد الحضارة»، والتي سبق أن تأذت بالفعل، تعرّضت لمزيد من التشويه من جراء خسارة هذه القطع الأثرية التي لا تُقدّر بثمن. أما الذي كان يمكن هذه الكنوز الثقافية أن

(١) UNHCR Syria Update," UNHCR-Syria, February 2009, pp. 9–10; Selwa and Jamal quoted" in "IRAQ-SYRIA: Slow resettlement for Palestinian-Iraqi refugees," IRIN, January 18, 2009 <http://tinyurl.com/r33r4g>.

تعلّمه للعراقيين – إلى جانب بقية الجنس البشري – عن أصولنا المشتركة فسيبقى سرًّا مُدمّرا.

ولعل عبارة «نهب» لا تكفي لوصف مستوى الدمار الذي أعقب مباشرة اجتياح العام ٢٠٠٣. فمع اندفاعة القوات الأميركية إلى شمال بغداد تُركت قلة من الجنود، أو لا جنود على الإطلاق، لحماية المدن «المُحرّرة» حديثًا. وحدث الأمر نفسه في بغداد، حيث تُركت قطاعات واسعة من دون حراسة. وسرعان ما عمت الفوضى في فراغ السلطة هذا. فعرّى الناهبون في المدن العراقية المباني الحكومية من كل أثاثها وسمكريتها وتجهيزاتها وكل الأدوات المعدنية التي يمكن تصليحها. وشرح جيف سبور، المتخصص في الشؤون الإسلامية والشرق الأوسط في مكتبة الفنون الجميلة في جامعة هارفرد، مرحلة ما قبل الاجتياح:

> حدّد شخص واحد في السلطة مفاهيم المصلحة العامة، وقد أدى صدّام حسين هذا الدور على مدى خمسة وعشرين عامًا. وبالتالي، وحدهم الذين يحصلون على المكافآت المباشرة من النظام، وفي أقصى فساده في الغالب، انخرطوا فيه، في قوة، في سبيل الكسب المادي مجرّدين من أي أخلاق...
>
> فما الذي يحدث عندما يُطاح مثل هذا النظام؟ الفوضى التامة. من المؤكد أن معظم السكان، الذين رُوّضوا طويلًا على طأطأة رؤوسهم، سيَخنعون. وسيرغب الكثيرون، ممن بقيت أخلاقهم الشخصية سليمة، في النظام أو سينشدونه. لكن فرصة استغلال الفراغ في السلطة توافرت للشبان والمتهورين، أو لمن عانوا الحرمان الشديد بسبب نظام العقوبات الذي خضع له العراق منذ حرب الخليج، أو لمن هم أعضاء في العصابات الإجرامية، وقد استفادوا منها.

ورأى بول هيوز المدير السابق لمكتب السياسة الاستراتيجية في السلطة الائتلافية الموقتة أن «حجم النهب يتحدّى المفاهيم الغربية». وقال إن معظم الأبنية عُرّي إلى

الباطون المجرّد. «أزيل كل شيء. الخشب على الجدران، مواد تركيبة الجدران، كل ذلك أزيل. راح السجاد، وكل شيء. هذا هو المدى الذي بلغه النهب هناك»[1].

ولم تُوفّر القطع الأثرية الثقافية التي لا تُقدّر بثمن. ويحمّل اتفاق حماية الممتلكات الثقافية الدول الأطراف مسؤولية «تحريم أي سرقة أو نهب أو تبديد للممتلكات الثقافية ووقايتها من هذه الأعمال ووقفها عند اللزوم أيًّا تكن أساليبها، وبالمثل تحريم أي عمل تخريبي موجه ضد هذه الممتلكات». ويحدد الاتفاق – الذي سُنّ عقب الحرب العالمية الثانية – «الممتلكات الثقافية» بأنها:

> الممتلكات المنقولة أو الثابتة ذات الأهمية الكبرى لتراث الشعوب الثقافي كالمباني المعمارية أو الفنية منها أو التاريخية، الديني منها أو الدنيوي، والأماكن الأثرية، ومجموعات المباني التي تكتسب بتجمعها قيمة تاريخية أو فنية، والتحف الفنية والمخطوطات والكتب والأشياء الأخرى ذات القيمة الفنية التاريخية والأثرية، وكذلك المجموعات العلمية ومجموعات الكتب المهمة و المحفوظات ومنسوخات الممتلكات السابق ذكرها[2].

وليست الولايات المتحدة وبريطانيا دولتين منتسبتين إلى الاتفاق، لكن العراق طرف فيه مما يضمن بأن يغطي أي نزاع ينشب على أراضيه. وقد استشهدت منظمتان غير حكوميتين بارزتين بالاتفاق خلال التمهيد لاجتياح العام ٢٠٠٣. ففي ٢٣ شباط/ فبراير ٢٠٠٣ حذّر المجلس العالمي للمتاحف، وأعاد التحذير في ١٤ نيسان/أبريل، من أنه «سيحمّل ما يُسمى بالشركاء في الائتلاف مسؤولية النهب أو أي ضرر يلحق بالممتلكات الثقافية في العراق... من المحتّم على جميع الأطراف في العراق أن

(١) Jeff Spurr, "Iraqi Libraries and Archives in Peril: Survival in a Time of Invasion, Chaos, and Civil Conflict; Invasion, Dereliction, and Looting," IraqCrisis/Middle East Librarians Association <http://tinyurl.com/q8ydn9>; Hughes quoted in Charles H. Ferguson, No End in Sight: Iraq's Descent into Chaos, Public Affairs: New York, 2008, p. 109.

(٢) اتفاق لاهاي الدولي لحماية الممتلكات الثقافية في حال نزاعٍ مسلحٍ ما، أحكام تنفيذ الاتفاق الموضوع في 1954. <http://tinyurl.com/y4565v>.

يعوا مسؤولياتهم حيال الممتلكات الثقافية». وأثنت اللجنة الدولية للدرع الأزرق في ٧ آذار/مارس على هذه المبادرة. وشددت المنظمة على أن «الوصول إلى الإرث الثقافي الأصلي حق أساس من حقوق الإنسان». ونظرًا إلى «الاعتراف العام بأن العراق غني خصوصًا بالإرث الثقافي... فإن خسارة أجزاء من هذا الإرث ستشكّل بالتأكيد خسارة لجميع شعوب الأرض»(١). وناشدت المجموعتان الولايات المتحدة وضع خطط لحماية الممتلكات الثقافية في العراق وتوفير تخطيط طارئ تحسّبًا لانحراف الأمور عن مسارها. ولاقت هذه الدعوات آذانًا صمّاء.

تردد الناهبون في البداية في بغداد، لكنهم تجرّأوا لمّا أدركوا أن القوات الأميركية لن توقفهم. واعترف ريتشارد إرميتاج، نائب وزير الخارجية يومذاك، بأن عمليات النهب انتشرت بسبب «عدم وجود قوات كافية على الأرض لتقوم بعمل حيالها». لم تعط القوات المتمركزة على مقربة من المواقع المنهوبة أي أمر بالتدخل مع اللصوص. وقال سيث مولتون، وهو ضابط في المارينز خدم في العراق من آذار/ مارس إلى أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣: «لم يُطلب قط وقف عمليات النهب حتى عندما حدثت أمامنا مباشرة»:

> نحن مفرزة من المارينز. أعني أننا كان في إمكاننا... بالتأكيد وقف النهب... لو اننا كلّفنا تلك المهمة. ولكنّا قطعًا سيطرنا على الوضع... [لكن] لم نُكلّف قط مهمة منع ذلك... كانت لدينا مهمات أخرى(٢).

لماذا لم تعط الأوامر للجنود – ولو كان انتشارهم قليلًا على الأرض – بحماية المواقع العراقية؟ سمح البنتاغون بعمليات النهب، بحسب المراسل الخارجي للوول ستريت جورنال ياروسلاف تروفيموف، في محاولة منحرفة لتقويض بقايا النظام البعثي ولخفض موقت في ظروف المعيشة في العراق من أجل غرس «تقدير»

(١) Spurr, "Iraqi Libraries and Archives in Peril"; Jorgen Wadum, "ICOM-CC Appalled by Looting in Iraq," April 14, 2003 <http://tinyurl.com/yd8pgf4>.

(٢) Spurr, "Iraqi Libraries and Archives in Peril"; Armitage and Moulton quoted in Ferguson, No End in Sight, pp. 128, 114–5.

أفضل عندما تمارس القوات الأميركية السيطرة في وقت لاحق. وعلى ما يستذكره تروفيموف:

> أبلغني الكثيرون من القادة العسكريين حينذاك أن النهب أمر جيد. النهب يحرّر؛ النهب يقوض النظام القديم. وأيضًا، رأى بعض القادة في النهب... ضرورة فإذا لم يحدث بعض النهب قبل وصول قوة الاحتلال فلن يقدّر أحد قيام هذه القوة بفرض الأمن والنظام و... تطويع البلاد. ولكن من سوء الحظ أن الجزء الثاني لم يحدث قط في العراق.

ولتصريحات رامسفلد الوقحة في شأن عمليات السلب مغزاها إذا تم النظر إليها من خلال ما كشفه تروفيموف. هتف رامسفلد أنها «أمور تحدث!» عندما بُثَّت للمرة الأولى أفلام عن عمليات النهب. وأضاف أن «الحرية مشوشة، وللشعوب الحرة الحرّية في القيام بالأخطاء وارتكاب الجرائم والإتيان بأمور سيئة. وهم أيضًا أحرار في عيش حياتهم والقيام بأمور رائعة، وهو ما سيحدث هنا»[1].

وسواء نتج الأمر عن عدم كفاية جرمية أو شكّل جزءًا من خطة شريرة للائتلاف لتدمير العراق لمزيد من تسهيل إعادة تكوين الدولة بشروط الولايات المتحدة، فإن نتائج عمليات النهب لا تتغيّر. فبحلول منتصف نيسان/أبريل ٢٠٠٣، أفرغت مستودعات الذخيرة التابعة للجيش العراقي وكل وزارات الحكومة العراقية في بغداد، ما عدا وزارتي النفط والداخلية اللتين تولت الولايات المتحدة حراستهما. وتم كذلك تخريب الكنوز الثقافية: سُلبت عشرات المكتبات في مختلف أنحاء البلاد، ونُهبت آلاف المواقع الأثرية، وسرقت مجموعات من المتحف العراقي أو دُمرت.

---

(١) تروفيموف كما تم الاستشهاد به في Ferguson, No End in Sight, p. 110; Donald Rumsfeld and General Richard Myers (press briefing), Department of Defense, April 11, 2003 <http://tinyurl.com/qj856g>.

السنة الصفر

كانت أول مكتبة عُرفت في العالم – نقب عنها علماء الآثار البريطانيون عام ١٩٢٧ – موجودة في الموصل. تعود المكتبة إلى القرن السابع قبل المسيح واحتوت عند اكتشافها، بين كنوز أخرى، أقدم نسخة معروفة من ملحمة غلغامش. وكانت عاصمة العراق بغداد مركز العصر الفكري الذهبي خلال الخلافة العباسية (٧٥٠-١٢٥٨). وبحسب ر. هـ. لوسين:

> ثبّت إنشاء بيت الحكمة عام ٨٣٢ العاصمة الجديدة كمركز لا منافس له للمعرفة والتبادل الفكري. وأدى تراث البحث هناك إلى إحراز تقدم في مجالات علوم الفلك والبصريات والفيزياء والرياضيات. وعمل الخوارزمي، أبو الجبر، وسط مخطوطاتها. وهناك تُرجم الكثير من النصوص الإغريقية واللاتينية التي نوافق على أنها أساس المنحى الفكري الغربي، وفُهرس وحُفظ. وهي ستشق طريقها من بغداد إلى أوروبا القرون الوسطى وتسهم في انتشال تلك القارة من جهل ما بعد الحقبة الرومانية[١].

استهدف المغول، عندما نهبوا بغداد، بيت الحكمة من بين مراكز أخرى للمعرفة. ويفيد قول مأثور يتردد كثيرًا أن مياه نهر دجلة أصبحت سوداء من لون حبر الكتب، فيما اصطبغت شوارع بغداد باللون الأحمر من دماء سكانها. ولم ترجع بغداد كلّيًا قاعدة للعلم إلا في العهد العثماني. وعلى رغم أن صدّام حسين خفض من تمويل الكثير من المكتبات العراقية وسيّسها – حرصًا منه على تشذيب الكتب الماركسية والكردية والشيعية من الكثير من المجموعات – فإن المحفوظات التاريخية الكبرى لم تُمس ووضعت تحت حراسة جيدة. غير أن الناهبين اجتاحوا مكتبات البلاد وسط

(١) R. H. Lossin, "Iraq's Ruined Library Soldiers On," Nation, April 9, 2008 <http://tinyurl.com/oeo6hr>.

الفوضى التي أعقبت الغزو. وقد ضمّت مكتبة الأوقاف المركزية التي أنشئت عام ١٩٢٠، ٤٥ ألف كتاب نادر وما يزيد على ستة آلاف وثيقة عثمانية.

عندما أضرم المجرمون النار عمدًا في المبنى في ١٣ أو ١٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٣، تمكن الموظفون المسعورون من إنقاذ ٥٢٥٠ قطعة بما في ذلك مجموعات من نسخ القرآن. وتعرّض كل شيء آخر للدمار. أضف إلى ذلك أن كل الكتب والمخطوطات التابعة لمكتبة كلية الفنون في جامعة بغداد الـ١٧٥ ألفًا دمرتها النيران، وتحوّلت مكتبة جامعة البصرة بكاملها رمادًا، وفقدت المكتبة المركزية العامة في البصرة مئة في المئة من مجموعتها. وبحسب فرناندو بايز، مدير المكتبة الوطنية في فنزويلا ومؤلف كتاب «التاريخ العالمي لتدمير الكتب»، فإن ما يصل إلى مليون كتاب وعشرة ملايين وثيقة فريدة من نوعها دُمّرت أو فقدت أو سرقت عام ٢٠٠٣ في مختلف أنحاء العراق[١].

يعطي نهب دار الكتب والوثائق العراقية مثالًا حيًّا على الإهمال الجرمي للإئتلاف والتعقيدات الشاقة لإعادة إعمار العراق. وقد احتفظت دار الكتب، قبل الحرب، بأفضل مجموعات الكتب والوثائق التاريخية في الشرق الأوسط. وتركت قوات الائتلاف أبوابها غير محروسة في نيسان/أبريل ٢٠٠٣ على رغم أهميتها – فتُركت مجموعتها المؤلفة من أكثر من ١٢ مليون قطعة فريدة من نوعها لنزوات السارقين المحترفين والرعاع. وقضى الهجوم على دار الكتب والوثائق على ٢٥ في المئة من مجموعة الكتب وعلى نحو ٦٠ في المئة من الوثائق العثمانية والملكية الهاشمية، وعلى كل السجلات البعثية تقريبًا. أضف إلى ذلك أن مئات المخطوطات الإسلامية والنصوص، بما فيها نص للفيلسوف الإسلامي ابن سينا يعود إلى القرن السادس عشر، سُرقت أو دُمّرت. وقال المدير العام لدار الكتب الدكتور سعد إسكندر: «يمكن

(١) Sandy English, "Iraq's Libraries: What Recovery from 'A National Disaster Beyond Imagination?'" World Socialist Web Site, September 17, 2005 <http://tinyurl.com/9zlmg>; Baez quoted in Humberto Marquez, "Iraq Invasion the 'Biggest Cultural Disaster Since 1258,'" Antiwar.com, February 16, 2005 <http://tinyurl.com/plmmmx>.

اختصار الأمر بكلمة واحدة على أنه يشكّل كارثة وطنية على نطاق واسع. ولا يمكن تعويض هذه الخسائر التي شكّلت ذاكرة العراق الحديث التاريخية»[١].

بدأت عمليات النهب في العاشر من نيسان/أبريل بعدما أسقطت القوات الأميركية تمثالًا لصدام حسين أمام المبنى الرئيس لدار الكتب والوثائق، ثم انسحبت وحسب. ويروي اسكندر أن «ألسنة النيران التهمت بعد دقائق من ذلك أجزاء عدة من مبنى الدار. وشرع بعض الناس في نهب التجهيزات وكل ما هو ذو قيمة. وتكرر السيناريو نفسهه بعد ذلك بيومين»[٢]. تميّزت الموجة الأولى من النهب بالدقة، ومن المرجح أنها تمت بقيادة من موظفي الدار– استهدفت وثائق حساسة توجز العلاقات الخارجية العراقية في ظل صدام ونسخًا طبق الأصل لآلاف المحاكم العسكرية البعثية. وكانت الموجة الثانية من النهب أكثر عشوائية. وشهد مراسل الإندبندنت روبرت فيسك على الموجة الثانية. وكتب: «شاهدت اللصوص. وشتمني أحدهم عندما حاولت استعادة كتاب عن الشريعة الإسلامية من ولد لا يتجاوز العاشرة من العمر». وتابع:

ولم يفعل الأميركيون شيئًا. وقد رُمي في كل أنحاء الفناء القذر بمكاتيب التوصية لمحاكم الجزيرة العربية، وطلبات الذخيرة للجنود، وتقارير عن سرقات الجمال والهجمات على الحجاج، وذلك كلّه بخط اليد العربي الدقيق. كنت أحمل بيدي آخر بقايا تاريخ العراق المكتوب. أما بالنسبة إلى العراق فإنها السنة الصفر... إذ يتم محو الهوية الثقافية للعراق[٣].

ناشد فيسك في شكل محموم القوات الأميركية القريبة التدخل لكنه قوبل بلا مبالاة. وبحسب فيسك:

---

(١) Saad Eskander, "The Tale of Iraq's 'Cemetery of Books'" (transcript), Keynote speech at the 2004 Internet Librarian International conference, London, 10–12 October 2004 <http://tinyurl.com/r8vm5j>.

(٢) المصدر السابق.

(٣) in Final Chapter of Robert Fisk, "Library Books, Letters and Priceless Documents are Set Ablaze the Sacking of Baghdad," Independent, April 15, 2003 <http://tinyurl.com/3bmej>.

صاح ضابط لزميل له أن «هذا الشخص يقول إن دارًا للكتب تحترق». أعطيتُه الموقع على الخارطة والاسم الدقيق بالعربية والإنكليزية. قلت إن في الامكان مشاهدة الدخان من بعد ثلاثة أميال وإن الأمر لا يستغرق أكثر من خمس دقائق للوصول إلى هناك بالسيارة. مرَّت نصف ساعة ولم يظهر أي أميركي على الساحة وأخذت ألسنة النار تنطلق مسافة ٢٠٠ قدم في الجو[1].

تولّى الدكتور إسكندر، وهو من الإثنية الكردية ومولود في بغداد، المهمة الشاقة الآيلة إلى إعادة بناء دار الكتب والوثائق. وتحدث اسكندر، في خطاب ألقاه عام ٢٠٠٤ في المؤتمر العالمي لأمناء المكاتب عن التحدي الذي واجهه عندما عيّن أولًا مديرًا عامًّا لدى عودته إلى العراق من المملكة المتحدة التي عاش فيها مذ أصبح عمره ٢٨ عامًا. وبحسب اسكندر:

> كانت تلك المؤسسة الثقافية الأكثر تضررًا في البلاد. المبنى في حال خراب؛ لا مال أو ماء أو كهرباء، ولا أوراق أو أقلام أو أثاث (في ما عدا ٥٠ كرسيًّا بلاستيكيًّا). معنويات الموظفين هابطة جدًّا. وكانت ثلاثة أقسام من أصل ١٨... تعمل بنصف طاقتها. لازمت غالبية الموظفين المنزل. وحدها حفنة من أمناء المكتبة حاولت القيام بشيء ما. فلجنة الخبراء التي أنشأتها السلطة الموقتة للاحتلال كانت كناية عن طاحونة كلام وفشلت في الحصول على ثقة فريق دار الكتب واحترامه... عملنا في ظروف غير صحية وقاسية ومن دون أي دعم خارجي. فالسخام والغبار غطّيا المكان؛ وقد اشتممناهما وتذوّقناهما. وباتا في نَفَسنا وأعيننا وطعامنا ومائنا؛ وعلى الجدران والسقف[2].

قضى هدف إسكندر الأول، كمدير عام، بإعادة افتتاح قاعة المطالعة الرئيسة. طالب سلطة الاحتلال الموقتة بملايين الدولارات من صناديق إعادة الاعمار، لكن

(١) المصدر السابق.

(٢) Eskander, “The Tale of Iraq’s ‘Cemetery of Books’” (transcript)

دار الكتب لم تحصل إلا على ٧٠ ألف دولار. واستذكر أن «الموازنة الصغيرة توجب عليها أن تغطي كل شيء بما في ذلك شراء الأثاث والتجهيزات والورق والأقلام؛ ودفع فواتير الماء والكهرباء؛ وتوظيف العمال وأمناء المكتبة الجدد». وأضاف:

> كانت آلاف الكتب وبطاقات التسجيل إما محروقة وإما مبعثرة على الأرض. لم نمتلك أي تجهيزات. أمكننا شراء خمسة حواسيب وطابعتين فقط. لم نمتلك أي معدات تبريد أو تهوئة، والطقس بارد جدًّا شتاء وحار جدًّا في الربيع والصيف. ويمكن الحرارة أن تصل إلى ٦٠ درجة صيفًا وإلى ما تحت الصفر شتاء. امتلكنا وحسب آلة ناسخة قديمة واحدة. ولم يكن لنا وصول إلى الهاتف أو الفاكس أو الإنترنت. كنّا عمليًّا مقطوعين عن باقي العالم(١).

استخدم اسكندر الأموال القليلة التي أعطيت له – أُلحقت بتبرعات من وراء البحار من مكتبات متعاطفة ومنظمات غير حكومية مساندة – فشرع، في بطء، في توظيف فريق جديد، ونظّف مبنى الدار وحصل على كتب جديدة وحافظ على الأغراض المتضررة، وأجرى جردة بما فُقد وبحث عمّا توجد حاجة إليه. واضطر اسكندر وفريقه، إضافة إلى التحديات في قلب دار الكتب، إلى مواجهة الفوضى التي تجتاح بغداد. وعلى ما استذكره إسكندر عام ٢٠٠٤:

> وفي خارج المبنى شرعت قوى الظلمة والجهل، الإرهابيون المصابون بعمى القلب، في شن حملة من القتل العشوائي على الناس بغض النظر عن عرقهم ودينهم وسنهم وجنسهم. ولم يتمكن فريقي في مناسبات كثيرة من المجيء إلى العمل لانقطاع الطرق من جراء انفجار القنابل والقصف بالهاون والاغتيالات. أصبحت هذه المشاهد البشعة جزءًا من حياتنا اليومية. وتعرّض مبنانا للقصف في تموز/يوليو من هذه السنة... وقد طلبتُ من موظفيَّ، في مناسبات عدة، إخلاء المبنى. ولم أتمكن

(١) المصدر السابق.

في بعض الأحيان من ذلك بسبب تدهور الوضع الأمني. ومع هذا كنّا نعود في اليوم التالي إلى عملنا كالمعتاد. هذه طريقة حياتنا، وهذه هي الظروف التي نعمل في ظلّها كل يوم[١].

استضافت المكتبة البريطانية، بين تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦ وتموز/يوليو ٢٠٠٧، مدونة إلكترونية من وضع الدكتور إسكندر الذي كشف، يومًا بعد يوم، عن التحديات الرهيبة التي واجهها هو وفريقه. وروى في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦، في واحدة من أولى مدوناته، كيف أمضى وقته:

حاولت إسداء النصح إلى عدد من موظفيَّ بما يتوجب عليهم القيام به بعدما تلقوا تهديدات بالقتل. فقد تلقى السنة الذين يقيمون في أحياء ذات سيطرة شيعية إنذارًا بالتخلي عن منازلهم، وكذلك توجب على الشيعة المقيمين في الأحياء ذات السيطرة السنية مغادرة منازلهم. وقد قُتل إلى الآن اثنان من موظفيَّ، عمل الأول في قسم الكمبيوتر وكان الثاني حارسًا. كذلك قُتل ثلاثة من سائقينا الذين يعملون لدينا بالتعاقد، وجُرح ثلاثة آخرون[٢].

وأُعلم بعد ذلك بأسبوع أن علي صالح، الموظف الشاب المحبوب جدًّا، «قُتل على مرأى من شقيقته... كان ذلك يومًا حزينًا جدًّا. وفي ذلك اليوم بكى جميع مع عرفوا علي. وأصيبوا بالاكتئاب وبلغت معنوياتهم الحضيض»[٣].

وكتب إسكندر أوائل كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦ أن «القناصة يشكلون الآن همّنا الأول». فدار الكتب تقع على مقربة من أحياء خطيرة في بغداد – على بعد كيلومتر واحد من شارع حيفا الذي يعج بالقناصة ونصف كيلومتر من حي الفضل القاتل. ووجد موظفو اسكندر المسيحيون صعوبة خاصة في التنقل من العمل وإليه. وكتب اسكندر في أواخر كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦:

(١) المصدر السابق.

(٢) Saad Eskander, Saad Eskander's Iraq diary, November 13, 2006 <http://tinyurl.com/r3rwh6>.

(٣) المصدر نفسه، ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر 2006. <http://tinyurl.com/r3rwh6>

تضم مؤسستنا أربعة مسيحيين. الأوَّلان، «أ» و«ب»، يعملان في الأرشيف، والثالث، «ج»، في المكتبة، والرابعة، «د»، في مكتبي. أعطيتهم عطلة من خمسة أيام ليحتفلوا بعيد الميلاد، غير أن «د» لم تأخذ إلا يومًا واحدًا. واستمرّت في المجيء حتى عند إقفال الطرق الرئيسية. نصحت لها بأن تغطّي شعرها لدى مرورها بالمناطق الخطرة (أي تلك التي تسيطر عليها الميليشيات والعصابات المسلحة). وقالت إنها ارتدت الحجاب بعض الوقت لإخفاء هويتها (أي كونها مسيحية)[1].

وساءت الأحوال عام ٢٠٠٧ بالنسبة إلى اسكندر وفريقه. ولاحظ في ٨ كانون الثاني/يناير «السيناريو القديم السابق نفسه: انفجارات، قصف، وتبادل لإطلاق النار»، فيما شكّل الرابع من شباط/فبراير «يومًا سيئًا آخر» تميّز بالهجمات المجاورة[2]. وتلقى في وقت لاحق خبرًا عن فقدان اثنين من أمناء المكتبة: سني وشيعي كانا ينتقلان معًا. واستذكر:

كانت دار الكتب والمعارف في حال من الفوضى التامة. شرع بعض النساء العاملات في المكتبة في البكاء بصوت عال اعتقادًا منهن أن أميني المكتبة قُتلا. طلبتُ من فريقي العودة إلى عمله. بعد ذلك بثلاثين دقيقة، عاد أمين المكتبة السني المخطوف إلى مبنانا. تحلّق الموظفون حوله في سرعة فائقة؛ وأخذ بعضهم في تقبيله وآخرون في تهنئته على إطلاقه...

علمت بعد ذلك بساعة من مصادر عدة أن أمين المكتبة الثاني أُعدم وألقي بجثته في زاروب مهجور. اعتقدت أن الأخبار قد لا تكون صحيحة. إلا أنني تلقيت اتصالًا من مساعدي الذي أكد واقع أن أمين المكتبة أُعدم

(١) المصدر السابق. مفكرة الأسبوع من ١ إلى ١٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦. <http://tinyurl.com/p2p3xp>; المصدر السابق مفكرة الأسبوع من ٢٣ إلى ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦ <http://tinyurl.com/p2p3xp>.

(٢) المصدر السابق، مفكّرة الأسبوع من ٧ إلى ١٣ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧ <http://tinyurl.com/p95kto>; المصدر السابق، مفكّرة الأسبوع من ١ إلى ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٧ <http://tinyurl.com/r6zbb7>.

بعد مدّة وجيزة على خطفه. إتصل القتلة هاتفيًا بأهل الضحية وأبلغوهم، بكل دم بارد، أنهم قتلوا ابنهم وأن عليهم لمّ جثته.

وأضاف إسكندر: «توصّلت إلى إدراك أن الإنسان المثالي في بغداد اليوم هو الذي يستطيع الاقفال على كل أحاسيسه. فكون المرء كفيفًا وأصمًّ لم يعد لعنة بل نعمة مقنّعة»[١].

لم تُهيّئ هذه التحديات اسكندر لما حدث في ٥ آذار/مارس ٢٠٠٧ - «يوم اغتالت قوى الظلمة والحقد والتعصب، الكتب». كان صحافيان من الواشنطن بوست يجريان مقابلة معه في مكتبه عندما هزّ انفجار ضخم دار الكتب والوثائق، لقد دُمّر شارع المتنبي المجاور. إحتوى الشارع الصغير الذي يحمل اسم أشهر شعراء العراق على عشرات دور النشر وشركات الطباعة والمكتبات والمقاهي القديمة التي ترتادها الأنتليجنسيا العراقية الفقيرة. ويشتري البائعون هناك نحو ٩٥ في المئة من المنشورات الجديدة لدار الكتب والوثائق. وشهد اسكندر من نافذة مكتبه على آثار الانفجار. واستذكر:

> أخذت عشرات الآلاف من الأوراق تتطاير عاليًا في الجو كما لو ان السماء تمطر كتبًا ودموعًا ودمًا. كان مشهدًا غريبًا. أخذ بعض الورق في الاحتراق في الجو، وسقط الكثير من القصاصات المحترقة على مبنى دار الكتب والوثائق العراقية... وأمرت الحرّاس، بعد الانفجار مباشرة، بمنع أي من الموظفين من مغادرة المبنى لاحتمال حدوث تفجير ثان. وأخذنا، أنا وفريقي، في مراقبة حركة عدد من سيارات الاسعاف المدنية والعسكرية التي تنقل القتلى والجرحى. إنه مشهد يحبس الأنفاس[٢].

تدهورت صحة إسكندر وهو الذي واجه دمار شارع المتنبي والقنص المستمر والهجمات بالهواوين والصواريخ ومقتل الموظفين والنقص في التمويل من الحكومة

(١) المصدر السابق؛ مفكرة الأسبوع من ١ إلى ٤١ شباط/فبراير ٧٠٠٢.

(٢) المصدر السابق؛ الإثنين ٥ آذار/مارس ٢٠٠٧. <http://tinyurl.com/q9juq2>

العراقية المركزية وغياب الكهرباء والماء، وأصبحت مدوناته الإلكترونية أكثر قتامة وأشد تأمّلًا. وقد تم في الثالث من نيسان/أبريل ٢٠٠٧، على سبيل المثال، رمي جثة في حرم دار الكتب. وكتب إسكندر:

> الميت كان شخصًا ما؛ يمكنه أن يكون أخًا لأحد ما أو ابنًا أو أبًا أو زوجًا؛ كائن بشري من دون وجه أو اسم. من المحزن جدًّا أن يموت المرء غريبًا بالكامل في مدينتك وبين شعبك، أو أن يُعدَّ مجرّد رقم يضاف إلى من قد ماتوا. الموت بهذه الطريقة يحول الإنسان شيئًا[١].

أنهى اسكندر في ٣١ تموز/يوليو ٢٠٠٧ مدوّنته الإلكترونية. وجاء وحسب في آخر مدونة، وهي تحت عنوان «الملاحظة الأخيرة»:

> لن أكتب أي يوميات بعد الآن. والسبب الحقيقي هو أن كتابتها تشعرني بالذنب. شعرت منذ بعض الوقت في عمق أعماقي أنني استغل مآسي فريقي وتضحياته، وبخاصة من فقدوا حياتهم من بينه. اكتشفت أنني بكتابتي اليوميات ألقي حملًا ثقيلًا جدًّا على منكبيَّ؛ كما لو انني أبتز القراء عاطفيًّا. أعتقد، في قوة، أنني لا أملك الحق في القيام بذلك. وأنتهز هذه المناسبة لأعتذر، في صدق، من الجميع[٢].

استعاد إسكندر، من ثمَّ، صحته وواصلت دار الكتب والوثائق - ويبلغ عدد موظفيها الآن الأربعمئة - إعادة إعمارها. وللمكتبة مغزًى خاص، يكاد يلامس المقدّس، بالنسبة إلى اسكندر. فهي ليست بالنسبة إليه مجرّد مكتبة. وقال إن «المكتبة الوطنية هي التي تجعل بين الكردي والسني والشيعي جامعًا مشتركًا. إنها المكان الذي تبدأ فيه الهوية الوطنية لأي بلد»[٣].

---

(١) المصدر السابق؛ الثلاثاء ١٣ نيسان/أبريل ٢٠٠٧. <http://tinyurl.com/pquxm9>.

(٢) المصدر السابق؛ ٣١ تموز/يوليو ٢٠٠٧. <http://tinyurl.com/p6j8nv>.

(٣) اسكندر كما تم الاستشهاد به في Sudarsan Raghavan, “An Archive of Despair,” Washington Post, April 7, 2007 <http://tinyurl.com/pxgluk>.

الآثار المفقودة

أعلن صدام حسين عام ١٩٧٩ – في جهد منه لربط نظامه بالتاريخ الماضي للعراق: «أن آثار الماضي هي أثمن المخلفات التي يملكها العراق، وهي تظهر للعالم أن بلادنا... هي المولود الشرعي للحضارات السابقة التي قدّمت إسهامًا عظيمًا للإنسانية»[1]. وقد ازدهرت المتاحف في عهد صدام وحظيت بحماية جيّدة وعوقب من يدان بالتهريب، بالاعدام. والدمار المهم الوحيد الذي لحق بالآثار العراقية زمن رقابة صدّام حدث في جنوب البلاد. فقد نُهبت متاحف إقليمية عدة خلال الانتفاضة الشيعية عام ١٩٩١ عندما منعت منطقة حظر الطيران القوات الجوية العراقية من السيطرة على عمليات الحفر غير المشروعة والتهريب، أواسط عقد التسعينات. ومع ذلك، دخلت القوات الأميركية الغازية عام ٢٠٠٣ بلادًا غنية بالملكية الثقافية. واحتوى المتحف العراقي، من بين قطع أخرى، إناء الوركاء الذي لا يقدّر بثمن (إناء محفور من المرمر عمره خمسة آلاف سنة ويُعدُّ إحدى أولى منحوتات العالم) وتمثال باصدقي (وهو تمثال برونزي لشاب بالحجم الطبيعي يعود إلى ٢٣٠٠ قبل الميلاد)، ناهيك بكنوز لا حصر لها تبقى مدفونة في مختلف أرجاء المواقع الأثرية العشرة آلاف المسجلة في العراق. سوى أن الاهمال الجرمي نفسه الذي قضى على دار الكتب هو الذي وجه أيضًا ضربة قاتلة إلى المتاحف العراقية ومواقع التنقيب.

بعث مكتب إعادة الاعمار والمساعدة الإنسانية التابع للبنتاغون بمذكّرة في ٢٦ آذار/مارس ٢٠٠٣ إلى قادة الوحدات تتعلق بأهمية المواقع العراقية التي يجب حمايتها. ووضعت الرسالة الرسمية لائحة بـ١٦ مؤسسة «تستأهل تأمينها في أسرع ما يمكن لمنع المزيد من الضرر والدمار و/أو سرقة السجلات والأصول». وشكّل

(١) Hugh Eakin, "The Devastation of Iraq's Past," New York Review of Books, vol. 55 no. 13, August 14, 2008 <http://tinyurl.com/rd3pvd>.

المتحف العراقي، بحسب مذكّرة المكتب، «هدفًا أوليًّا للناهبين» ويجب أن يحتل رأس الأولوية، بعد المصرف المركزي، في التأمين عليه. وأضافت المذكرة أن عمليات نهب المتحف ستتسبب «بخسارة لا يمكن تعويضها لكنوز ثقافية تحتل أهمية ضخمة للإنسانية جمعاء». ولما استفسر مكتب إعادة الاعمار في نيسان/أبريل ٢٠٠٣ لماذا تم تأمين وزارة النفط وحدها – وقد احتلت المرتبة الـ١٦ في المذكّرة ـ أبلغه مسؤولو البنتاغون أن ما من أحد على الاطلاق قرأ المذكرة. كذلك اجتمع مارتن سوليفان، وكان يومذاك يترأس لجنة الرئيس الاستشارية للملكية الثقافية – هيئة تقدم المشورة للجهاز التنفيذي في مسائل تتعلق بالحماية الثقافية ـ مرات عدة قبل الاجتياح مع مسؤولين في البنتاغون للتشديد على أهمية حماية المتحف العراقي. «وذهب كل ذلك أدراج الرياح. ولم يملك معظم الوحدات على الأرض أي أوامر... ولم يتم التركيز إلا على الصدمة والترويع»، على ما قال سوليفان الذي استقال لاحقًا من اللجنة الاستشارية احتجاجًا[١].

تُرك المتحف العراقي، على غرار دار الكتب والوثائق، من دون حراسة على رغم تمركز الجنود على بعد أقل من كيلومتر واحد من الموقع. ومن حسن الحظ أن موظفي المتحف أخلوا بعض كنوزه إلى خزنة سرّية في المصرف المركزي وحموها بذلك من النهب. واستذكر دوني جورج يوخنّا، المدير السابق للمتحف العراقي، أن «كل شيء أخلي ما عدا بعض القطع المشؤومة – فهي هشة أو وازنة جدًّا فاستحال نقلها». وتعرّض ما تُرك في مكانه للتحطيم والحرق أو السرقة. وفقد نحو ١٥ ألف قطعة – لم يتم مذذاك سوى استعادة ستة آلاف منها[٢].

---

(١) Paul Martin, Ed Vulliamy and Gaby Hinsliff, "US Army was Told to Protect Looted Museum," Observer, April 20, 2003 <http://tinyurl.com/qy4beo>; Sullivan quoted in Susan Breitkopf, "Lost: The Looting of Iraq's Antiquities," Museum News, January/February 2007 <http://tinyurl.com/pqzgqy>.

(٢) Donny George Youkhanna (interview), Executive Intelligence Review, vol. 30, no. 29, July 25, 2003 <http://tinyurl.com/omjyb3>; McGuire Gibson, "Diary," London Review of Books, January 1, 2009 <http://tinyurl.com/pr7cva>.

عمل الدكتور يوخنّا، المسيحي الأشوري المولود في محافظ الأنبار العراقية، في هيئة الآثار والتراث في عهد صدام حسين وأصبح في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣ مديرًا عامًّا للمتحف. وكان في الموقع، الثلاثاء ٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٣، عندما احتشدت الدبابات الأميركية في بغداد. ويقول يوخنا إن معركة قوية اندلعت بين الجنود الأميركيين ورجال الميليشيا العراقيين عند وزارة الإعلام، على بعد نحو ٥٠٠ متر من المتحف. واستذكر في مقابلة مع «إكزيكوتيف إينتليجنس ريفيو»:

> أخذ هذا الصوت يقترب أكثر من المتحف، ومرة أخرى بدأ إطلاق النار من الجانب الآخر للمتحف، من المنطقة التي تقع فيها محطة الباصات المركزية. وشرعنا، حوالى الحادية عشرة صباحًا، نسمع طائرات الهيليكوبتر المقاتلة من نوع أباتشي من فوقنا. حدث ذلك كلّه، ونحن واثقون جدًّا بأن الأميركيين لن يقصفوا المتحف، لأنهم يُفترض بهم أن يعرفوا أنه متحف، ونعرف أن باحثين من الولايات المتحدة وبريطانيا نبهوهم إلى ذلك. غير أننا شاهدنا بعض رجال الميليشيا العراقيين المسلحين – قد يكونون ممن يسمون بالفدائيين – وهم يقفزون إلى حديقتنا ورأيناهم يطلقون النار على الدبابات. ويعني هذا أن متحفنا أصبح هدفًا[1].

هرب يوخنا ومعه ثلاثة موظفين آخرين من الباب الخلفي للمتحف. «خرجنا وفي نيتنا العودة ما إن تتوقف الحرب، أو المعركة، في محيط المتحف». غير أن القتال العنيف وإقفال الجسور في مختلف أنحاء المدينة منعا يوخنا من العودة، أيامًا عدة. وقال «لا نعلم بالضبط ما حدث الأربعاء [٩ نيسان/أبريل]؛ سوى أن الناهبين أخذوا يجولون داخل المتحف وداخل منطقتنا الإدارية، الخميس [١٠ نيسان/أبريل] والجمعة [١١ منه] والسبت [١٢ منه]». وعاد يوخنا في ١٤ نيسان/ أبريل ودخل المتحف الذي بقي من دون حراسة. وبدا الأمر، وهو يعبر مدخل

(١) Youkhanna (interview), Executive Intelligence Review.

الإدارة، وكأن إعصارًا ضرب المبنى من الداخل. أخذوا كل أنواع التجهيزات التي امتلكناها: الحواسيب، الكاميرات، آلات المساحة، أجهزة قياس الزوايا، آلات النسخ والاستنساخ، البرادات، الأثاث، أجهزة التلفاز – بل وحتى آلة صنع القهوة خاصتي! لم يتركوا شيئًا. وحدها أوراقنا بُعثرت على الأرض وحسب. وقد فُكك مكتبي كليًّا ثلاثة أجزاء أو أربعة. وعثرت على كرسيي على بعد نحو مئة متر منه. وما إن دخلنا المتحف وبدأنا بالتحقق حتى وجدنا أن بعض القطع الفائقة الأهمية التي تركناها في قاعة العرض، أُخذت(١).

تضمّنت القائمة الأولى بالكنوز المفقودة إناء الوركاء وتمثال باصدقي. وأمكنت استعادة هاتين القطعتين، إلا أن نحو ٩٠٠٠ قطعة – معظمها من الأحجار الكريمة والجواهر والتماثيل الفخارية والأختام الأسطوانية من مستودعات المتحف السفلى – لا تزال مفقودة. وقد دمّر الناهبون ما لم يتمكنوا من أخذه. واستذكر يوحنا أنهم قاموا في صالة العرض العامة بتحطيم بعض الأسود الفخارية التي جئنا بها من تل هرمل وتعود إلى ١٩٠٠ قبل الميلاد وهي الحقبة البابلية القديمة وإلى [الحقبة] الحضرية قبل ذلك. وامتلكنا واجهة عرض تظهر أمثلة عن الآجر المختوم منذ الأزمنة الأولى وحتى أيام الرومان. وقد أخذوا تسعة من ألواح الآجر هذه؛ بدا أنهم انتقوا الألواح التسعة ولم يأخذوها في شكل عشوائي. ولاحظنا أن تمثال الملك شلمنصّر الثالث مفقود من قاعة العرض الأشورية، فيما حُطّم تمثال آخر. وحطموا ثلاثة تماثيل رومانية عثرنا عليها في الحضر، وأخذوا رؤوسها. وأخذوا رأس «نايكي» – إلهة النصر – وهو تمثال شبه كامل مصنوع من البرونز عثرنا عليه في الحضر(٢).

كان الصحافي المستقل كريس ألبريتون موجودًا في بغداد عند نهب المتحف. وقال: «شاهدت تخريب المتحف العراقي... ولم يفعل الأميركيون أي شيء حيال

(١) المصدر السابق.

(٢) Roger Cohen, "The Ghost in the Baghdad Museum," New York Times, April 2, 2006 <http://tinyurl.com/r7dgc5>; Youkhanna (interview), Executive Intelligence Review.

ذلك. بل اكتفوا بالجلوس عند بعض تقاطعات الطرق، حتى أنهم لم يخرجوا من آليات الهمفي أو من الدبابات... ولم يقوموا في الحقيقة بالكثير». واستذكرت باربرا بودين، مسؤولة إعادة الاعمار السابقة في السلطة الموقتة للائتلاف، بطأً في صفوف القادة الأميركيين عندما أفيد أوّلًا عن عمليات النهب. وقالت عندما سمعت أن المتحف تعرّض للنهب،

قصدنا الباب المجاور حيث توجد القيادة العسكرية العليا. وقلنا إننا سمعنا، كما تعلمون، أن المتحف عرضة للنهب، وتعرفون أن عليكم إرسال الجنود إلى هناك وحمايته. فهذا، كما تعرفون، إرث عالمي وليس مجرّد إرث عراقي. ويمكنني القول إن الأمر كان مثيرًا جدًّا للاهتمام. أدرك الجنرالات البريطانيون، عمومًا، أهمية حماية المتحف وشرعوا في الرد تقريبًا على الفور. أما الجنرالات الأميركيون، عمومًا، فقد رمقونا بنظراتهم وسألوا: «ماذا تتوقعون منا فعله حيال ذلك؟»[1]

وسيثني دونالد رامسفلد لاحقًا على جنرالاته - بدلًا من تأنيبهم - لفشلهم في وقف نهب المتحف. وقال في شباط/فبراير ٢٠٠٥ للسي.أن.أن.: «أعتقد أن القادة الميدانيين اتخذوا القرارات الصائبة، وقضت القرارات الصائبة بهزم العدو بدلًا من توفير الحماية حول متحف ما أو شيء من هذا القبيل». وثارت ثائرة الدكتور يوخنا على الولايات المتحدة لفشلها في توفير الأمن لمتحف العراق:

كُنت أعرف أن القوات الأميركية موجودة على مقربة من المتحف ولم تحرّك ساكنًا. وهذا خطأ جسيم جدًّا كان يمكن تداركه. اعتقدتُ، على غرار معظم العراقيين، أن وصول الأميركيين مرحَّب به جدًّا، لكنك، وكعالم آثار عمل في هذا الحقل على مدى ثلاثين عامًا وأحبه ويعرف كلّ قطعة بقطعتها، عندما تشاهد كل هذا الدمار والنهب، يصبح الأمر

(١) Allbritton and Bodine quoted in Ferguson, No End in Sight, pp. 111, 117–8.

شاقًّا جدًّا. لا أستطيع مساندة أناس لم يوفّروا الحماية للمتحف. ولا أستطيع لوم الجنود – فهم لم يتلقوا الأوامر(١).

تميّزت إعادة إعمار المتحف بالبطء على رغم ملايين الدولارات التي توافرت من المنظمات غير الحكومية والدعم من وزارة الخارجية الأميركية. فالمتحف، على غرار دار الكتب، قريب من شارع حيفا المميت، حيث قُتل منذ العام ٢٠٠٣ عالم آثار في المتحف ومحاسب وسائق. وعقب عمليات خطف بالجملة في أحد الشوارع القريبة من المتحف أوائل العام ٢٠٠٦، أحكم يوخنا الإغلاق على ما تبقى من المجموعات. وسأل كبار موظفيه بعد عمليات الخطف:

ماذا يسعنا فعله لو جاء هؤلاء الناس إلى المتحف واتهمونا بإخفاء شيء ما في مخازننا وطلبوا دخولها؟ هل يمكننا إيقافهم؟ إتفقنا على أن ما من شيء يوقفهم، فشرعنا على الفور في تأمين المتحف. وضعنا الآثار في مخازن التوثيق والمختبرات في الصناديق وأنزلناها إلى المستودع حيث شرعنا في تلحيم الأبواب الحديد. وعلى مدى يوم ونصف اليوم لحّمنا كل الأبواب المؤدية إلى المخازن وإلى منطقة المتحف. وآخر ما قمنا به كان بناء جدار من الطوب والباطون بسماكة نصف متر عند المدخل. وأصبح المتحف محكم الإقفال(٢).

وفاقم من بطء وتيرة إعادة إعمار متحف العراق تدخل وزارة السياحة والآثار – ومعظم موظفيها من أتباع رجل الدين الشيعي مقتدى الصدر ـ وبحسب يوخنّا:

شرعوا منذ البداية في إرسال أناس مخلصين لحزب الصدر لمراقبة كل

(١) Donald Rumsfeld (interviewed by Wolf Blitzer), "CNN Late Edition with Wolf Blitzer," CNN, February 6, 2005 <http://tinyurl.com/pv2jgj>; Donny George Youkhanna (interviewed by Andrew Lawler), "Discover Interview: Director of Iraq's National Museum," Discover, August 3, 2007 <http://tinyurl.com/pco4on>.

(٢) Roger Cohen, "The Ghost in the Baghdad Museum."; Youkhanna (interviewed by Lawler), "Discover Interview>.

شيء في مؤسستنا وتوجيهه. تدخّلوا في كل كبيرة وصغيرة وغيّروا في الأمور من دون معرفتنا. وشجّعوا موظفي القسم على التوجه مباشرة إلى الوزارة من دون المرور بنا. وفصلوا أناسًا غير مرتبطين بالحزب ووضعوا مكانهم أناسًا غير مؤهلين. والأمر أسوأ من عهد صدام.

وزاد في الأمور سوءًا ان يوخنّا مسيحي المعتقد:

كانت القشة التي قصمت ظهر البعير عندما أبلغني مستشار الوزير أن عليّ الانتباه إلى نفسي. وقال إن حزب الصدر أعطى أمرًا بوجوب عدم السماح لي، بصفة كوني مسيحيًا، بالاحتفاظ بوظيفتي، وإن من المهم جدًّا أن يتبوّأ هذا المنصب مسلم شيعي. صُعقتُ. وأدركت أنني في حال بقيت سيطردونني، أو سيسبب لي ذلك المشكلات، بل قد يؤدي حتى إلى اغتيالي. وهذا يحدث. تقدمت بعد ذلك بشهر أو ما نحوه – في ٣٠ تموز/يوليو [٢٠٠٦] – بطلب التقاعد، فوافق عليه الوزير على الفور. والوزير يتصل عادة لمعرفة سبب استقالة مسؤول رسمي كبير، واتضح بالتالي أنه يريدني أن أغادر. وغادرنا بغداد بعد ذلك بأسبوع تقريبًا[١].

انتقل من هناك إلى سوريا ثم إلى نيويورك حيث يدرّس الآن علم الآثار والتاريخ في جامعة ستوني بروك. وقام بديله في ٢٣ شباط/فبراير ٢٠٠٩ بإعادة افتتاح الطبقة الأولى في المتحف العراقي – وهي خطوة عدَّها يوخنّا متهوّرة وسابقة لأوانها نظرًا إلى الظروف الأمنية في بغداد وإلى أن المجموعات لا تزال غير مكتملة. وقال: «أعتقد أن المتحف يُستخدم في هذه الحال لأسباب سياسية وحسب»[٢].

وإذا كان متحف العراق حاز انتباهًا إعلاميًّا متواضعًا وملايين الدولارات من الواهبين في ما وراء البحار لحماية مجموعاته واسترجاعها، فإن المواقع الأثرية

(١) مقابلة أجراها لاولر مع يوخنا في "Discover Interview".

(٢) يوخنا كما تم الاستشهاد به في Steven Lee Myers, "Iraq Museum Reopens Six Years After Looting," New York Times, February 23, 2009 <http://tinyurl.com/cj4hua>.

العراقية الكبرى لم تحظ بمثل ذلك. وبحسب ماكغواير غيبسون، أستاذ علم آثار بلاد ما بين النهرين في جامعة شيكاغو، فإن مئات المواقع كانت «لا تزال مدمرة» عام ٢٠٠٩. ويعتقد الخبراء أن عمليات التنقيب غير الشرعية أدت إلى استخراج آلاف القطع الأثرية. وبحسب غيبسون:

> يشكّل التنقيب غير الشرعي الطرف المموّن لسلسلة طويلة من العملاء والتجار العراقيين والمهرّبين والتجار الأجانب والأكاديميين الذين يثبتون صحّة القطع لمصلحة جامعي الآثار والمتاحف التي تزوّد السوق. والرجال الذين يقومون بأعمال التنقيب هم من المزارعين وسكان المدن، والكثيرون منهم من الجنود العراقيين المسرّحين الذين لا يملكون وظائف بديلة. وتوفّر سيارات الأجرة المحلية عمليات النقل. ويوفّر قلّة من المشايخ بعض التنظيم فيما يصل عملاء التجار الإقليميين دوريًّا لاختيار أفضل القطع. وينقل المهرّبون القطع الأثرية إلى خارج العراق عبر عدد من الطرق. وتبيع متاجر الجواهر والأثريات بعضها في حلب ودمشق وعمّان وبيروت؛ ويبدو أن الكثير منها يجد طريقه إلى دولة الإمارات العربية المتحدة، من خلال متابعة مواقع الإنترنت فيها. إلا أن أفضل القطع يُرسل إلى أوروبا حيث تعرضه المتاجر علنًا للبيع، في ألمانيا وهولندا وغيرهما[١].

لا تزال القطع الأثرية العراقية تُباع على المكشوف عبر الإنترنت. ووجد تحقيق قام به نيل برودي من مركز علم الآثار في جامعة ستانفورد أن ٥٥ موقعًا على الإنترنت عرضت في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦ قطعًا أثرية عراقية بما في ذلك لوحات مسمارية وأختام أسطوانية ذات شهادات مشكوك فيها. وارتفع العدد بحلول أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٨ إلى ٧٢ موقعًا على الإنترنت. وتبقى هذه السرقة المتمادية للقطع الأثرية العراقية وبيعها جرحًا مفتوحًا في بلد لا يزال مُبتلى بالمأساة اليومية. وقال يوخنّا «إن ما يحصل للآثار ولتلك القطع الفنية التي تنتمي إلى البشرية يشكل وضعًا

(١) Eakin, "The Devastation of Iraq's Past"; Gibson, "Diary".

محزنًا جدًّا. انها إرث يعود إلى كل شخص في العالم. وهي تُهرّب وتغتال على هذا النحو»[1].

إبادة المجتمع

إذا أخذنا في الحسبان تدمير الكنوز الثقافية العراقية، وفورة الأصولية العنفية، وإهلاك البنى التحتية الاقتصادية والاجتماعية، والمعاناة التي تختبرها النساء والأولاد والأقليات، يمكن المحاججة بأن إبادة المجتمع تشكل نتيجة للعدوان الأميركي في العراق – القضاء على نهج حياتي بأكلمه. وقد استخدم هذه العبارة للمرة الأولى بطريقة منهجية كيث داوت في «فهم الشرّ: دروس من البوسنة» :Understanding Evil Lessons from Bosnia. وكتب داوت «أن النزاعات المسلحة، ليس في البوسنة وحسب، بل أيضًا في رواندا والشيشان والشرق الأوسط، تحدد أهدافًا مجنونة.» وتابع:

> لا يتم تدمير البيوت فحسب بل أيضًا هيبة المنزل. ولا يتم قتل النساء والأطفال وحسب، بل أيضًا المدينة نفسها مع طقوسها ومناهج حياتها. ولا تتم مهاجمة مجموعة معينة من الناس وبنياتها السفلى، وحسب، بل تاريخها أيضًا وذاكرتها الجماعية. ولا يتم وحسب هدم النظام الاجتماعي، بل أيضًا المجتمع نفسه. ويُسمى العنف في الحال الأولى إبادة المنزل؛ وفي الثانية إبادة المدينة؛ وفي الثالثة الإبادة الجماعية. إلا أن من الضروري إدخال تعبير جديد، محدث، على الحال الرابعة، وهو إبادة المجتمع[2].

(١) Neil Brodie, "The Market in Iraqi Antiquities 1980–2008," Stanford University Archaeology Center, October 2008 <http://tinyurl.com/okgljc>; Youkhanna (interview), Executive Intelligence Review.

(٢) Keith Doubt, Understanding Evil: Lessons from Bosnia, Fordam University Press: New York, 2006, pp. 120, 126–7.

وشرح أن إبادة المجتمع تستلزم «خطّة منسّقة لأعمال مختلفة تهدف إلى تدمير الأسس الأساسية للمجتمع». ونتائجها وحشية ومتفشّية معًا. وهي تتضمن تدمير الدولة الاجتماعية – مثلًا: «التضامن، الهوية، العائلة، المؤسسات الاجتماعية، وعي الذات» – والفاسدة إذ «يصبح الارتياب وسوء النية التوجهين السائدين لدى الناس الذين يعيشون معًا»(١).

ويشكّل التدمير المقصود للعراق وشعبه الذي قامت به الولايات المتحدة وحليفاتها إبان حرب الخليج وحقبة العقوبات الدولية وحرب الخليج الثانية – وبخاصة في ضوء نهب نيسان/أبريل ٢٠٠٣، الذي تغاضت عنه الولايات المتحدة، ودعم الأصوليين العنفيين – محاولة إبادة اجتماعية. ويعيش العراقيون الآن سلامًا هشًّا تقطعه بين مدة وأخرى اغتيالات وهجمات انتحارية، وديمقراطية هشّة منقسمة على طول خطوط إثنية وطائفية. وعلى رغم الهجمات المنسقة على الشعب العراقي ومؤسساته، تبقى شِغافُ المجتمع النابضة بالحياة سليمة. ويكشف عراقيون من أمثال يوخنّا واسكندر وريفربند وصنشاين – إضافة إلى عدد لا يحصى من الآخرين الذين عملوا على استرجاع العراق وتوثيق دماره – روح شعب مرنة وسط المذبحة. وعلى رغم كل الاحتمالات المعاكسة، بقيت الهوية العراقية ولم تُدمّر.

حاشية: أناس خارج اللحظة

في السابع والعشرين من شباط/فبراير ٢٠٠٩، أعلن الرئيس باراك أوباما في خطاب الانسحاب الأميركي من العراق خلال العام ٢٠١١، وأثنى على الجيش الأميركي «لتوفيره فرصة ثمينة لشعب العراق». وأضاف أن الولايات المتحدة لم تتسبب «بالطغيان والفوضى» في هذا البلد الشرق الأوسطي، بل «حاربتهما». ثم توجه أوباما، في شكل مباشر، إلى الشعب العراقي:

(١) المصدر السابق؛ Keith Doubt and Jeff Boucher, “War in Iraq: Is it Sociocide?” Wittenberg University وهي دراسة غير منشورة أرسلت إلى الملفين بالبريد الإلكتروني.

> عرف بلدانا أوقاتًا صعبة معًا. غير أنها تشكل، من جانبنا، رابطًا صاغه سفك دماء مشترك وعدد لا يحصى من الصداقات بين شعبينا. ونحن كأميركيين قدّمنا أفضل مورد لدينا – شباننا ونساءنا – للعمل معكم في إعادة بناء ما دمّره الاستبداد؛ ولدحر عدوّنا المشترك؛ وللسعي إلى السلام والبحبوحة لأولادنا وأولادكم ولأحفادنا وأحفادكم.

كشف الرئيس أوباما بهذه الملاحظات – التي لا يمكن فعليًّا تمييزها عن ملاحظات سلفه – خطابًا مألوفًا يستبعد تجارب المعاناة العراقية. وعلى ما لاحظه محرر «ميديا لانس» لاحقًا:

> عرفت أميركا والعراق بالفعل «أوقاتًا صعبة معًا» – تسببت بها الولايات المتحدة وعاناها العراق. ساعدت الولايات المتحدة في تنصيب ديكتاتور آثم، هو صدام حسين، وساندته خلال ارتكابه أسوأ جرائمه التي عملت الحكومات الغربية والإعلام جاهدة لحجبها عن الأنظار. ثم أنزلت بالعراق حرب الخليج المدمّرة عامًا ١٩٩١ و١٢ عامًا من عقوبات الإبادة الجماعية التي أجهزت على حياة مليون عراقي. وتسببت حرب العام ٢٠٠٣ والاجتياح بمليون قتيل آخر، وحوّلت أربعة ملايين شخص لاجئين معدمين، وحوّلت بلدًا محطّمًا إلى الخراب المطلق[١].

كشف خطاب أوباما عن الانقطاع العميق بين الحقيقة والخطاب السياسي الذي لا يزال يسمّم الكثير من النقاش في شأن العراق. فقد وصف أوباما المرشح الرئاسي اجتياح العام ٢٠٠٣ بأنه حرب «لم يجب قط السماح بها ولا شنّها»[٢]. لكن بلاغته تغيّرت سريعًا ما إن أصبح زعيمًا للأمة المسؤولة عن هذا العدد الكبير من القتلى.

(١) Generic Invader Nonsense–Obama on Iraq," Media Lens, March 5, 2009 <http://tinyurl.com/" ce28om>.

(٢) David Montero and Nancy Mitchell, "Obama: Students Should Serve," Rocky Mountain News, July 3, 2008 <http://tinyurl.com/yzmzcef>

تحدّث الراحل هارولد بينتر في خطاب قبوله جائزة نوبل للآداب عن العام ٢٠٠٥ عن هذا الانقطاع نفسه بين الحقيقة والسياسة. وبحسب بينتر:

> لا تهتم غالبية السياسيين، في ما يتوافر لدينا من دليل، بالحقيقة، بل بالسلطة والحفاظ على هذه السلطة. ومن الضروري، للاحتفاظ بهذه السلطة، إبقاء الناس في الجهالة، أي أن يعيشوا في جهل للحقيقة بما في ذلك الحقيقة المتعلقة بحياتهم. وبالتالي فإننا نحاط بنسيج واسع من الأكاذيب التي نتغذّى منها(١).

استُبعدت الأصوات العراقية من النقاش العام، خدمة لهذه السلطة، لكي يبدو العدوان غير الضروري وغير الشرعي محقًّا. فمبدأ الحرب العادلة يستحضر اختبارين معقولين: «الحق في إعلان الحرب» Jus ad Bellum، أي وجود ما يبرر المضي إلى الحرب، و«العدالة في الحرب» (أو قانون الحرب) Jus in Bello، أي إذا كانت الاستراتيجيات المحددة وأساليب خوض الحرب مقبولة. فالذرائع الكاذبة للعدوان الأميركي على العراق (أي، «تحرير» الكويت عام ١٩٩١، و«الحط من قدر» حسين خلال حقبة العقوبات الدولية، و«التخلّص» من أسلحة الدمار الشامل عام ٢٠٠٣)، مقرونة بالبؤس والموت اللذين تسبب بهما هذه الأفعال، تجعل من أي تسويغ للحرب العادلة مسخرة. وحتى لو أدت حرب العراق عام ٢٠٠٣ إلى إعادة تقويم متواضعة، في الولايات المتحدة وفي البلدان المتحالفة معها، للمسائل المتعلقة بالحرب العادلة والغزوات الخارجية، يشكّل ذلك إرثًا إيجابيًّا واحدًا للمذبحة. مع أنه سيتحقق بثمن بلغ ملايين من حالات الموت غير الضرورية – وهو مستوى من التدمير يصل إلى حد الإبادة الحقيقية للمجتمع العراقي.

ويبقى اجتياح ٢٠٠٣، خصوصًا، مثالًا على المغامرة الاستعمارية المرتكزة على

(١) Harold Pinter, “Nobel Lecture: Art, Truth & Politics” (transcript), Nobelprize.org, 2005 <http://tinyurl.com/yj6ylo>.

المصالح الخاصة وعلى إيديولوجية مسببة للتآكل. وعلى الرغم من حججًا مقنعة رُفعت في مكان آخر ضد مهندسي الحرب المتهمين بارتكاب جرائم حرب – وهي دعوات نساندها كما ينبغي – لا يزال البعض يتمسّك بمزايا الاجتياح(١). ولاحظ ديك تشيني في الأيام الأخيرة من نيابة رئاسته: «أعتقد أن الحملة الأساسية نُفّذت في براعة،» مضيفًا أن فوضى ما بعد الاجتياح حدثت بسبب «عدم وجود عراقيين على استعداد، منذ البداية، للنهوض وتحمّل مسؤولية شؤونهم الخاصة». وقد صُمّم مثل هذا الخداع لإسكات الأصوات العراقية وإخفاء النيات الحقيقية للاجتياح، أي بسط النفوذ الأميركي في الشرق الأوسط، وإعادة صياغة الاقتصاد العراقي، وضمان الوصول الأميركي إلى ثروة العراق المعدنية الكبرى. غير أن هذه الأهداف فشلت في معظمها، وتم التخلي عن برامج بول بريمر الاقتصادية الجذرية فيما صدّت صناعة النفط العراقية عملية الإخضاع الأميركية. وقد ازدادت عمليات التخريب كثيرًا عندما انتشرت عقب الاجتياح إشاعات عن تخصيص الصناعة النفطية. وقال فضل الله الجبيوري، المستشار النفطي العراقي المولد: «رأينا ارتفاعًا في عمليات تفجير المنشآت النفطية وخطوط الأنابيب وهي قد حصلت على افتراض أن التخصيص آت». وفي الوقت نفسه أصدر آية الله العظمى علي السيستاني فتوى تعلن أن النفط العراقي ملك لـ«الجماعة» – أي الدولة – وهي خطوة اعترضت المخططات الأميركية. وها إن إيران أصبحت اليوم صانعة القرار السياسي في الشرق الأوسط – لا الولايات المتحدة – بعدما أصبحت وزارة النفط العراقية – إلى جانب وزارتي الداخلية والمال – في أيدي فئات شيعية موالية لإيران. وقد ضغطت إيران على السلطات العراقية لتفضيل شركات النفط الصينية والروسية على الشركات الغربية. وبالفعل وُقّع أول عقد نفطي كبير منذ ٢٠٠٣ – صفقة بثلاثة مليارات دولار أُبرمت عام ٢٠٠٨ لتطوير حقل الأحدب – مع شركة البترول الوطنية الصينية. وألغت الحكومة العراقية فجأة في أيلول/

(١) War Crimes Committed by the United States in Iraq and Mechanisms for Accountability," Consumers for Peace with the advice of Karen Parker, October 10, 2006 <http://tinyurl.com/qwqh38>.

سبتمبر ٢٠٠٨ الصفقات التي تمت بُعيد الاجتياح مع إكسون موبيل وشيفرون وشل وتوتال وبريتيش بتروليوم وشركات أخرى عدة أصغر حجمًا(١).

استقرّ العراق الجديد في حال من الهدوء النسبي بالمقارنة مع أسوأ أيام العنف التي أعقبت الاجتياح. غير أن العنف لا يزال مستمرًّا – بما في ذلك داخل مناطق بغداد المركزية التي عُدَّت طويلًا «آمنة». ولاحظت افتتاحية في جريدة الزمان العراقية في آذار/مارس ٢٠٠٩ أن:

> معدّل العنف الآن، على رغم أنه ليس بالمستوى المعتاد، يعادل في خطورته زمن كانت كل بغداد تقريبًا خارجة عن سيطرة الولايات المتحدة أو العراق. وينبئنا العنف المستمر، وليس أقله الاشتباكات الأخيرة في حي الفضل في قلب بغداد، بأن تباهي الولايات المتحدة والحكومة العراقية بالأمن النسبي فارغ وكاذب(٢).

بلغ العنف في العراق الآن حدًّا يمكن مقارنته بالمستويات التي بلغها عام ٢٠٠٣. وشرح الصحافي نير روزن في نيسان/أبريل ٢٠٠٩: «نحن لم نخلق جنّة في العراق؛ بل أوجدنا جحيمًا. قد يكون الأمر تراجع الآن من درك الجحيم السابع إلى الدرك الثاني؛ إلا أنه يبقى سيئًا جدًّا لمعظم العراقيين في أمور مثل الماء والكهرباء. ثم أن التفجيرات لا تزال تحدث»(٣).

---

(١) Blue Texan, “Cheney Calls Iraq ‘Significant Success, Masterfully Done’; Blames Lengthy, Bloody Occupation On Lack Of Iraqi ‘Get Up And Go,’” firedoglake, January 4, 2009 <http://tinyurl.com/9ydq4r>; Al-Jibury quoted in Dilip Hero, “How the Bush Administration’s Iraqi Oil Grab Went Awry,” TomDispatch, September 25, 2007 <http://tinyurl.com/ol63km>; “Iraq said not to favor US firms to develop oil fields” (editorial), Azzaman, September 3, 2008 <http://tinyurl.com/q5kojz>; Andrew E. Kramer and Campbell Robertson, “Iraq CancelsSix No-Bid Oil Contracts,” New York Times, September 10, 2008 <http://tinyurl.com/6h9tfl>.

(٢) Fatih Abdulsalam, “Iraq Story Takes Back Seat in International Media” (editorial), Azzaman, March 29, 2009 <http://tinyurl.com/qugfdc>.

(٣) مقابلة أجرتها إيمي غودمان مع نير روزن في Democracy Now!, April 9, 2009 <http://tinyurl.com/cbdcva>.

ولا تزال صنشاين، العراقية الشابة ابنة الموصل، تواصل تقصّي العنف وانعدام الأمن في مدينتها. وكتبت في ١٤ آب/أغسطس ٢٠٠٩:

> ينتمي صديق والدي إلى جماعة الشبك (الشبك أكراد لكنهم ضد حكومة كردستان، وهم من المسلمين الشيعة)، وقد اتصل به والدي لمعرفة أحواله وأحوال عائلته بعد الانفجار الرهيب الذي تردّدت أصداؤه في المدينة كلّها، فأبلغه: «لقد دفنت اليوم ٤١ جثة ولا يزال يوجد المزيد من الجثث تحت الانقاض». وأعيا الكلام والدي. تخيلوا فقدان ٤١ شخصًا في يوم واحد. أناس من العائلة، أقارب، أصدقاء، أطفال، نساء، شيوخ وشبان... هذا غير عادل... خسر المئات من الناس، في غضون دقائق، منازلهم وقُتل المئات ويعاني المئات إصابات خطرة، وقد يموتون أو يعيشون معتلّي العقل أو معوقين. لماذا؟ وبأي ذنب...؟[١]

يستمر طعم الحرب المرّ والاحتلال وسط عنف متقطّع ومقتل أكثر من مليون مواطن وجرح ثلاثة أضعاف هذا الرقم فضلًا عما بين مليون أرمل وأرملة ومليونين والدمار الرهيب للمجتمع العراقي وللاقتصاد وللإرث الثقافي. وقال ٥٦ في المئة من ٢٢٢٨ عراقيًا استُطلعوا في شباط/فبراير ٢٠٠٩ إن من الخطأ شن الولايات المتحدة اجتياح العام ٢٠٠٣ – وقد ارتفع العدد عن نسبة الخمسين في المئة عام ٢٠٠٨ – فيما قال ٧٠ في المئة إن الولايات المتحدة تقوم بعمل سيّئ في العراق. واعتقد ٥٧ في المئة أن الرئيس باراك أوباما سيجعل الأمور أكثر سوءًا أو انه لن يُحدث فارقًا، فيما حيّا ٦٢ في المئة منتظر الزيدي بصفة كونه بطلًا، وهو الصحافي العراقي الذي رمى جورج دبليو بوش بالحذاء في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨.

وهكذا لم يمكن خطة الرئيس باراك أوباما سحب كل الجنود أن تأتي في وقت قريب بما فيه الكفاية. ويجب على العنف الذي يستمر في جلب البلاء للعراق – أكثر من ٤٣٠٠ قتيل عام ٢٠٠٩ – ألا يغري إدارة أوباما بتأخير الانسحاب. بل

---

(١) Sunshine, “Why? For how long?....” Days of My Life, August 14, 2009 <http://tinyurl.com/ybet-d6q>.

كلما أبكر الجنود الأميركيون في المغادرة، أمكن العراقيين تجاوز صدمة الحرب والاحتلال وتأكيد سيادتهم. أما ميزان القوة، الذي لا يزال غير مستقر بين السنة والشيعة والأكراد وسوى ذلك من الأقليات، فسيبلغ توازنه. والدور الإيجابي الوحيد المتبقي للولايات المتحدة يتضمن دفع تكاليف إعادة الاعمار وإعادة التوطين والأضرار – وهي تكاليف يحاجج بعض المحللين بأنها قد تبلغ بكل سهولة تريليونات الدولارات[1].

عشية انتخابات المحافظات عام ٢٠٠٩ التي شهدت تراجعًا للأحزاب الأصولية الشيعية والسنية، أجرى مسؤولون في المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة مقابلات مع عشرات اللاجئين العراقيين في مختلف مناطق الشرق الأوسط. وقال أحد اللاجئين في القاهرة: «لا يهمني من يسيطر على غالبية المقاعد أو من سيتولى السلطة، إلا أن ما آمل فيه حقًّا هو عراق مسالم يستوعب جميع العراقيين بغض النظر عن انتماءاتهم الإثنية أو الدينية». وكان غيره أقل أملًا، إذ قال أحدهم في سورية: «لا معنى للانتخابات... فالبلاد مدمّرة والناس لا يهتمون إلا لمكاسبهم الشخصية ومواقعهم»[2]. وحده الزمن سيخبر هل تشفى الجروح التي أنزلتها الولايات المتحدة وحليفاتها بالكامل، أو أنها ستستمر في التقيّح. وستتواصل إعادة الاعمار الترقيعية إلا أن الندوب الجسدية والمادية والوجودية ستستمر لأجيال مقبلة. وعلى العراقيين الآن، مع الانسحاب البطيء للجنود الأميركيين من الدولة المحطمة، أن يختاروا الطريقة الأفضل لإنقاذ العراق، أو هل يستأهل أن يُنقذ.

(١) "Six Years Later, Iraqis Ready for the US to Leave," Center for Media and Democracy, March 16, 2009 <http://tinyurl.com/porcf9>; "Iraq Poll February 2009," ABC News/BBC/NHK, February 2009 <http://tinyurl.com/qbgjhn>; "Documented Civilian Deaths from Violence: Monthly Table," Iraq Body Count <http://tinyurl.com/3xrgsz>; Brian Katulis, "A Standoff in Central Baghdad", Center for American Progress, March 30, 2009 <http://tinyurl.com/d3tcw5>; Gideon Polya, "6th Anniversary of Iraq Invasion - $29 trillion Reparations Bill," Newsvine, March 22, 2009 <http://tinyurl.com/pkttmj>.

(٢) "Iraqi Refugee Reaction to Elections Mixed," UPI, February 4, 2009 <http://tinyurl.com/yb-hndcn>.

ويبقى ملايين العراقيين مهجّرين في داخل العراق وفي سورية والأردن وما هو أبعد، على رغم المكاسب الأمنية المتواضعة. وفي رسالة عبر الفيس بوك إلى المؤلفين في آذار/مارس ٢٠٠٩، كرر أحمد – طالب الهندسة العراقي الشاب الذي يعيش الآن في الأردن وتحدثنا عنه في الفصلين الأول والثاني – ممانعته في العودة:

> أصبح العراق نوعًا ما أكثر أمانًا الآن من الوضع السابق الخطر جدًّا مما يعني أنه لا يزال غير آمن كما تعوّد أن يكون. أو أقله ليس أكثر أمنًا من المكان الذي أمكث فيه الآن خصوصًا بالنسبة إليّ كشاب. وقد عاد الكثيرون من العلماء والأطباء وأساتذة الجامعات لاستئناف أعمالهم إلا أن من الأفضل لنا، نحن الشبان، أن نبدأ حياتنا في مكان أفضل وقد نعود بعد عشر سنوات ونرى هل في وسعنا العيش هناك... والعراق هو السوق المعمارية الوحيدة التي لم تتعرّض للانهيار. لكن العودة إلى هناك لا تشكّل خيارًا، بل إنني حتى لن أفكّر بذلك[١].

لم تحدث عودة واسعة النطاق للعراقيين المنتمين إلى الطبقتين المتوسطة والدنيا على رغم إعلان وزارة التعليم العالي والبحث العلمي العراقية عن عودة أكثر من ألف من أصحاب المهن الحرة إلى الديار منذ العام ٢٠٠٨. وبالنسبة إلى باتريك كوكبورن فإن: «الميزان الأفضل الذي يقيس «تحسّن» العراق هو استعداد الـ٤,٧ مليون لاجئ للعودة، وهم يشكلون واحدًا من أصل خمسة عراقيين وقد هربوا من منازلهم ويعيشون الآن خارج العراق. وبحسب المنظمة الدولية للهجرة، عاد ٢٥٠ ألف مهجّر عراقي فقط حتى نيسان/أبريل ٢٠٠٩. إذ يبقى التغيير الواقع في ديمغرافيات المدن الرئيسة عقب النزاع الطائفي يشكّل العائق الأول. فبغداد التي كانت في السابق مدينة مختلطة باتت اليوم مدينة في غالبيتها من الشيعة. ولم يتبقَّ إلا ٢٥ فقط من المناطق المئتين السابقة ذات الاختلاط السني ـ الشيعي. ويجد الكثيرون من العائدين منازلهم وقد

(١) رسلة على الفيس بوك من أحمد إلى مايكل أوترمان في ٢٤ آذار/مارس ٢٠٠٩.

دُمّرت أو احتلّها مصادروها. وقال أدرون هاربر من المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة في أيار/مايو ٢٠٠٩ إن «العراقيين يستحقّون أن يعودوا في كرامة وأمان. وهذا لا يزال غير ممكن بعد في أماكن كثيرة من البلاد»[١].

وها إن الكثيرين من المواطنين العراقيين، وبعد مرور أكثر من سبعة أعوام على الاجتياح، يرون في البطالة وارتفاع الاسعار والنقص في الخدمات الأساسية تهديدًا يوميًّا أكبر من التهديد الذي يشكله العنف وانعدام الأمن. فلا تزال منظومة المياه في بغداد في حال خلل وظيفي – ما يصل إلى ٩٠ في المئة من مياه الشفة في المدينة غير مأمون – فيما لا يزال الملايين يعتمدون المولّدات الخاصة للحصول على الكهرباء. ويواجه العراق الذي استُنزفت موادره وقواه العاملة ويتقلّص اقتصاده في الأساس بسبب تراجع سعر النفط، تحديات ضخمة قد لا تسترعي انتباه الإعلام الغربي – على عكس الحرب والنزاع الخارجين عن السيطرة. وهكذا تبقى المدوّنات الإلكترونية العراقية تشكّل المصدر الأفضل لأخبار العراق. وكتب سلام باكس في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩: «نعمد كل ليلة قبل الخلود إلى النوم إلى وضع وعاء معدني مقلوب تحت صنبور المياه الذي نتركه مفتوحًا ولا نوصد باب المطبخ. هذه، يا صديقي العزيز، الطريقة الأفضل للاستيقاظ عندما نحصل أخيرًا على المياه الجارية في منتصف الليل». وأضاف سلام:

> عندما تقوم الكهرباء بواحدة أو اثنتين من زياراتها النادرة في اليوم يهرع كلّ من في المنزل للقيام بأمور لا يمكن القيام بها مع المولّد. تُدار آلات الغسيل والمكانس الكهربائية ويتم توصيل كل ضوء محمول يحتاج إلى

---

(١) Hadeel al-Jawari, "US blamed for flight of Iraq's brain drain" (editorial), Azzaman, May 12, 2009 <http://tinyurl.com/oxmm6u>; Patrick Cockburn, "Total Defeat for U.S. in Iraq," Counterpunch, December 11, 2008 <http://tinyurl.com/64olcc>; "Iraq: Preventing the point of no return," Refugees International, April 7, 2009 <http://tinyurl.com/patovh>; Michael Schwartz, "Iraq's Broken Pieces Don't Fit Together," Asia Times, February 13, 2008 <http://tinyurl.com/p6yslv>; Harper quoted in Corinne Reilly, "Prospects are dismal for returning Iraqi refugees," McClatchy, May 22, 2009 <http://tinyurl.com/o682zq>.

شحن في القابس. وما عليك عندذاك إلا أن ترجو أن تبقى الكهرباء ما يكفي من الوقت لتنهي آلة الغسيل دورتها الكاملة(١).

ناقشت ريفربند – التي توقّفت عن كتابة المدوّنات أواخر العام ٢٠٠٧ بعد هربها من العراق إلى سوريا – في مقابلة عام ٢٠٠٦ سبب كون المدوّنات العراقية حيوية. وقالت: «يوحي لي العراق بكتابة المدوّنات».

بدأتُ بكتابة المدونات كطريقة أنفّث فيها إحباطاتي ومخاوفي في شأن عدم الاستقرار وغياب الأمن. وواصلت ذلك لأنني شعرت أن الإعلام يغطّي الوضع في بلادي بطريقة عامة جدًّا. ولا يبدأ الكثير من المقالات حتى في التطرّق إلى الواقع اليومي الذي يواجهه العراقيون.

وأبرز هارولد بينتر هذا الواقع في خطابه نيل جائزة نوبل عام ٢٠٠٥. قال إن العراقيين يعيشون «خارج اللحظة. فلا وجود لموتهم. إنهم ممسوحون. لا بل لا يُسجلون حتى أنهم أموات». وبعبارات بينتر فإن الكشف عن الأعداد الدقيقة للجثث واستعادة الروايات الضائعة – بمجرّد القراءة عنها والتفكير فيها والمشاركة فيها – أمر

(١) Iraq Poll February 2009," ABC News/BBC/NHK; Matthew Schofield, "Baghdad's Water Still" Undrinkable 6 Years after Invasion," McClatchy, March 18, 2009 <http://tinyurl.com/praezz>; Salam Pax, "Electricity and Water," salampax, January 26, 2009 <http://tinyurl.com/pa56mc>.

i مقابلة مع سامر أجراها أوترمان وتمارا فنجان في 23 تشرين الثاني/نوفمبر 2007 في ليفربول، سيدني.

ii IRAQ: Country Statistics (as of October 1, 2010), Internal Displacement Monitoring Centre <http://tinyurl.com/32qcve9>; and, UNHCR Global Report 2009 – Iraq Situation, June 1, 2010 .<<http://tinyurl.com/2wjo5a5

iii Estimated Availability of Essential Services, Multi-National Corps-Iraq, Unclassified Briefing slides, February 2009, in Iraq Index: Tracking Variables of Reconstruction & Security in Post .<Saddam Iraq, Brookings, September 1, 2010, p. 33 <http://tinyurl.com/ya3nrgq

iv Jim Garamone, "Odierno to Use Combat Lessons to Develop Joint Doctrine," American Forces Press Service, June 24, 2010 <http://tinyurl.com/37y4ukx>; Richard Lardner, "State Department Wants a Mini-Army in Iraq

حاسم في «استعادة ما نكاد نخسره وهو - كرامة الإنسان»[1]. وإذا أمكننا، في هذا الكتاب، تقديم إسهام، ولو بسيط، في اتجاه هذا الهدف فسنكون عندذاك حققنا غايتنا.

---

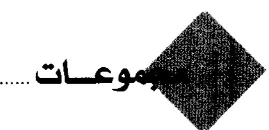
(١) مقابلة مع ريفربند أجراها فراس الأطرقشي، "Interview: Iraqi Blogger Riverbend," Al Jazeera, April 9, 2006 <http://tinyurl.com/pacgd4>; Pinter, "Nobel Lecture: Art, Truth & Politics" (transcript). Associated Press, June 14, 2010 <http://tinyurl.com/37lyed6>; and, Jeremy Scahill, "Iraq Withdrawal? Obama and Clinton Expanding US Paramilitary Force in Iraq," The Nation, July 22, 2010 .<<http://tinyurl.com/25kkpcu

v Documented Civilian Deaths from Violence: Monthly Table," Iraq Body Count <http://tinyurl." .<com/3xrgsz

vi Robert Fisk, "Americans Defend Two Untouchable Ministries from the Hordes of Looters," The .<Independent, April 14, 2003 <http://tinyurl.com/34ougkx



صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



مجموعات

مجموعة الصحفي روبرت فيسك

- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - (في كتاب واحد)
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الأول الحرب الخاطفة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثاني الإبادة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثالث إلى البرية
- ويلات وطن
- زمن المحارب

مجموعة د. عصام نعمان

- هل يتغيّر العرب؟
- العرب على مفترق
- أميركا والإسلام والسلاح النووي
- حقيقة العصر - عصام نعمان وغالب أبو مصلح
- على مفترق التحوّلات الكبرى... ما العمل؟

مؤلفات د. محمد حسنين هيكل

- الحل والحرب!
- آفاق الثمانينات
- قصة السويس
- عند مفترق الطرق
- لمصر لا لعبد الناصر
- زيارة جديدة للتاريخ
- حديث المبادرة
- خريف الغضب
- السلام المستحيل والديموقراطية الغائبة
- وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي
- بين الصحافة والسياسة

مجموعة د. سليم الحص

- صوت بلا صدى
- تعالوا إلى كلمة سواء
- سلاح الموقف
- في زمن الشدائد لبنانياً وعربياً
- للحقيقة والتاريخ
- نحن والطائفية
- عصارة العمر
- محطات وطنية وقومية
- ما قَلَّ ودَلّ
- ومضات في رحاب الأمة

مجموعة د. وليد رضوان

- مشكلة المياه بين سوريا وتركيا
- العلاقات العربية التركية
- تركيا بين العلمانية والإسلام

مجموعة جوزيف أبو خليل

- مبادئ المعارضة اللبنانية
- رؤية للمستقبل
- لبنان وسوريا مشقة الأخوة
- قصة الموارنة في الحرب
- لبنان... لماذا؟

مجموعة بول فندلي

- من يجرؤ على الكلام
- الخداع
- لا سكوت بعد اليوم
- أميركا في خطر



مجموعة كريم بقرادوني

- **لعنة وطن**
- **السلام المفقود**
- **صدمة وصمود**

مجموعة شكري نصرالله

- **مذكرات قبل أوانها** - شكري نصرالله
- **السنوات الطيبة** - شكري نصرالله
- **ستّ الستّات** - **علياء رياض الصلح** - شكري نصرالله

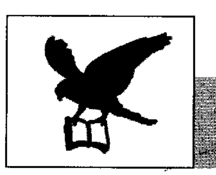


- **تقي الدين الصلح سيرة حياة وكفاح** - (جزآن) - عمر زين
- **مبادئ المعارضة اللبنانية** - حسين الحسيني
- **رؤية للمستقبل** - الرئيس أمين الجميل
- **الضوء الأصفر** - عبدالله بو حبيب
- **الخلوي أشهر فضائح العصر** - ألين حلاق
- **أصوات قلبت العالم** - كيري كندي
- **الخيارات الصعبة** - د. إيلي سالم
- **أسرار مكشوفة** - اسرائيل شاحاك
- **الولايات المتحدة الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديموقراطية** - تحرير برند هام
- **مزارع شبعا حقائق ووثائق** - منيف الخطيب
- **الأشياء بأسمائها** - العقيد عاكف حيدر
- **اللوبي** - إدوار تيفنن
- **أرض لا تهدأ** - د. معين حداد
- **الوجه الآخر لإسرائيل** - سوزان نايثن
- **مساومات مع الشيطان** - ستيفن غرين
- **بالسيف أميركا وإسرائيل في الشرق الأوسط** - ستيفن غرين

- **الأسد** - باتريك سيل
- **الفرص الضائعة** - أمين هويدي
- **طريق أوسلو** - محمود عباس
- **الأمة العربية إلى أين؟** - د. محمد فاضل الجمالي
- **النفط** - د. هاني حبيب
- **الصهيونية الشرق أوسطية** - إنعام رعد
- **حربا بريطانيا والعراق** - رغيد الصلح
- **نحو دولة حديثة بعيداً عن ٨ و١٤ آذار** - الشيخ محمد علي الحاج العاملي
- **الحصاد** - جون كوولي
- **عاصفة الصحراء** - اريك لوران
- **حرب تحرير الكويت** - د. حبيب الرحمن
- **حرب الخليج** - بيار سالينجر وإريك لوران
- **المفكرة المخفية لحرب الخليج** - بيار سالينجر وإريك لوران
- **الماسونية** - **دولة في الدولة** - هنري كوستون
- **النفط والحرب والمدينة** - د. فيصل حميد
- **رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدّة الحكم** - د. عبد السلام المجالي
- **الدولة الديموقراطية** - د. منذر الشاوي
- **التحدي الإسلامي في الجزائر** - مايكل ويليس
- **السكرتير السابع والأخير** - ميشيل هيلير
- **التشكيلات الناصرية في لبنان** - شوكت اشتي
- **كوفي أنان رجل سلام في عالم من الحروب** - ستانلي ميسلر
- **عزيزي الرئيس بوش** - سيندي شيهان
- **الولايات غير المتحدة اللبنانية** - شادي خليل أبو عيسى
- **رؤساء الجمهورية اللبنانية** - شادي خليل أبو عيسى
- **أوزبكستان على عتبة القرن الواحد والعشرين** - إسلام كريموف



□ **أوزبكستان على تعميق الإصلاحات الاقتصادية** - إسلام كريموف
□ **العرب والإسلام في أوزبكستان** - بوريبوي أحمدوف وزاهدالله مندوروف
□ **إسرائيل والصراع المستمر** - ربيع داغر
□ **أبي لافرنتي بيريا** - سيرغو بيريا
□ **الفهم الثوري للدين والماركسية** - زاهر الخطيب
□ **الديبلوماسية على نهر الأردن** - د. منذر حدادين
□ **المال إن حكم** - هنري إده
□ **قراصنة أميركا الجنوبية - أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية** - طارق علي
□ **اللوبي الإسرائيلي وسياسة أميركا الخارجية** - جون ج. ميرشايمر وستيفن م. والت
□ **على خط النار** - مذكرات الرئيس الباكستاني بروزي مشرف
□ **قرارات مصيرية: حياتي في دهاليز السياسة** - غيرهارد شرودر
□ **امرأة في السلطة** - كارل برنستين
□ **الطبقة الضاربة** - دايفد روثكوبف
□ **ابنة القدر** - بنازير بوتو
□ **إرث من الرماد** - تيم واينر
□ **حكاية وطن** - ا.د. سري نسيبه
□ **بلاكووتر - أخطر منظمة سرية في العالم** - جيريمي سكاهيل
□ **حروب الأشباح** - ستيف كول
□ **سنوات بلير** - ألستير كامبل وريتشارد سكوت
□ **الأيادي السود** - نجاح واكيم
□ **ستالين الشاب** - سيمون سيباغ مونتيفيوري
□ **تعتيم** - بقلم آمي وديفيد جودمان
□ **دارفور تاريخ حرب وإبادة** - جولي فلنت وألكس دي فال
□ **بالعطاء لكلٍّ منّا أن يغيّر العالم** - بيل كلينتون
□ **رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف ١٩٨٩ - ١٩٩٨** - محمود عثمان
□ **تواطؤ ضد بابل** - جون كولي
□ **العلاقات اللبنانية - السورية** - د. غسان عيسى
□ **سوكلين وأخواتها** - غادة عيد
□ **...؟! أساس الملك** - غادة عيد
□ **الخلوي أكبر الصفقات** - غادة عيد
□ **ما وراء البيت الأبيض** - جيمي كارتر
□ **السلام ممكن في الأراضي المقدسة** - جيمي كارتر
□ **المصالحة - الإسلام والديموقراطية والغرب** - بنازير بوتو
□ **قضيّة سامة** - يوست ر. هيلترمان
□ **لبنان بين ردَّة وريادة** - ألبير منصور
□ **الأمن الوطني الداخلي لدولة الإمارات العربية المتحدة** - عائشة محمد المحياس
□ **سجن غوانتانامو - شهادات حيّة بألسنة المعتقلين** - مايفيتش رخسانا خان
□ **في قلب المملكة - حياتي في السعودية** - كارمن بن لادن
□ **هكذا.. وقع التوطين** - ناديا شريم الحاج
□ **إرث من الرماد - تاريخ «السي.آي.أيه.»** - تيم واينر
□ **لبنان: أزمات الداخل وتدخّلات الخارج** - مركز عصام فارس للشؤون اللبنانية
□ **أميركا من الداخل** - د. سمير التنير
□ **سوريا ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط** - جمال واكيم
□ **إنّه بن لادن** - بقلم جين ساسون
□ **ضريبة الدم** - ت. كريستيان ميلر
□ **في سبيل أفريقيا** - دنيس ساسّو نِغويسّو
□ **عبد الحميد كرامي - رجل لقضية** - نصري الصايغ
□ **ابنة القدر** - بنازير بوتو
□ **الطبقة الخارقة** - دايفيد ج. روثكوبف
□ **بوّابة الحقيقة** - عبد السلام المجالي



- **الأخطبوط الصهيوني والإدارة الأميركية** - علي وهب
- **الصراع على السلطة في لبنان جدل الخاص والعام** - زهوة مجذوب
- **أوباما.. والسّلام المستحيل** - سمير التنّير
- **التحية الأخيرة للرئيس بوش** - منتظر الزيدي
- **حياة من أجل أفريقيا** - عبدالله واد
- **الأحزاب السياسية في العراق** - عبد الرزاق مطلك الفهد
- **عبر جدار النار** - موريال ميراك - فايسباخ
- **حقيقة ليكس** - إعداد مريم البسّام
- **وثائق ويكيليكس الكاملة: لبنان وإسرائيل - (الجزء الأول)** - إعداد مريم البسّام
- **وثائق ويكيليكس الكاملة - لبنان وإسرائيل - (الجزء الثاني)** - إعداد مريم البسّام
- **صيف من نار في لبنان** - الجنرال ألان بيلليغريني
- **غزّة في أزمة** - إيلان بابه ونعوم تشومسكي
- **صراع القوى الكبرى على سوريا** - جمال واكيم
- **قيود تتمزق** - شادي أبو عيسى
- **محو العراق** - مايكل أوترمان وريتشارد هيل